

جُمْهُورِيَّةُ الْعِرَاقِ
دِيَارُ الْوَقْفِ الشَّيْعِيِّ

تراث البصرة

مَجْلَدُ فَصْلِيَّةِ مُحْكَمَةٍ
تُعْنَى بِالتُّرَاثِ الْبَصْرِيِّ

تصدر عن :

الْعَتَبَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ الْمُقَدَّسَةُ
قِسْمُ شُعُورِ الْمَعَارِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْإِسْتِثْنَائِيَّةِ
مَرْكَزُ تَرَاثِ الْبَصْرَةِ

السَّنَةُ الْأُولَى - المجلد الأول - العدد (الثاني)

رَمَضَانَ ١٤٣٨ هـ - حَزِيرَانَ ٢٠١٧ م



الترقيم الدوليّ

ردمد: print ISSN: 2518-511X

Mobile: 07800816597 - 07722137733

Email: basrah@alkafeel.net

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٢٥٤) لسنة ٢٠١٧م

جمهورية العراق - البصرة

العتبة العباسية المقدسة. قسم شؤون المعارف الاسلامية والانسانية. مركز تراث البصرة.
تراث البصرة : مجلة فصلية محكمة تعنى بالتراث البصري / تصدر عن العتبة العباسية المقدسة قسم
شؤون المعارف الاسلامية والانسانية مركز تراث البصرة-البصرة، العراق : العتبة العباسية المقدسة،
قسم شؤون المعارف الاسلامية والانسانية، مركز تراث البصرة، 1438 هـ. = 2017-
مجلد : ايضاحيات ؛ 24 سم
فصلية-السنة الاولى، المجلد الاول، العدد الثاني (حزيران 2017)-
ردمد: 2518- 511X
تتضمن مصادر.
النص باللغتين العربية ؛ ومستخلصات بالانجليزية.
1. البصرة (العراق)-تاريخ-دوريات. 2. بشار بن برد بن يروح، 96-168 هجري-نقد وتفسير-
دوريات. 3. المكتبات العامة-العراق--البصرة-تاريخ-دوريات. الف. العنوان.

DS79.9.B3 A8373 2017 VOL. 1 NO. 2

مركز الفهرسة ونظم المعلومات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

صَدَقَ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

سورة المائدة : الآية (٣)




أمر جامعي

م/ مجلة تراث البصرة

إشارة الى ما تم مناقشته في محضر مجلس الجامعة بجلسته الثالثة عشر واستناداً
للمصالحات المخولة لنا تقرر الاتي :

اعتماد مجلة تراث البصرة الصادرة من مركز تراث البصرة التابع للعتبة العباسية
لأغراض الترقية العلمية في جامعتنا .


٢٠١٧/٧/٢
الأستاذ الدكتور
ثامر أحمد الحمدان
رئيس الجامعة

نسخة منه إلى //

- مكتب السيد رئيس الجامعة للتفضل بالاطلاع مع التقدير ...
- مكتب السيد مساعد رئيس الجامعة للشؤون العلمية للتفضل بالاطلاع مع التقدير ...
- عمادة كلية التربية للعلوم الإنسانية / مكتب السيد العميد للتفضل بالاطلاع مع التقدير
- عمادة كلية الآداب / مكتب السيد العميد للتفضل بالاطلاع مع التقدير
- عمادة كلية التربية بنات / مكتب السيد العميد للتفضل بالاطلاع مع التقدير
- امانة مجلس الجامعة / مكتب السيد المدير للتفضل بالاطلاع مع التقدير
- قسم الشؤون العلمية / مكتب السيد المدير للتفضل بالاطلاع مع التقدير
- مركز تراث البصرة / العتبة العباسية للتفضل بالاطلاع مع التقدير ...
- قسم الدراسات والتخطيط والمتابعة
- الصادرة

نجلاء //

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي
والبحث العلمي
رئاسة جامعة واسط
قسم
البحث والتطوير

Republic of Iraq
Ministry of Higher
Education & Scientific
Research
Presidency of Wasit
University



الرمز :
العدد : ١١٨٥

٢٠١٧/ ٨ / ٢١
١٤٣ / / هـ

.....
/ / 201

KUT. WASIT. IRAQ
Rabee' District / University
City

www.uowasit.edu.iq
E-mail:
po@uowasit.edu.iq

امـرر جامـعي

م/مجلة تراث البصرة

إشارة إلى ماتم مناقشته في محضر مجلس الجامعة
بجلسته الثالثة عشرة المفتوحة (الجزء الثالث) للعام
الدراسي ٢٠١٦-٢٠١٧ بتاريخ ٢٠١٧/٦/١٨ واستنادا
إلى الصلاحيات المخولة إلينا تقرر الآتي :

اعتماد مجلة (تراث البصرة) الصادرة من مركز تراث
البصرة التابع للعتبة العباسية لأغراض الترقية العلمية في
جامعتنا.

الأستاذ الدكتور

عبد الرزاق احمد النصيري
رئيس جامعة واسط

٢٠١٧/٨/ ٢١

نسخة منه الى///

- *مكتب السيد رئيس الجامعة / للتعاضل بالاطلاع...مع التقدير.
- *مكتب السيد مساعد رئيس الجامعة للشؤون الإدارية / للتعاضل بالاطلاع...مع التقدير.
- *مكتب السيد مساعد رئيس الجامعة للشؤون العلمية / للتعاضل بالاطلاع...مع التقدير.
- *قسم البحث والتطوير مع الأوليات.
- *قسم الشؤون المالية
- *قسم الرقابة والتدقيق
- *قسم الموارد البشرية
- * وحدة قاعدة البيانات
- *الصادر

٢٠١٧

المشرف العام

السيد أحمد الصافي

المتولي الشرعي للعتبة العباسية المقدسة

المشرف العلمي

الشيخ عمار الهلائي

رئيس قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية

رئيس التحرير

الشيخ شاكر المحمدي

الهيئة الاستشارية

أ.د. سعيد جاسم الزبيدي/ جامعة نزوى/ سلطنة عمان.

أ.د. عبد الجبار ناجي الياسري/ بيت الحكمة/ بغداد.

أ.د. طارق نافع الحمداني/ كلية التربية/ جامعة بغداد.

أ.د. حسن عيسى الحكيم/ الكلية الإسلامية الجامعة/ النجف الأشرف.

أ.د. فاخر هاشم سعد الياسري/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة البصرة.

أ.د. مجيد حميد جاسم/ كلية الآداب/ جامعة البصرة.

أ.د. جواد كاظم النصر الله/ كلية الآداب/ جامعة البصرة.

أ.م.د. محمود محمد جايد العيداني/ عضو الهيئة العلمية في جامعة المصطفى (عليه السلام)/

قم المقدسة.

مدير التحرير

أ.م.د. عامر عبد محسن السعد

كلية الآداب/ جامعة البصرة

سكرتير التحرير

د. طارق محمد حسن مطر

هيئة التحرير

- أ.د. حسين علي المصطفى / كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة البصرة.
أ.د. رحيم حلو محمد / كلية التربية - بنات / جامعة البصرة.
أ.د. شكري ناصر عبد الحسن / كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة البصرة.
أ.د. نجم عبد الله الموسوي / كلية التربية/ جامعة ميسان.
أ.م.د. عبد الجبار عبود الحلفي / كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة البصرة.
أ.م.د. محمد قاسم نعمة / كلية التربية - بنات / جامعة البصرة.
أ.م.د. عماد جغيم عويد / كلية التربية/ جامعة ميسان.
أ.م.د. صباح عيدان العبادي / كلية التربية/ جامعة ميسان.
أ.م.د. علي مجيد البديري / كلية الآداب/ جامعة البصرة.

تدقيق اللغة العربية

د. طارق محمد حسن مطر

تدقيق اللغة الإنجليزية

الأستاذ المساعد هاشم لازم كاطع

الإدارة المالية

سعد صالح بشير

الموقع الإلكتروني

أحمد حسين الحسيني

التصميم والإخراج الطباعي

محمد شهاب العلي

ضوابط النشر في مجلة (تراث البصرة)

يسرُّ مجلة (تراث البصرة) أن تستقبل البحوث والدراسات الرّصينة على وفق الضوابط الآتية:

١- أن يقع موضوع البحث ضمن اهتمامات المجلة وأهدافها (تُعنى بقضايا التراث البصريّ).

٢- أن تكون البحوث والدراسات على وفق منهجية البحث العلميّ وخطواته المتعارف عليها عالمياً.

٣- أن يُقدّم البحث مطبوعاً على ورق بحجم (A4)، وبثلاث نسخ، مع قرص مدمج (CD)، على أن يكون عدد كلمات البحث بحدود (٥٠٠٠-١٠٠٠) كلمة، ومكتوباً بخطّ (Simplified Arabic)، وأن ترقّم الصفّحات ترقّياً متسلسلاً.

٤- أن يُقدّم عنوان البحث وملخص البحث باللّغتين: العربيّة والإنجليزيّة، وبحدود (٣٥٠) كلمة.

٥- أن تحتوي الصّفحة الأولى من البحث على عنوان واسم الباحث/ الباحثين، وجهة العمل، والعنوان الوظيفي، ورقم الهاتف الأرضي أو المحمول، والبريد الإلكتروني، مع مراعاة عدم ذكر اسم الباحث، أو الباحثين، في صلب البحث، أو أيّ إشارة إلى ذلك.

٦- أن يُشار إلى الموامش في آخر البحث، وتُراعى الأصول العلميّة المتعارفة في التوثيق، والإشارة بأن تتضمّن: (اسم الكتاب، رقم الصّفحة).

٧- أن يزود البحث بقائمة المصادر والمراجع منفصلة عن الهوامش، وفي حالة وجود مصادر ومراجع أجنبية تُضاف قائمة المصادر والمراجع بها منفصلة عن قائمة المراجع والمصادر العربية، ويُراعى في إعدادهما الترتيب الأبجديّ لأسماء الكتب أو البحوث في المجلات، أو أسماء المؤلفين.

٨- أن تُطبع الجداول والصُّور واللُّوحات على أوراق مستقلة، ويُشار في أسفل الشَّكل إلى مصدرها أو مصادرها، مع تحديد أماكن ظهورها في المتن.

٩- أن تُرفق نسخة من السِّيرة العلميّة للباحث إذا كان ينشر في المجلة للمرّة الأولى، وأن يُشار إلى ما إذا كان البحث قد قدّم إلى مؤتمر أو ندوة، وأنّه لم يُنشر ضمن أعمالها، كما يُشار إلى اسم أيّة جهة علميّة أو غير علميّة قامت بتمويل البحث أو ساعدت في إعداده.

١٠- أن لا يكون البحث منشوراً، ولا مقدّماً إلى أيّة وسيلة نشر أخرى.

١١- تعبّر جميع الأفكار المنشورة في المجلة عن آراء كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر جهة الإصدار، ويخضع ترتيب الأبحاث المنشورة لموجبات فنيّة.

١٢- تخضع البحوث لتقويم علميٍّ سرّي لبيان صلاحيتها للنشر، ولا تُعاد البحوث إلى أصحابها، سواء قبلت للنشر أم لم تقبل، وعلى وفق الآليّة الآتية:
أ- يبلغ الباحث بتسلّم المادّة المرسلة للنشر خلال مدّة أقصاها أسبوعان من تاريخ التسلّم.

ب- يُحظر أصحاب البحوث المقبولة للنشر بموافقة هيئة التحرير على نشرها وموعد نشرها المتوقّع.

ج- البحوث التي يرى المقومون وجوب إجراء تعديلات أو إضافات عليها قبل نشرها تُعاد إلى أصحابها مع الملاحظات المحددة كي يعملوا على إعدادها نهائياً للنشر.

د- البحوث المرفوضة يُبلّغ أصحابها بذلك من دون ضرورة إبداء أسباب الرفض.

هـ- يمنح كلّ باحث نسخة واحدة من العدد الذي نُشر فيه بحثه، ومكافأة مالية.

١٣- يُراعى في أسبقية النشر:

أ- البحوث المشاركة في المؤتمرات التي تقيمها جهة الإصدار.

ب- تاريخ تسلّم رئيس التحرير للبحث.

ج- تاريخ تقديم البحوث كلّما يتمّ تعديلها.

د- تنوع مجالات البحوث كلّما أمكن ذلك.

١٤- تُرسل البحوث على البريد الإلكتروني للمركز:

(Basrah@alkafeel.net)، أو تُسلّم مباشرة إلى مقرّ المركز على العنوان الآتي:

(العراق/ البصرة/ شارع بغداد/ حيّ الغدير/ مركز تراث البصرة).

وفّقكم الله لخدمة بصرتنا العزيزة وعراقنا الغالي.

كلمة العدد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إذا كانت البصرة - منذ القدم - ملتقى القوافل التجارية؛ بسبب موقعها الجغرافي المتميز، فهي في الوقت نفسه ملتقى الأفكار والثقافات؛ الأمر الذي جعل لها - فضلاً عن وظيفتها التجارية - وظيفة ثقافية كانت وما تزال محل إعجابٍ وانبهارٍ؛ لما اتسمت به من ثراءٍ وتنوعٍ.

وعندما سطع نجمُ رسالة السماء، كانت العقلية البصرية مهية تماماً للتفاعل والتعامل الإيجابي مع نور مبادئ الإسلام وقيمه وأفكاره، وكان لمسجد البصرة ومربدها الدور الفاعل في الردف الفكري والحضاري، حتى صاراً منهلاً لكل المتطلعين إلى التألق والبناء المعرفي القائم على الابتكار والانفتاح.

كل هذا جعل للبصرة تراثاً ضخماً مليئاً بالمحامد والمفاخر، ولا شك في أن التمصير قد أضفى على هذا المكان خاصية الجذب والاستقطاب، حتى غدا فيما بعد محجاً لمحبي الحضارة والتقدم ولطلاب العلم، ولم تكن البصرة متطفلة على المعرفة، بل كانت دائماً منبئاً للمعارف، ومن عقول علمائها انبثق الكثير من العلوم.

ومع هذا، فقد عانت البصرة كثيراً من الساسة الذين تولوا أمرها، ومن كانوا يحوكون الفتنة لكي يحرفوا المسار عما هو مقرر أن يكون عليه، ومن جرّاء

ذلك ظهرت حاجة ملحة للمعالجة والتصويب، وقد تحققت الخطوة الأولى على طريق الإصلاح على يد الإمام عليّ عليه السلام؛ إذ أعاد -بعد فتنة الجمل- للتاريخ مساره السليم، وولّد لدى البصريين قناعةً بأنهم أهل علم وطيبة وكرم وعطاء، وأن هذه القيم يجب أن تكون في محلّها المناسب؛ لكي تتجسّد في خدمة الدين والأمة، وكان من بين الأعمال المهمة التي قام بها الإمام عليه السلام، أن جعل لمسجد البصرة وظيفة ثقافية، فضلاً عن وظيفته العبادية؛ لأن الثقافة أساس الوعي، وأن الوعي مفتاح النجاح.

إنّ هذا الحراك المتميّز الذي شهدته البصرة منذ ذلك الوقت، وسارت عليه -فيما بعد- لم يسلم من الأوجاع، بين تشويه وتحريف ومحاولاتٍ للطمس والتهميش؛ نتيجة لما مرّت به المدينة من مصائب وأحداث؛ لذا، فقد شعرت العتبة العباسية المقدسة بالمسؤولية إزاء كنوز التراث البصري، ووجدت ضرورة بذل الجهد لإزاحة الغبار عن وجهه الناصع ليظلّ يبعث نوره في الآفاق من غير منغصات، وتقديمه إلى الأجيال؛ ليتفعّلوا به علماً وعملاً، فقامت بتأسيس (مركز تراث البصرة)، الذي أخذ على عاتقه إحياء تراث هذه المدينة المعطاء، والتعريف به.

لقد سعى هذا المركز منذ بداية تأسيسه في استقطاب الباحثين المتخصّصين المعنيين بالشأن البصري، فأقام الندوات، وأصدر المطبوعات، وأعدّ البرامج المتنوعة في هذا السبيل، فأضحت تجليات عطائه ملموسة لدى الجميع، ولعلّ الخطوة الرائدة التي سعى إليها المركز هي إصدار مجلة علمية محكمة باسم مجلة (تراث البصرة)؛ ليتسنى للباحثين دراسة التراث البصري على وفق منهجية

علمية رصينة، وسيجد الباحثون ضالتهم بما يُثري نتاجهم العلمي، وستكون هذه المجلة الجسر الذي يوصل المركز بالوسط الأكاديمي.

إنّ طموحنا لكبير في أن تتسارع خطوات هذه المجلة إلى الأمام على طريق الرّصانة العلميّة، وما تتطلبه من دقّة وأمانة وحداثة، تتساوq مع القديم على طريق الارتقاء.

إنّ أبواب مجلّتنا مفتوحة لكلّ الأقلام المحبّة لهذه المدينة ولتراثها الثّر، أينما كانت، وإذا كان العدد الأوّل قد مثّل أوّل الغيث، فسينهمر العطاء العلميّ في الأعداد اللاحقة -إن شاء الله-، ولعلّ ذلك ما يتبيّن في هذا العدد (الثاني)، الذي نقدّمه للقارئ الكريم، وقد نسجت ثيابه أقلام الباحثين الذين بهم سنحوك خيوط النور سبباً للعلو والارتقاء.

إنّ مجلة (تراث البصرة) هي الفسيل الذي يُسقى بمداد العلماء والباحثين، ليُصبح -إن شاء الله- نخلة شاخنة بين نخيل البصرة، وليُعطي بلح العلم الذي سيكون لونا من ألوان الرّطب البصريّ، ومن الله نستمدّ العون والسّداد.

والحمد لله ربّ العالمين

هيئة التحرير

قصيدة تُوْرُخُ سنة صدور مجلة (تراث البصرة) المحكّمة

البصرةُ الفيحاءُ سَمَطُ نُضارِ زادتْ به حُسناً على الأمصارِ
جَدلى الكواكبُ وهي تحرسُ جيدها بالفاتناتِ قلائدِ الأنوارِ
كي يكتبَ الدُّويُّ نحواً للورى مِن هدى سيّدنا أبي الأطهارِ
ويروحَ ذاكَ العَبْقريُّ مؤسّساً تحتَ النخيلِ مراقِصَ الأشعارِ
ولتشهدَ الدّنيا بأنَّ ربوعنا مِن ذي الخُربةِ مَوْلُدُ الأفكارِ
ولذاكَ قد غَمَرَ النفوسَ بجوده فاستبشري خيراً بخيرِ قرارِ
قد أعلنَ (الصّافي) فأسّسَ مركزاً يُحيي تراثَ مدينةِ الآثارِ
في مولِدِ المهديّ، حُجّةِ عصرنا مُحْيِي العقيدةِ، قاصِمِ الكفّارِ
سأخطُ في كفِّ الهلالِ سخاءهُ رَوْضُ يُحيي مُسائلاً بشارِ
مِنْ بينِ ألوانِ العطاءِ مجلّةٌ علميّةٌ كانتْ مَنى الأنظارِ
مِنْ بَصَرَتِي وتُراثُها صاغتْ لها إسماءً، فَكانَ تَزِيناً بوقارِ
فاكتبُ على سَعَفِ النّخيلِ مُورِّخاً: (قَمَرٌ يُراقِصُ أنجَمَ العَشّارِ)

١٤٣٧هـ = (٦٠٢ + ٩٤ + ٤٠١ + ٣٤٠)

شعر: د. عامر السّعد

المحتويات

- ٢٣ التَّوسُّعُ فِي بِنَاءِ الْمَفْرَدَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي شِعْرِ بَشَّارِ بْنِ بُرْد
أ.م.د. عبد الزَّهْرَة عودَة جبر
جامعة ميسان/ كَلِيَّةُ التَّربِيَةِ/ قِسمُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
- ٦٥ تَأْسِيسُ مَدِينَةِ الْبَصْرَةِ وَمَرَاهِلُ تَطَوُّرِهَا حَتَّى نِهَايَةِ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ
أ.د. رَحِيمُ حَلَوِ مُحَمَّدُ الْبَهَادِلِيّ
جامعة البصرة/ كَلِيَّةُ التَّربِيَةِ لِلْبَنَاتِ/ قِسمُ التَّارِيخِ
- ٩١ جَوَانِبُ مِنْ سِيَاسَةِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ عليه السلام مَعَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ
م.د. علاء حسن مردان اللَّامِيّ
كَلِيَّةُ الْإِمَامِ الْكَاسِمِ عليه السلام لِلْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْجَامِعَةِ - فِرْعُ مِيسَانَ
- ١٣٥ مِهْنُ السُّوقِ فِي الْبَصْرَةِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الْأَوَّلِ
(١٣٢ - ٢٣٢هـ / ٧٥٠ - ٨٤٦م)
أ.د. عبد الحكيم غنّاب الكعبيّ
جامعة البصرة/ مركز دراسات البصرة والخليج العربيّ
- ١٦٧ قَصِيدَةُ (أُمِّ الْبُرُومِ) لِبَدْرِ شَاكِرِ السَّيَّابِ، قِرَاءَةٌ أُخْرَى
أ.د. حامد ناصر الظالميّ
جامعة البصرة/ كَلِيَّةُ التَّربِيَةِ لِلْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ/ قِسمُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
- ١٩٥ مَدِينَةُ الْقُرْنَةِ فِي كِتَابَاتِ الرَّحَّالَةِ وَالْمَسْؤُولِينَ الْأَجَانِبِ
أ.م.د. عماد جاسم حسن الموسويّ
جامعة ذي قار/ كَلِيَّةُ التَّربِيَةِ لِلْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ/ قِسمُ التَّارِيخِ

٢٣٩

نفطُ البصرة (١٩٣٨-٢٠١٣م)

أ.م.د. عبد الجبار عبود الحلفي

جامعة البصرة / مركز دراسات البصرة والخليج العربي

٢٦٩

المكتبات العامة في محافظة البصرة في الثمانينيات (دراسة ميدانية)

أ.د. محمد عودة عليوي - أ.م.د. مجبل لازم مسلم المالكي

جامعة البصرة / كلية الآداب / قسم المعلومات وعلم المكتبات

Tavernier's Trip to Basrah in the 17th Century

19

By: Professor Hussain Ali Al-Mustafa, Ph. D.

History Department / College of Education for Human Sciences /
University of Basrah

التَّوسُّعُ فِي بِنَاءِ الْمَفْرَدَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي شِعْرِ بَشَّارِ
بْنِ بُرْدٍ

Expansion in Tackling Arabic Vocabulary
Items in the Poetry of (Bashar Bin Burd)

أ.م.د. عبد الزَّهْرَة عودَة جبر

جامعة ميسان/ كَلِيَّةُ التَّربِّيَةِ/ قِسمُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

Assistant professor: Abdul Zahra Oda Jabur

Department of Arabic Language/

College of Education/ Maisan University

ملخص البحث

هذه دراسةٌ صرفيّةٌ لشعرِ شاعرٍ عُدَّ آخرَ المتقدِّمينَ، وأوَّلَ المُحدثينَ، وكان من مخضرمي الدَّولتين، الأمويَّة والعبَّاسيَّة، شاعر عاش في البصرة، حيثُ نشأه الدَّرس اللُّغويُّ على أيدي اللُّغويينَ ممَّن عاصروهم، أمثال: أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ)، والخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، وسيبويه (ت ١٨٠هـ)، ويونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ)، وغيرهم، ذلك هو (بشار بن برد). وقد ركَّز البحث على قدرة الشَّاعر على بناء المفردات العربيَّة وطريقة صوغها بقوالب لم يألُفها معاصروه، أو لم يستعملها سابقوه.

Abstract

The present paper is a morphological study of the poetry of Bashar bin Burd, one of the leading poetic figures who lived during the Umayyad and Abbasid periods. He lived in Basrah and was contemporary of outstanding linguistic scholars such as Abu Amr bin Al-Alaa, Al-Khaleel bin Ahmed Al-Faraheedy, Sibawaih, Younis bin Habeeb, and others. The paper highlights the poet's ability in dealing with Arabic vocabulary items and how to draw them up in unprecedented forms.

حياة بشار

هو بشار بن بُرد بن يرجوخ^(١)، وجدّه من طُخارستان، ممّن سباهم المهلب بن أبي صفرة والي خراسان (٧٩-٨١هـ)، ثم صار أبوه (بُرد) إلى (خيرة القُشيرية) زوج المهلب، ثم وهبته لامرأة من بني عُقيل، وفي كنفها وُلد بشار مكفوفاً، فأعتقته، ونُسب إليها^(٢).

وذكر بشار ولاءه لبني عُقيل في شعره، فقال:

إِنِّي مِنْ بَنِي عُقِيلِ بْنِ كَعْبٍ مَوْضِعَ السَّيْفِ مِنْ طُلَى الْأَعْنَاقِ^(٣)
وَيُكْنَى بَشَّارَ بَأَبِي مُعَاذٍ، وَيَلْقَبُ بِالْمُرْعَثِ، قِيلَ: لَأَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ فِي أُذُنِهِ
رَعَّةً^(٤). وهو من مخضرمي شعراء الدولتين الأموية والعباسية. وُلد في البصرة
نحو سنة (٩٥هـ)^(٥)، ونشأ في بني عُقيل، وأعانتَه هذه النشأة على أن يتمثّل
السليقة العربية، فشَبَّ فصيحَ اللسان، صحيحَ البيان^(٦)، وقد أثر عنه قوله:
«وَلِدْتُ هَاهُنَا، وَنَشَأْتُ فِي حَجُورِ ثَمَانِينَ شَيْخًا مِنْ فُصَحَاءِ بَنِي عُقِيلٍ، مَا فِيهِمْ
أَحَدٌ يَعْرِفُ كَلِمَةً مِنَ الْخَطَا، وَإِنْ دَخَلْتَ عَلَى نِسَائِهِمْ، فَنَسَاؤُهُمْ أَفْصَحُ مِنْهُمْ،
وَأَيْفَعْتُ فَأَبْدَيْتُ إِلَى أَنْ أَدْرَكْتُ، فَمِنْ أَيْنَ يَأْتِينِي الْخَطَا؟»^(٧).

واختلف بشار منذ نعومة أظفاره إلى مُربد البصرة ومساجدها، وكانت
يومئذٍ محطّ رحال الأقيام، فاغترف من حلقات العلم والشعر، ولم يكدّ يبلغ
العاشرة من عمره حتّى سال الشعر على لسانه^(٨)، وأصبح من المضطّلعين في
علم الكلام، وأحد أعمدته، فكان «في البصرة ستّة من أصحاب الكلام: عمرو
ابن عبيد، وواصل بن عطاء، وبشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس، وعبد
الكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الأزديّ...، فكانوا يجتمعون في منزل الأزديّ،

ويختصمونَ عنده، فأما عمرو وواصل، فصارا إلى الاعتزال، وأما عبد الكريم وصالح، فصححا التوبة، وأما بشار، فبقي متحيراً متخلطاً، وأما الأزدي، فمال إلى قول السَّمْنِيَّة، وهو مذهبٌ من مذاهبِ الهند^(٩).

وقد نُسبَ بشار إلى جملةٍ من المذاهب والمعتقدات، منها: الشَّوَيْيَّة، والمجوسِيَّة، والشَّعوبِيَّة، والمانويَّة، والبرهميَّة، والسَّمْنِيَّة، والدَّهْرِيَّة، والجبريَّة^(١٠). وهذا الأمر يدلُّ على عدم الثَّبُت من انتماء بشار إلى مذهبٍ معيَّن. ولعلَّ أكثر ما اتَّهم به بشار (الزندقة)، التي قيل إنَّها كانت سبب قتله، فزُوي أنَّ بشاراً كان يلهجُ بذكر النساء والتغزل بهنَّ، وآثمه يُفسد النساء والشباب بغزله الفاضح، فشُكي إلى المهديِّ العباسيِّ بأنَّ يكفَّ عن ذلك، فكفَّ بشار على مضضٍ، وأخذ يحتال على الحاكم العباسيِّ بأنَّ يقول في الغزل ما يشاء، ثمَّ يخلص في نهاية قصيدته بأنَّ الحاكم قد نهاه عن ذلك، فانتهى، فكان ذلك ممَّا يسوء المهديَّ العباسيِّ ويؤذيه. ولما قدَّم المهديُّ إلى البصرة مدحه بشار بقصيدته التي مطلعها:

تَجَالَلْتُ عَنْ فِهْرٍ وَعَنْ جَارَتِي فِهْرٍ وَودَّعْتُ نَعْمَى بِالسَّلَامِ وَبِالْهَجْرِ^(١١)

فأعطى غيره من الشعراء، ولكنه حرم بشاراً، ولم يجزه لغضبه عليه، فأثر ذلك في بشار، ودعاه إلى أن يهجوه بأبياتٍ قال فيها:

خليفة..... يلعبُ بالدُّبُوقِ والصَّوْلَجَانِ

أبدلنا الله به غيره..... الخَيْرُ زَانُ^(١٢)

وهجا وزيره (يعقوب بن داود)، فلما بلغ ذلك يعقوب، أسرع إلى المهديِّ العباسيِّ وأحضر معه من يشهد بزندقة بشار، فأمر بقتله، فأرسل إليه يعقوبُ من ألقاه بالبطيحة في البصرة^(١٣). واختلف في تاريخ ذلك، فقيل: إنَّه حدث سنة

(١٤١هـ) (١٦٨هـ)، وقيل: سنة (١٦٧هـ) (١٥٠).

شعرُ بشار والاحتجاجُ به

إنَّ الزَّمانَ والمكانَ اللَّذينَ تيسَّرَ لبشار أنْ يوجدَ فيهما كانا سبباً قوياً في أنْ تَظْهَرَ مواهبُه الفطريَّةُ مظهرَ الشَّاعرِ العربيِّ الفائقِ المعاني، الفصيحِ الألفاظ، فعاش في عصر الدَّولةِ الأمويَّةِ، وهو عصرٌ ازدهرتْ فيه الحضارةُ العربيَّةُ الخالصةُ، وتربَّى في مهدٍ عربيٍّ اتَّقنَ فيه العربيَّةَ، وتمثَّلَ سليقتها بكلِّ مقوماتها^(١٦)، فقال الشَّعرَ في سنٍّ مبكِّرةٍ وأكثرَ فيه، وقد أثَّرَ عنه قوله: «أنا أشعر النَّاسَ؛ لأنَّ لي اثني عشر ألف قصيدة، فلو أُخْتيرَ من كلِّ قصيدةٍ بيتٌ لاستُندر، ومَنْ ندرتْ له اثنا عشر ألف بيتٍ، فهو أشعرُ النَّاسِ»^(١٧).

وهذا العدد الكبير الَّذي أعطاه بشار لقصائده يدعو إلى الشَّكِّ، فلو كان بشار يقول في كلِّ يوم قصيدةً لما وصلتْ قصائده إلى هذا العدد. ولكنَّ الثَّابت في كتب الأدب أنَّ شعر بشار كثيرٌ، فقد قال فيه ابن النَّدِيم (ت ٣٨٥هـ): «ولم يجتمع شعرُه لأحدٍ، ولا احتوى عليه ديوانٌ، وقد رأيتُ منه نحو ألف ورقة»^(١٨)، وقال ابن خَلِّكان (ت ٦٨١هـ): «وشعر بشار كثيرٌ سائرٌ»^(١٩).

ولم يصل إلينا من شعر بشار إلَّا نزرُه، ولعلَّ أسباباً كثيرةً كانت وراء ضياع شعره، منها: سيرة بشار وسوء سلوكه، وما حواه شعره من هجاء مقذع، ومنها أيضاً: الظروف التي مرَّتْ في حياته، كانتقال السُّلطة من الأمويِّين إلى العبَّاسيِّين، فضلاً عن اتِّهامه بالزَّندقة، كلُّ ذلك أدَّى إلى انصراف جُلِّ النَّاسِ -ولاسيَّما الرُّواة- عن تداول شعره^(٢٠).

وشعر بشار يدلّ على أنّ له رتبةً مكيّنةً في كلام العرب وأحوالهم وعاداتهم، حتّى إنّهُ لينظم القصائد فلا يخلّ بشيءٍ ممّا أودعه فحول العرب في أشعارهم، ففي أمالي الزجاجيّ (ت ٣٣٧هـ)، عن أبي حاتم (ت ٢٥٥هـ)، قال: «أنشدت أبا زيد قول بشار:

أَدَيْسُم يَا بَنَ الذُّئْبِ مِنْ نَسْلِ زَارِعٍ أَتُرَوِي هِجَائِي سَادِرًا غَيْرَ مُقْصِرٍ^(٢١)
فقال: قاتله الله، ما أعلمه بكلام العرب! فالديسُم: ولد الذئب من الكلبة، والعرب تقول للكلاب: أولاد زارع، والعسبار: ولد الضبع من الذئب، والسّمع: ولد الذئب من الضبع^(٢٢).

وقد رزق بشار ذهناً وقادراً، وفطرةً سليمةً، وأعانهُ على نماء مواهبه فقدُ بصره، فقوي خياله، واشتدّ حفظه، ويكاد يُجمع الدارسون على أنّ عاهة العمى عند بشار كانت حافزاً لنموه الفكريّ وجودة معانيه^(٢٣).

كلّ ذلك كان له الأثر الكبير في أنّ يُخرج قصائده على طريقة العرب القدماء، «سواء كان ذلك من جهة المعاني، فيذكر الأطلال والرّسوم والغُدر والمراعي؛ إعجاباً بمقدرته على الالتحاق بشأو العرب الخلّص، أم كان من جهة نسج نظمه، فيأتي به على طريقة العرب في أساليب تراكيب الجمل عندهم، وفي توخيّ الكلمات الواقعة في أشعارهم، وكلّ ذلك دليل على سعة علمه بالعربية الحقّة وسلامة ذوقه»^(٢٤).

فاستطاع بشار أن يجمع في شعره أفضل معاني السّعر العربي القديم، وأجود الألفاظ العربيّة الفصيحة، وأنّ يصف الحضارة الجديدة في أجلى مظاهرها، وازدهر الماضي في شعره بالحاضر مع الاحتفاظ لذلك الماضي بشخصيّته

الخالدة^(٢٥)، ومن أجل هذا عُدَّ بشار آخرَ المتقدمين وأوّل المحدثين، فهذا الأصمعيّ (ت ٢١٣هـ) يقول: «إِنَّ بشاراً خاتمة الشعراء، والله لولا أن أيامه تأخّرت لفضّلته على كثيرٍ منهم»^(٢٦)، وفضّل الأصمعيّ بشاراً على الكميت؛ لأنّه «لم يتعلّق على بشار بشيء، وتعلّق على الكميت»^(٢٧)، وسُئِلَ الأصمعيّ عن بشار ومروان بن أبي حفصة، أيهما أشعر؟ فاختر بشاراً، فسُئِلَ عن السبب، فقال: «لأنّ مروان سلك طريقاً كثر مَنْ يسلكه، فلم يلحق مَنْ تقدّمه، وشركه فيه مَنْ كان في عصره، وبشار سلك طريقاً لم يُسلك، وأحسن فيه، وتفرّد به، وهو أكثرُ تصرّفاً وفنونَ شعرٍ، وأعزُّ وأوسعُ بديعاً، ومروان لم يتجاوز مذاهب الأوائل»^(٢٨).

وقال ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ): «كان بشار يُعَدُّ في الخطباء والبلغاء، ولا أعرف أحداً من أهل العلم والفهم دفع فضله، ولا رغب عن شعره، وكان شعره أنقى من الرّاحة، وأصفى من الزجاجة، وألس على اللسان من الماء العذب»^(٢٩).

فإذا كان شعر بشار بهذه المنزلة، وكان علماء العربيّة قد أثنوا عليه، فهل استشهدوا به في كتبهم النحويّة واللّغويّة؟

حدّد علماء العربيّة إطاراً زمنياً للاستشهاد بالشّعر، أطلق عليه (عصر الاحتجاج)، ويشمل ما روي من نصوص العصر الجاهليّ، ويمتدّ إلى نحو منتصف القرن الثّاني للهجرة، فكان إبراهيم بن هرمة (ت ١٥٠هـ) آخر مَنْ يُحتجّ بشعره^(٣٠)، وقد استند منهج النّحويّين في كثير من جوانبه إلى ما قام به الأدباء حين قسّموا الشعراء على طبقات أربع هي^(٣١):

- طبقة الجاهليّين: وهم الذين لم يدركوا الإسلام، كامرئ القيس، وزهير بن

أبي سلمى.

- طبقة المخضرمين: وهم الذين شهدوا الجاهليّة والإسلام، كحسان بن ثابت، وكعب بن زهير.
- طبقة الإسلاميين: وهم الذين عاشوا في عصر الإسلام، كجبر، والفرزدق.
- طبقة المولّدين: وهم الذين عاشوا في العصر العبّاسيّ، كبشّار بن برد، وأبي نواس.

أمّا شعراء الطبقتين الأولى والثانية، فأجمع العلماء على صحّة الاحتجاج بشعرهم، وأمّا الثالثة، فاختلّفوا في صحّتها بين أخذٍ بها ورفضٍ لها، غير أنّ معظمهم ذهب إلى صحّة الاستشهاد بها، وأمّا الرابعة، فالعلماء مجمعون على عدم الاستشهاد بشعرها سوى الزّخشي (ت ٥٣٨هـ)، الذي استشهد بشعر أبي تمام معلّلاً ذلك بقوله: «هو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللّغة، فهو من علماء العربيّة، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة، فيقتنعون بذلك لو ثوقهم بروايته وإتقانه»^(٣٢).

وقد نظر اللّغويون إلى اللّغة بعد عصر الاحتجاج نظرة ازدراء، وعدّوا كلّ ما جاء به المولّدون من ظواهر لغويّة أمثلةً صريحة للخطأ والانحراف^(٣٣)، وأغلّقوا باب البحث في هذه اللّغة، وحكّموا عليها بالجمود والتوقّف، وكأنّها كمّ ثابت لا يتغيّر ولا يتطوّر من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى آخر، وكأنّ ما نطق به العرب بعد هذا التّاريخ ليس من العربيّة في شيء، ولا يمتّ إليها بصلة، وهذا ما يتنافى مع تطوّر اللّغة باعتبارها^(٣٥) ظاهرة اجتماعيّة^(٣٦).

وقد أثار عمل اللّغويين هذا جدلاً واسعاً ومعركة نقدية عنيفة، دارت رحاها بين المولّدين واللّغويين، «وكان بشّار بن برد قائد الثّورة على اللّغويين، فقد أبقى

أَنْ يُدْعَنَ لأحكامهم، بل لم يرهم أهلاً لأن يكونوا نقاداً؛ لأن عملهم لا يسمو بهم إلى حيث يشتهون من الحكم على الشعر، أو التصدي للشعراء، فهم ليسوا إلا نقلة، أو جامعي شعر وأخبار، ولا يستطيع نقد الشعر وميز رديئه من جيده إلا من خبره وعانى نظمه»^(٣٧).

فروى أن الأخفش (ت ٢١٥هـ) طعن على بشار ألفاظاً منها (الغزلى)، في قوله:

على الغزلى سلامُ الله مني وإن صنع الخليفة ما يشاء^(٣٨)
و(الوجل) في قوله:

فالآن أقصر عن سمية باطلي وأشار بالوجل على مشير^(٣٩)
فقال الأخفش: «لم يسمع من الرجل والغزل (فعل)، وإنما قاسها بشار، وليس هذا مما يقاس، وإنما يعمل فيه بالسماع»^(٤٠).

فلما بلغ ذلك بشاراً، قال: «ويلي على القصار ابن القصارين»^(٤١)، متى كانت اللغة والفصاحة في بيوت القصارين؟ دعوني وإياه، فبلغ ذلك الأخفش، فبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: وقعت في لسان الأعمى، فذهب أصحابه إلى بشار فكذبوا عنه، وسألوه ألا يهجو، فقال: وهبته للؤم عرضه. قيل: فكان الأخفش بعد ذلك يحتج في كتبه بشعر بشار»^(٤٢).

وقيل: إن سيويه هو الذي عاب على بشار تلك الألفاظ، فلما بلغ ذلك بشاراً هجاه بقوله:

أسيويّه يا ابن الفارسيّة ما الذي تحدّثت عن شمي وما كنت تبتدئ^(٤٣)

وعند التحقيق وجدنا أن الأخفش لم يستشهد في كتابه معاني القرآن بشيء من

شعر بشار، وكذلك الحال عند سيبويه، سوى بيت واحد ورد في الكتاب في باب الإدغام^(٤٤) غير منسوب، وهو:

وما كلُّ ذي رأيٍ بمؤتيك نُصْحَهُ وما كلُّ مؤتٍ نُصْحَهُ بليِّبٍ^(٤٥)

وورد هذا البيت في كتاب الحيوان^(٤٦) للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) منسوباً إلى أبي الأسود الدؤليّ، وذكر أبو العلاء (ت ٤٩٤هـ) أنّ أصحاب بشار هم الذين ينسبونه إلى بشار^(٤٧)، وذكره الرّاعب في محاضراته ولم ينسبه^(٤٨)، وهذا يعني أنّ نسبة البيت إلى بشار ضعيفة جداً.

ولم نجد بين النّحويّين المتقدّمين من يستشهد بشعر بشار؛ لأنّ وفاته المتأخّرة عن عصر الاحتجاج حرمت شعره من الدّخول إلى كتب النّحويّين المنزّهة عن كلّ محدث، فلم يكن المعيار الذي تبنّاه النّحويّون ينظر إلى المادّة اللّغوية نفسها ومدى مجاراتها للنّصوص العربيّة الفصيحة، بل اعتمد كلّ الاعتماد على الزّمن وحده، «ولم يكن للمحدثين من ذنبٍ إلّا أنّهم تأخّروا عن ذلك العصر السّعيد الحظّ»^(٤٩)، فلو كان بشار متقدّماً على الأخفش أو سيبويه لما عابا عليه استعماله تلك الألفاظ، ويتجلّى ذلك واضحاً في قول الأصمعيّ: «إنّ بشاراً خاتمة الشعراء، والله لولا أنّ أيامه تأخّرت لفصلته على كثيرٍ منهم»^(٥٠).

وعزا الدّكتور محمّد حسين آل ياسين أمر الاحتجاج بشعر هذا الشّاعر أو ذاك إلى مبدأ المعاصرة، وهي - في نظره - مسألة نسبيّة لا تقوم على أساس علميّ متين، فالنّحويّون لم يرفضوا الاستشهاد بشعر هذه الطّبقة، إلّا لأنّ شعراءها كانوا معاصرين لهم^(٥١)، وقد تحقّقت في قضيّة الاستشهاد بالشّعر تلك المقولة المشهورة: (المعاصرة حجاب)، فلم يكن أحد من العلماء يعتمد شعر معاصريه

لأسبابٍ من أهمّها: المنافسة التي كانت قائمة بين النّحاة والشّعراء، يريد النّحاة فرض قواعدهم، ويريد الشّعراء فرض مستواهم على هذه القواعد؛ لأنّهم ليسوا أقلّ من النّحاة فهماً للغة، وتذوّقاً لشعر العرب»^(٥٢).

والحقيقة أنّ مسألة المعاصرة لم تكن هي السّبب الرّئيس في حجب أشعار طبقة المولّدين عن الاحتجاج، وإنّما كان النّحويّون الأوائل حريصين كلّ الحرص على «سلامة اللغة وخوفهم من تسرّب بعض اللّحن إليها ممّا يكون متفشياً في عصور الطبقة الرّابعة»^(٥٣).

ولم يستمرّ رفض العلماء أشعار هذه الطبقة طويلاً، فقد نما في الدّرس اللّغويّ مذهب يجوّز الاحتجاج بشعر من يوثق بعربيّته، كان الزّمخشريّ قد وضع أساسه حين استشهد بشعر أبي تمام، عادداً ما يقوله بمنزلة ما يرويه^(٥٤)، وممن تابع الزّمخشريّ الرّضيّ الاستراباديّ (ت ٦٨٦هـ)، فاستشهد الأخير في شرح الكافية^(٥٥) ببيت لبشار بن برد على خلوّ الجملة الحاليّة من الرّابط (الواو)، إذا كان الخبر فيها ظرفاً مقدّماً على المبتدأ، وهو قوله:

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خَرَجْتُ مع البازي عليّ سواد^(٥٦)

لكنّ هذا المنهج الخجول الذي اتّبعه قلّة من المتأخّرين لم يلقَ القبول والتّوسّع عند أغلب علماء العربيّة فيما بعد، «ولم تستيقظ الفكرة التي أثارها الزّمخشريّ عن الاحتجاج بمن يوثق به من الشّعراء والعلماء إلّا بعد هذا الوقت الطويل - شأنها شأن الاحتجاج بالحديث - ولذلك لم تخرج عن إطار (النّقاش النظريّ)، ولم تؤثر في العرف المتوارث السّابق عليها، فما الذي يعنيه الاستشهاد بعدّة أبيات قليلة لأبي تمام أو (لبشار)^(٥٧) في حديث عارض للزّمخشريّ أو الرّضيّ، مع ترك

تلك الثروة الهائلة من مادة اللغة التي أنتجها الشعراء الذين انصرف عنهم علماء اللغة»^(٥٨).

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ المنهج المتشدد الذي اتّبعه النحويون القدماء في وقف الاستشهاد بالشعر عند عصر الاحتجاج لم يلتزم به أغلب المعجميين، وفي مقدّماتهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، فقد استشهد بشعر بشار في خمسة مواضع^(٥٩)، وتابعه في ذلك ابن دريد^(٦٠) (ت ٢٣١هـ)، والأزهري^(٦١) (ت ٣٧٠هـ)، وابن منظور^(٦٢) (ت ٧١١هـ)، والزبيدي^(٦٣) (ت ١٢٠٥هـ).

ومسألة استشهاد اللّغويين بشعر بشار، وامتناع النحويين من ذلك تدلّنا على أنّ علماءنا أدركوا أنّ هناك فروقاً بين مستويات اللغة في ما يمسّ أساس الاحتجاج، وأبرز تلك الفروق يتجلّى في ثبات المستوى النحويّ (التركيب والصّيغ)^(٦٤)، وتغيّر المستوى اللّغوي (الألفاظ ودلالاتها).

فللنحو أصول وقواعد ثابتة استنبطت من كلام العرب في عصر الاحتجاج، وتمّ حجمها وعدم التوسّع فيها^(٦٥)؛ لأنّ الإخلال بها قد يؤديّ إلى عدم الفهم، وهو ما ينافي طبيعة اللغة التي هي أداة الفهم والإفهام. ولأهميّة المستوى النحويّ في اللغة صار مقياساً لفصاحة العرب، فهذا ابن جنّي يشير إلى أنّ الإخلال بالمستوى النحويّ كان السبب في تدني فصاحة أهل الحضر، فيقول: «إنّ كلام أهل الحضر مُضاهٍ لكلام فصحاء العرب، إلّا أنّهم أخلّوا بأشياء من إعراب الكلام الفصيح»^(٦٦).

أمّا اللغة (الألفاظ ودلالاتها)، فإنّها لا تبقى جامدة، بل هي عرضة للتطور والنمو؛ لأنّ ذلك أمرٌ حتميٌّ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الأمم، وما دامت الحياة

تتغير وتتطور بمرور الزمن، فتستجدُّ فيها أشياء ومعاني تتطلَّب أسماء وتعبيرات جديدة، كان لابدَّ للغة من مجازاة ذلك التطور والتغير لتلبي حاجة الناطقين بها^(٦٧)، فتولد فيها ألفاظاً، وتموت أخرى، وتنتقل معاني ألفاظٍ إلى معاني جديدة بعلاقات مقبولة من حيث الدلالة.

فهذا التطور الذي يُصيب اللغة في ألفاظها ودلالاتها لا يمكن حصره بزمان دون آخر، وإنما يمكن الإفادة بل الاحتجاج بما استعمله الشعراء الذين جاوزوا عصر الاحتجاج «مع إمكان أن يُخصَّص من بين هؤلاء مَنْ يُزكى مستوى نتائجهم»^(٦٨)، ولا شكَّ في أنَّ بشار بن برد يقف في مقدِّمهم لما أشرنا إليه من مرتبة شعره وثناء العلماء عليه.

البنية الصَّرفية في شعر بشار

الصَّرف هو العلم الذي يُعنى «بأبنية الكلمة، وبما يكون لحروفها من أصالة وزيادة وحذف وصحَّة وإعلال وإدغام وإمالة، وبما يعرض لآخرها ممَّا ليس بإعرابٍ ولا بناءٍ من الوقف وغير ذلك»^(٦٩). بمعنى أنَّ الصَّرف يهتم بدراسة الكلمة وما يطرأ عليها من تغيير.

وفي الدِّراسات اللُّغوية الحديثة، يسمَّى علم الصَّرف (المورفولوجيا)، ويُعرَّف بأنَّه: «البحث في نشأة الكلمات، والتغيرات التي تطرأ على مظهرها الخارجي»^(٧٠). وقد بيَّن (سوسير) أنَّ علم المورفولوجيا يعالج الأشكال المختلفة للكلمات، كالأسماء، والصفات، والأفعال، والصِّمائر، وأنَّ الفرق بينه وبين علم التركيب أنَّ الثاني يهتم بتحديد الوظائف، وتعيين الوحدات الصَّرفية

التي تتحقّق بها كلّ وظيفة، في حين لا يتناول علم المورفولوجيا إلا أشكال تلك الوحدات^(٧١).

وهذا البحث يركّز على قدرة الشاعر بشار بن برد في بناء المفردات العربية وطريقة صوغها بقوالب لم يألفها معاصروه، أو لم يستعملها سابقوه. وسأعرض لأبنية الأفعال، والمصادر والمستقّات والجمع.

أولاً: الأفعال

بناء (انفَعَلَ) المزيد بالهمزة والتّون في أوّله يدلّ على المطاوعة^(٧٢)، وهذه تعني «التأثّر وقبول أثر الفعل»^(٧٣). أي أنّ المفعول به هو الذي يقبل أثر الفعل، فيصيرُ فاعلاً للفعل نفسه، ولكنهم سمّوا فعله المسند إليه مطاوعاً مجازاً^(٧٤).

ومثال ذلك (انفَرَجَ) في قول بشار:

فَرَجْنَا سَاطِعَ الْغَمَرَاتِ عَنَّا وَعَنْ مِرْوَانَ فَانْفَرَجَ الْغُبَارُ^(٧٥)

واشترطوا في بناء (انفَعَلَ) أن يكون مُطاوعاً لـ (فَعَلَ) المتعدّي، ولم يستعمل من اللّازم إلا فعلاً واحداً ذكره ابن يعيش، وعدّه من الصّرورات الشعريّة، هو: وَكَمْ مَنَزِلٍ لَوْلَايَ طَحْتُ كَمَا هَوَى بِأَجْرَامِهِ مِنْ قُلَّةِ النَّيِّقِ مُنْهَوِي^(٧٦)

فاسم الفاعل (منهوي) مشتقّ من الفعل (انهوى)، مطاوع الفعل (هوى)، وورد مثل ذلك في قول بشار:

حَلِيلِي عَفَا عَنْ سُهَيْلِ بْنِ سَالِمٍ إِذَا غَابَ وَأَنْبَشَا إِلَيْهِ إِذَا ظَهَرَ^(٧٧)

فالفعل (انبش) مأخوذ من «بَشِشْتُ بِهِ، أَبَشُّ بَشّاً وَبَشَاشَةً»^(٧٨)، وهو فعل لازم، ولا يدلّ على المطاوعة، وإنّما صاغه بشار ليدلّ به على المبالغة^(٧٩)، ونحن

نعلم أنّ الزيادة إذا لم تُفدْ معنى من المعاني التي ذكرها الصّرفيّون، فهي للمبالغة والتّوكيد^(٨٠).

وورد (انفَعَلَ) مطاوعاً لـ (فَعَلَ) في قول بشار:

حَتَّى حَلَلْتُ فِي الْحَشَى وَحَتَّى فَتَّتَ قَلْبِي مِنْ جَوَى فَأَنْفَتًا^(٨١)

ومطاوع (فَعَلَ) هو (تَفَعَّلَ)، ويبدو أنّ بشاراً جاء به على صيغة (انفَعَلَ) للضرورة الشّعريّة.

وبناء (تَفَعَّلَ) من المعاني التي يدلّ عليها العمل بعد العمل في مهلة، نحو: تجرّعه وتحسّاه، وتعرّقه^(٨٢).

ومثال ذلك في قوله:

كَمَا تَعَبَّتَ تَعَبَّتْ بِي وَاللَّيْثُ لَا يَلْهُو بِهِ الْعَابِثُ^(٨٣)

فالفعل (تَعَبَّتَ) يدلّ على العمل بعد العمل، ولم نجد صيغة (تَفَعَّلَ) من هذه المادّة في المعجمات، وقد قاسه بشار على الفعل (تَلَعَّبَ)، الذي يدلّ على اللّعب مرّة بعد أخرى^(٨٤).

وبناء (افْعَلَّ) يأتي للدلالة على الاتصاف بالألوان والعيوب^(٨٥)، ومثال ذلك قوله:

وَقَدْ شَفَنِي أَلَّا تَزَالُ كَلِيفَةً تُنَصِّبُنِي فِيهَا فَأَصْبَحُ مُكَمِّدًا^(٨٦)

فالمكمد اسم مفعول من (اكمد)، ولم تذكر المعجمات اللّغويّة صيغة (افْعَلَّ) من هذه المادّة، وإنّما ورد «كمد كفرح كمدًا، فهو كَمدٌ وكَمِدٌ، عابسٌ مهمومٌ... وأكمدّه الحزنُ غمّه، فهو مَكمود»^(٨٧)، وقد صاغه بشار على هذا البناء للدلالة على أنّ الكمد صار ملازماً له.

ثانياً: المصادر

المصدر: هو «اسم دلّ على حدثٍ وزمان مجهول، وهو وفعله من لفظٍ واحد»^(٨٨). وتختلف المصادر في العربيّة بحسب اختلاف أفعالها، فمنها: مصادر الأفعال الثلاثيّة، ومنها: مصادر الأفعال الرباعيّة، ومنها: مصادر الأفعال الخماسيّة، ومنها: مصادر الأفعال السداسيّة، ولا خلاف في قياسيّة هذه المصادر خلا مصادر الأفعال الثلاثيّة، فلهذه الأفعال مصادر قياسيّة وأخر سماعيّة، فالقياس يسير على وفق ضوابط معيّنة، وهناك ما يخرج عن هذا القياس، وهو السماع، فنجد للفعل الواحد أكثر من مصدر، بل قد يبلغ عدد مصادر الفعل أكثر من عشرة مصادر، كما في مصادر الفعل (لَقِيَ)^(٨٩)، ولا بدّ لهذا التعدّد في مصادر الفعل الثلاثيّ من دلالات تختلف بعضها عن بعض^(٩٠).

ومن دلالات أبنية المصادر في شعر بشار:

١ - فَعَالَة:

يأتي هذا البناء للدلالة على الصّفات والطباع^(٩١)، وهو بناء مقيس في كلّ فعل على وزن (فعل)^(٩٢)، ومثال ما ورد من (فعل) قوله مادحاً:

أَخْدَاشُ أَنْتَ ابْنُ الثَّلَاثَةِ لَيْسَ فَوْقَهُمْ ثَلَاثَةٌ
لِيزِيدِ بْنِ مُحَلَّدٍ ثُمَّ الْمُهَلَّبِ ذِي النَّبَاةِ^(٩٣)

فالنبّاة مصدر للفعل (نَبَثَ)، ويعني استخراج التراب، ولم يرد في المعجمات (النبّاة) مصدراً للفعل (نَبَثَ)^(٩٤)، ولكنّ بشاراً استعمله مجازاً ليدلّ به على الفطنة واستخراج الخبايا، فصاغه على (فَعَالَة)؛ ليكون طبعاً للممدوح^(٩٥).

يأتي بناء (تفعال) للدلالة على الكثرة والمبالغة، وأشار سيبويه إلى أنّه بناء مقيس

مشتق من الفعل الثلاثي (فَعَلَ) و(فَعِلَ)^(٩٦)، وذهب الرّضي إلى عدم قياسيّته، فقال عنه: «ومع كثرته ليس بقياس مطّرد»^(٩٧)، ويبدو أنّ تناقضاً واضحاً نلمسه في كلام الرّضيّ، فكيف يكون البناء غير قياسيّ وهو كثير الاستعمال؟ وهذا الأمر دفع مجموعة من اللّغويّين المعاصرين إلى التحقّق منه، فوجدوا أنّ كثرة ما ورد من هذا البناء لا بدّ أن يُسوِّغ القياس عليه^(٩٨).

ومثال ما ورد من ذلك في شعر بشار قوله:

وَإِي لَصْرَافٍ لِّقَلْبِي عَنِ الْمَوَى وَإِنْ حَنَّ تَحَنَّنَ الْمَخَاضِ الضَّوَارِبِ^(٩٩)
فالتّحنان كثرة الحنين.

وكذلك قوله:

يَا لَيْلَتِي لَمْ أَنْمُ شَوْقاً وَتَسْهَاداً حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ الصُّبْحِ قَدْ عَادَا^(١٠٠)
فالتّسهاد كثرة السّهد، وهو الأرق، مُشتق من الفعل سَهِدَ، ومن المصادر التي وردت على هذا المعنى أيضاً: (التّطلاب)^(١٠١)، و(التّضراب)^(١٠٢)، و(التّعدام)^(١٠٣)، و(التّسكاب)^(١٠٤).

ورد مصدران في شعر بشار على وزن (فَعَلَى)، هما (العَزَلَى) و(الْوَجَلَى)، فمثال الأوّل قوله:

عَلَى الْعَزَلَى سَلامُ اللَّهِ مِنِّي وَإِنْ صَنَعَ الْخَلِيفَةُ مَا يَشَاءُ^(١٠٥)
ويقصد بالعزَلَى العَزَل^(١٠٦).

ومثال الثاني قوله:

فَالآنَ أَقْصِرُ عَنْ شَتِيمَةٍ بَاطِلٍ وَأُشَارَ بِالْوَجَلَى إِلَى مُشِيرٍ^(١٠٧)
ويقصد بالوَجَلَى الوَجَل^(١٠٨).

وكان هذان المصدران مما أخذ على بشار، ولم يذكر سيبويه بناء (فَعَلَى) في حديثه عن المصادر المنتهية بألف التأنيث^(١٠٩)، أمّا أبو عليّ الفارسيّ، فقد ذكر أنّ هذا البناء يأتي في الأسماء والصفات، فمثال الأسماء قولهم: أَجَلَى، ودَقَرَى، وبرَدَى، وهي أسماء مواضع، ومثال الصفات قولهم: جَمَزَى، وبَشَكَى، ومَرَطَى، وقالوا: ناقة مَلَسَى، وزَلَجَى، وهما السريعتان، والوَكْرَى الشديدة العدو، وفرس وَثَبَى، وتعدو المَرَطَى، وهو عدو دون الإهاب وفوق التقريب^(١١٠).

وذكر ابن جني أنّ (الفَعَلَى) في المصادر والصفات يأتي للدلالة على السرعة، نحو: البَشَكَى والجَمَزَى والوَلَقَى^(١١١).

وورد في المعجم «جَمَزَ الإنسانُ والبعيرُ والدَّابَّةُ يَجْمِزُ جَمْزاً وَجَمْزَى، وهو عدوٌّ دونَ الحُضِرِ الشَّدِيدِ وفوقَ العَنَقِ»^(١١٢).

ولم نجد في المعجمات ولا في كتب اللغويين والصرفيين ذكراً للفظي (الغَزَلَى)، و(الوَجَلَى).

ويرى الباحث أنّه لو جاز لبشار أن يقيس مصدراً على وزن (فَعَلَى) توسعاً في اللغة، فعليه أن يأتي به دالاً على السرعة، كما أشار ابن جني، ولكنّ اللّافت للنظر أنّ بشاراً استعمل هذين اللفظين خمس مرّات، ولو كان يعتقد بخطأ القياس على هذا الوزن لم يكرّره، ثمّ إنّهُ لما سمع الأخفش يطعن عليه ذلك، قال: «ويلي على القصّار ابن القصّارين، متى كانت اللّغة والفصاحة في بيوت القصّارين؟»^(١١٣)، وهذا يدعونا إلى أن نعتقد بأنّ بشاراً قصد من هذين اللفظين الاسميّة لا المصدريّة، ومن أمثلة ما ورد في اللّغة من الأسماء على وزن (فَعَلَى)، (الجَفَلَى)، وهي دعوة النّاس إلى الطّعام عامّة^(١١٤)، ومن ذلك قول طرفة بن العبد:

نحنُ في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدبَ فينا يَنْتَقِرُ^(١١٥)
وكذلك (النَّقَرى)، وهي دعوة النَّاسِ إلى الطعام خاصَّةً^(١١٦)، وورد ذلك في
قول بشار:

كَأَنَّ مَبْعُوثًا عَلَى بَابِهِ يُدْنِي وَيُقْصِي نَاقِدًا يُجْتَبَى
إِذَا رَمَاهُ النَّقَرَى بِأَمْرِي لَأَنَّ لَهُ الْبَابُ وَلَمْ يُجِبْ^(١١٧)
وكذلك قالوا: (الرَّشْدى)، وهو اسم مأخوذ من الرَّشَد^(١١٨).

ثالثاً: المشتقات

١ - اسم الفاعل:

وورد اسم الفاعل (شائب) دالاً على الثبوت في قوله:
لو خرجت للنَّاسِ في عيدهم صَلَّى لها الأَمْرُدُ والشَّائِبُ^(١١٩)
فالشَّائِبُ اسم فاعل من (شاب يشيب)، واشتقاقه من هذا الفعل جارٍ على
القياس، ولكنهم لم يستعملوه إلا في الشعر، والمستعمل هو (الأشيب) على غير
قياس؛ لأنهم يعدُّون الشَّيبَ من العيوب، ورد في تاج العروس: «الأشيب لا
على القياس، بل على وزن الوصف، من المعاييب الخلقية، كأعمى وأعرج، فعُدَّوه
من العيوب»^(١٢٠).
والضرورة الشعرية واضحة في بيت بشار؛ إذ جاء بالشَّائب بدل الأشيب كي
يستقيم الوزن.

وأما ورود الصِّفة المشبهة من الفعل الثلاثي المفتوح العين، فقليل، نحو:
حريص، وأشيب، وضيق، وميت^(١٢١). ومثال ما ورد منها من هذا الباب، قول

بشار:

لَمَّا عَرَفْنَاهَا جَرَى دَمْعُهُ مَا بَعْدَ دَمْعِ الْعَانِسِ الْأَشْيَبِ^(١٢٢)

فالأشيب مشتق من الفعل (شاب يشيب)، قال سيبويه: «واعلم أنّ مؤنّث كلّ (أفعل) صفة (فعلاء)، وهي تجري في المصدر والفعل مجرى (أفعل)، وقالوا: مَالٌ يَمِيلُ، وهو مائلٌ وأمِيلٌ، فلم يحيثوا به على مَالٍ يَمِيلُ، وإنّما وجهُ فَعَلَ من أَمِيلٍ مِيلٌ، كما قالوا في الأصيدِ صَيْدٌ يَصِيدُ صَيْدًا، وقالوا: شابَ يَشِيبُ، كما قالوا: شاخَ يَشِخُ، وقالوا: أشِيبُ، كما قالوا: أشمطُ، فجاءوا بالاسم على بناء ما معناه كمعناه، وبالفعل على ما هو نحوه أيضاً في المعنى»^(١٢٣).

ويفهم من قول سيبويه أنّهم قالوا: أشيب على وزن (أفعل)؛ لأنّ هذا البناء يدل على العيوب، كالأعرج فهم يعدّون الشيب عيباً، أمّا الفعل (شاب)، فهو عيب في المعنى لا في المبنى. ورد في المعجم: «الأشيب لا على القياس، بل على وزن الوصف من المعايب الخلقية، كأعمى وأعرج، فعُدّوه من العيوب»^(١٢٤).

ويرى الباحث أنّ مجيء الصفة المشبهة من غير الباب الرابع والخامس في مثل: (ميت) من (مات)، و(طيب) من (طاب)، و(سيد) من (ساد)، و(شيخ) من (شاخ)، و(أشيب) من (شاب)، و(ضيق) من (ضاق)، لا يعدّ شاذّاً؛ لأنّ أفعال هذه الصفات ليست أفعالاً حقيقية؛ إذ لا دلالة على الحدث فيها، وإنّما يتّصف بها أصحابها اتّصافاً، فالرجل في قولنا: مات الرجل، مُتّصف بالفعل لم يَقم به على وجه الحقيقة، كما أنّ (الوجه) في قولنا: حسن وجهه، لم يَقم بالفعل، وإنّما اتّصف به.

وبمعنى آخر، فإنّ الأفعال التي تُشتق منها الصفة المشبهة، بصورة عامّة، لا

يُراد منها الفعلية، وإنَّما الوصف أو الهياة التي يكون عليها الفاعل، وإلى ذلك أشار ابن جني في حديثه عن أبنية الأفعال، قال: «وفعل لا يكون أبداً إلا غير متعد؛ لأنَّه إنَّما جاء في كلامهم للهياة التي يكون عليها الفاعل، لا لشيء يفعله قصداً لغيره نحو (شُرِّفَ وظُرِّفَ)»^(١٢٥).

٢- اسم المفعول:

هو «ما اشتقَّ مِنْ فعلٍ لمن وقع عليه»^(١٢٦)، فهو اسم يدلُّ على الحدث وذات المفعول، ولا يفرق عن اسم الفاعل إلا في الدلالة على الموصوف، فاسم الفاعل يدلُّ على ذات الفاعل، واسم المفعول يدلُّ على ذات المفعول^(١٢٧).

يُصاغ اسم المفعول من الفعل الثلاثيَّ على زنة (مفعول)، ومما زاد على الثلاثيَّ بإبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة وفتح ما قبل الآخر^(١٢٨).

وذكر شارح الديوان أنَّ بشاراً استعمل اسم المفعول (مُدْخَل) - وهو الذي أصابه الدَّخَلُ^(١٢٩) - من الفعل الثلاثيَّ (دَخَلَ) على غير قياس^(١٣٠)، في قوله:

أباهل هزّوا لي فتى غير مُدْخَلٍ فإنَّ سماءَ الباهليِّ جِهادُ^(١٣١)
وربَّما أراد بشاراً بالمُدْخَلِ الدَّعيِّ، فقد ورد في اللسان: «المُدْخَلُ الدَّعيُّ؛ لأنَّه أدْخَلَ في القوم»^(١٣٢)، وبهذا المعنى لم يخرج الشاعر على القياس.

وأيضاً ورد اسم المفعول (مُفتَاد) في قوله:

فأرسلت حينَ كلِّ الطَّرْفِ: إنَّهم قد نَوَّموا فأتنا إن كنت مُفتَاداً^(١٣٣)
والمُفتَادُ المُصابُ في فؤاده، وهو من الفعل (فَادَهُ يَفَادُهُ)، أو هو الذي شكا فؤاده، وفعله (فَتَدَ يَفَادُ)، فقياس اسم المفعول (مَفْؤود)^(١٣٤).

وورد اسم المفعول (المُقَوَّد) في قوله:

كَأَنَّهُ مِنْ غُلُوءِ الْجُرْدِ فِي الْعَسْكَرِ الْمُسْلَنْطَحِ الْمُقَوِّدِ^(١٣٥)
والقياس أن يقول: (المقود)، من (قاده يقوده)، وقد صاغ بشار المقود من
(اقود)، أي: صار ذا قائد، ولم نجد هذه الصيغة في المعجمات.

رابعاً: أبنية الجمع

الجمع في العربيّة هو ما دلّ على ثلاثة أو أكثر^(١٣٦)، ويكون على ضربين: جمع
تصحيح، وجمع تكسير^(١٣٧).

١ - جمع التصحيح:

هو ما سلم بناء مفردة عند الجمع، وهو أيضاً على ضربين^(١٣٨):
أ- جمع المذكر السالم: هو ما دلّ على أكثر من اثنين بزيادة واو ونون في حالة
الرفع، وياء ونون في حالتي النصب والجر^(١٣٩). ولم نجد منه في شعر بشار ما
يُلفت الانتباه؛ إذ ورد على القياس.
ب- جمع المؤنث السالم: وهو ما دلّ على أكثر من اثنين بزيادة ألف وتاء في
آخره^(١٤٠)، ويطرّد هذا الجمع في الأعلام المؤنثة، أو ما ختم ببناء التانيث، أو صفة
لمؤنث مقرونة بالتاء، أو دالة على التفضيل، أو صفة لمذكر غير عاقل^(١٤١).
وقد ورد هذا الجمع على القياس في شعر بشار سوى جمعه (جؤذَر) على
(جؤذَرَات)، في قوله:

تَيْمَمْنِي إِذْ تَهَادَتْ	فِي ثَلَاثِ تَائِبَاتٍ
بِتَهَادِي مُرْجَحِنٍّ	مِثْلَ مُهَتَزِّ الْقَنَاءِ
وَبِعَيْنِي بَقَرٍ فِي	بَقَرٍ أَوْ جُؤذَرَاتٍ ^(١٤٢)

والجؤذُر هو ولد البقرة الوحشية^(١٤٣)، وليس هو ممّا يُجمع على هذا الجمع؛ لعدم توافر شروط جمع المؤنث السالم فيه، وإنّما يُجمع تكسيراً على (جاذِر)^(١٤٤).
 وورد عنده جمع (أمّ) التي للعاقل على (أمّات)، في قوله:
 قَلَّ مَنْ طَابَ لَهُ أَبَاؤُهُ وَعَلَى أُمَمَاتِهِ حَسَنُ الثَّنَا^(١٤٥)
 وكلمة (أمّ) إذا كانت للعاقل تُجمع على (أمّهات)، وإنّ كانت لغير العاقل فتُجمع على (أمّات)، ولكن ورد عكس ذلك في كثير من الشعر^(١٤٦).

٢- جمع التّكسير:

هو ما دلّ على ثلاثة أو أكثر بتغيير صورة مُفردِهِ تغييراً لفظياً أو مقدّراً، إمّا بزيادة على مفردهِ، أو نقصٍ عنه، أو تبديلٍ للشّكل من غير زيادةٍ ولا نقصٍ، أو مع زيادةٍ أو مع نقصٍ^(١٤٧). ويُقسم جمع التّكسير بحسب دلّالته على قسمين:
 الأوّل: جمع القلّة: ويُطلق على الجمع من ثلاثة إلى عشرة، وله أربعة أوزان هي: (أَفْعَل)، و(أَفْعَال)، و(أَفْعَلَة)، و(فَعْلَة)^(١٤٨). والآخر: جمع الكثرة: ويُطلق على الجمع من ثلاثة فأكثر^(١٤٩). أمّا أوزانه، فقد ذكر سيبويه اثنين وأربعين وزناً قياسياً، عدا الأوزان السّماعيّة^(١٥٠).

وقد تعدّدت صيغ جموع التّكسير بنوعيه في شعر بشار، ولكثرتها سأقتصر على ذكر ما شدّد منها، أو جاء مخالفاً للقياس، فمن ذلك جمعه (ثيّب)^(١٥١) على (ثيّب)، في قوله:

فَلَا بُدَّ أَنْ تَعْشَاكَ حِينَ غَشِيَتْهَا هَوَا جِدُّ أَبْكَارٍ عَلَيْكَ وَثَيْبٌ^(١٥٢)

فقوله: (ثيّب) جمعٌ على زنة (فُعْل)، قلبت ضمّة الفاء كسرةً لمجانسة عين الكلمة (الياء)، وهذا الجمع يطّرد في كلّ وصفٍ على زنة (أَفْعَل) ومؤنّثة (فَعْلَاء)،

مما دلّ على لونٍ أو عيبٍ^(١٥٣). وجمعُ الشَّيبِ ثِيَّاتٌ^(١٥٤)، قال تعالى: ﴿ثِيَّاتٍ
وَأَبْكَارًا﴾^(١٥٥)؛ لأنَّ ما جاء على (فَعِل) فالأصل أن يُجمع جمع السَّلامة^(١٥٦).

وورد عنده جمع (كَلَب) على (كُلُوب) في قوله:

أَفِيقُوا بَنِي الرِّزْنِجِيِّ إِنَّ سَبِيلَكُمْ سَبِيلُ أَبِيكُمْ لِحُمَةٍ لِكُلُوبٍ^(١٥٧)

وهذا الجمع لم يرد في اللغة، وإنَّما يُجمع الكلب على (أَكْلَب) للقلَّة، وجمعُ
الجمع (أَكَالِب)، وأمَّا للكثرة، فيُجمع على (كِلَاب)، وقالوا في جمع كِلَاب:
كِلابات، وورد أيضاً: كَلِيب، كَعَبْدٌ وَعَبِيدٌ^(١٥٨)، ولا شكَّ في أنَّ الوزن الشعريُّ
هو الذي اضطرَّ بشاراً إلى استعمال هذا الجمع.

وقد جمع بشار (وِشاح) على (أَوْشاح) في قوله:

فَالَيْتُ لَا آلُو الْخَلِيفَةَ طَاعَةً وَلَا أَبْتَغِي إِذْنًا عَلَى ذَاتِ أَوْشاحٍ^(١٥٩)

ولم يرد هذا الجمع في اللغة^(١٦٠)، والقياسُ في جمع (وِشاح) (أَوْشَحَةٌ)؛ لأنَّ ما
كان اسماً رباعياً مذكراً قبل آخره حرف مدٍّ، فجمعُ قلته (أَفْعَلَةٌ)، كَطَعَامٍ وَأَطْعَمَةٍ،
وأمَّا جمعُ كثرته، ف(فُعُل) (١٦١)، كِذْرَاعٍ وَذُرْعٍ، وَعَمُودٌ وَعُمُدٌ، وَوِشاحٌ وَوُشَح.

وورد جمعُ (عَاكِفَة) على (عِكَاف)، في قوله:

دَعَا لَنَا الْخَوْرُ عَلَيْهِ الْحَيَا يَا حَبْدَا الْخَوْرُ الْمَعَاطِيرُ

بِتَنَا نُعَاطِيهَا رُهَاوِيَّةً وَهِيَ عِكَافٌ بَيْنَنَا صُورٌ^(١٦٢)

فهذا الجمعُ مما شذَّ عند بشار؛ إذ لم يرد في كتب اللغة أنَّ (عِكاف) جمعُ عَاكِفَة،
وإنَّما تُجمع على عُكُوفٍ وَعُكَّفٍ^(١٦٣).

وورد الجمعُ (سَوَّل) في قوله:

وَصَدَّ عَنْ السَّوْلِ الْقَرِيعُ وَأَقْفَرَتْ ذُرَى الصَّمْدِ مِمَّا اسْتَوْدَعَتْهُ مَوَاهِبُهُ^(١٦٤)

وقد ذكر شارح الديوان أنّ (الشَّوْل) جمعُ (شائل) أو (شائلة) على غير قياس^(١٦٥). ولكنّ هناك فرقاً بين (الشَّائل) و(الشَّائلة)، فالشَّائل هي الناقّة التي تشوّل بذنبها للّقاح، والجمعُ (شَوّل) و(شَيْل) أو (شَيْل)، وأمّا (الشَّائلة)، فهي الناقّة التي أتى عليها من حملها أو وُضِعَها سبعة أشهر، فَخَفَّ لَبْنُهَا، والجمع (شَوّل) و(شَوائل)^(١٦٦).

وسياق المعنى في بيت بشار يقتضي جمعَ (شائل) لا (شائلة)، بدلالة ذكر (القريع)، وهو الفحل، أي أنّه يصدُّ عن لقاح النّوق، ولكنّ بشاراً استعمل (الشَّوْل) بدلَ (الشَّوّل).

وورد الجمع (نَزّه)، في قوله:

حُورُ الْعُيُونِ نَزّهُ الْأَحْبَابِ مِثْلُ الدَّمَى أَوْ كَمَها الْعَذَابِ^(١٦٧)

ولم تذكر المعجمات هذا الجمع، وقالوا: رجلٌ نَزّه الخُلُق، ونَزّههُ، ونَزّههُ النَّفْس: عَفِيفٌ مُتَكَرِّمٌ وحده لا يُخَالِطُ الْبُيُوتَ بِنَفْسِهِ ولا ماله، والجمع نَزّهَاء، ونَزّهُون، ونَزّهه^(١٦٨)، ويرى الباحث أنّ بشاراً لم يخرج على القياس؛ إذ جمع (نازه) على (نَزّه) على الرُّغم من عدم وروده في اللّغة، فصيغة الجمع على زنة (فَعَّل) قياسيّة فيما جاء من الوصف على زنة (فَاعِل) صحيح اللّام، كَبَاذِلَ وَبُزَل، وراكَع ورُكَّع^(١٦٩).

وورد جمع (فَجَر) على (فُجُور)، في قوله:

وَشَقَّ جِلْبَابَ الدُّجَى الْفُجُورُ وَاَنْقَبَضَ اللَّيْلُ وَلاَحَ النُّورُ^(١٧٠)

ولم يرد في المعجمات جمع (فجر)، قالوا: هما فجران، أحدهما المستطيل، وهو الكاذب، الذي يُسمّى (ذنب السّر حان)، والآخر المستطير، وهو الصّادق المنتشر

في الأفق، الذي يُجرّم الأكل والشرب على الصّائم^(١٧١).

وورد عنده جمع (بلد) أو (بلدة) على (بلائد)، في قوله مادحاً:

إِنَّ الرَّبِيعَ فَأَذْنِهِ نِعَمَ الْوَزِيرِ عَلَى الشَّدَائِدِ

شَهِدَتْ نَصِيحَتُهُ بِمَكِّ حَكَّةَ إِذْ تَوَى مُلْكُ الْبَلَائِدِ^(١٧٢)

ولم نجد هذا الجمع في المعجمات، وجمع (بلد) أو (بلدة) هو (بلاد) و(بلدان)^(١٧٣)،

وربما أراد بشار جمع (بلاد)، أي: جمع الجمع، فقال: (بلائد)، كما قالوا في جمع

(جمال): (جمائل)^(١٧٤).

ولكنّ هذا الجمع لا يُعمل فيه بالقياس، وإنّما يُقتصر فيه على السماع، قال

سيبويه: «واعلم أنّه ليس كلّ جمع يُجمع، كما أنّه ليس كلّ مصدر يُجمع»^(١٧٥).

وقد أجاز ذلك الرّضيّ لمن اضطرّ من الشعراء، قال: «اعلم أنّ جمع الجمع ليس

بقياس مطرّد... بل يُقتصر في جميع ذلك على المسموع، إلّا أن يُضطرّ شاعرٌ

فيجمع الجمع»^(١٧٦).

الخاتمة

تبيّن من البحث أنّ بشار بن برد من الشعراء الذين يُوثّق بعربيّتهم؛ لفصاحة ألفاظه وجزالتها، وسعة علمه بالعربيّة؛ ولذلك لم يتردّد اللّغويّون في الاحتجاج بشعره على مستوى الألفاظ، وأمّا على المستوى النّحويّ؛ فبحكم ما لهذا المستوى من نظام ثابت لا يمكن القفز على قواعده، أو تطويرها، وخشية من تسرّب اللّحن إلى تراكيب العربيّة، فإنّ النّحويّين قصرُوا الاحتجاج بالشّعر على مَنْ سبقَتْ وفاته التّاريخ الذي حدّدوه لذلك، ما أبعد شعر بشار عن الاحتجاج، وبقي حبيس ديوانه سوى ما قام به بعض المتأخّرين.

وتكشّفت لنا دلالات أبنية الأفعال والمصادر والمشتقّات والجموع، التي وظّفها الشّاعر للتعبير عن المعاني المقصودة، وتبيّن لنا -أيضاً- أنّ الشّاعر كان يأتي بتصريفات خلّت منها كتب اللّغة، بقياس بعض الألفاظ على بعض، وإنّ لم تُسمع من العرب؛ توسّعاً في اللّغة، عمداً منه تارة، أو ضرورةً يقتضيها نظام الشّعر تارة أخرى.

الهوامش

- ١- ذكر له أبو الفرج الأصفهاني أربعة وعشرين جَدًّا أعجميًا. يُنظر: الأغاني: ١٢٩/٣.
- ٢- يُنظر: المصدر نفسه: ١٣٠-١٣١/٣.
- ٣- الديوان: ١٣٧/٤، والبيت من الخفيف.
- ٤- الرّعة: القُرط. يُنظر اللّسان: (رعث).
- ٥- يُنظر: الأعلام: ٥٢/٢، وتباينت الآراء في سنة ولادته، فذكر شارح الديوان أنّها (٩٦هـ)، يُنظر الديوان: ٩/١، وفي كتاب بشار بن برد، لإبراهيم عبد القادر المازني سنة (٩٥هـ): ص ١٨، وفي معجم المؤلفين لعمر كحّالة، سنة (٧٧هـ): ٣/٤٤، وفي تاريخ الأدب العربيّ لعمر فروخ، سنة (٩١هـ): ٢/٩٢.
- ٦- يُنظر: تاريخ الأدب العربيّ، شوقي ضيف: ٣/٢٠٢.
- ٧- الأغاني: ٣/٤٤.
- ٨- يُنظر: الأغاني: ٣/١٣٨.
- ٩- المصدر نفسه: ٣/١٤٠.
- ١٠- يُنظر: مقدمة الديوان: ١٦-٢٧.
- ١١- الديوان: ٣/٢٧٢، والبيت من الطّويل.
- ١٢- الديوان: ٤/٢٢٩، والبيتان من السّريع. كلمات خارجة عن الذّوق ارتأينا حذفها.
- ١٣- يُنظر: الأغاني: ٣/٢٤٠-٢٤٢.
- ١٤- يُنظر: نفسه: ٣/٢٤٤، وتاريخ الأدب العربيّ، شوقي ضيف: ٣/٢٠٦، وبشار بن برد، دراسة وشعر، د. محمد الصّادق عفيفي: ص ١٨.
- ١٥- يُنظر: وفيات الأعيان: ١/٢٧٢، وخزانة الأدب: ١/٢٣١، ومعجم المؤلفين: ٣/٤٤.
- ١٦- مقدمة الديوان: ١/٤٠.

- ١٧- زهر الآداب: ٤٧٢ / ٢.
- ١٨- الفهرست: ص ٢٢٧.
- ١٩- وفيات الأعيان: ٢٧٢ / ١.
- ٢٠- يُنظر: بشار بن بُرد بين القدماء والمحدثين (رسالة ماجستير): ص ٩٥.
- ٢١- الديوان: ٦٦ / ٤، والبيت من الطويل.
- ٢٢- أمالي الزجّاجي: ص ٢١٢.
- ٢٣- يُنظر: بشار بن برد، د. محمد الصادق عفيفي: ص ٢٠.
- ٢٤- مقدمة الديوان: ص ٤٨.
- ٢٥- يُنظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف: ص ٢٠٧.
- ٢٦- الأغاني: ١٣٧ / ٣.
- ٢٧- الموشّح: ص ١٩٤.
- ٢٨- الأغاني: ١٤١ / ٣.
- ٢٩- طبقات الشعراء: ص ٢٨.
- ٣٠- يُنظر: الاقتراح: ص ٤٢.
- ٣١- يُنظر: خزانة الأدب: ١ / ٥-٦، وفصول في فقه العربيّة: ص ١٠١.
- ٣٢- الكشف: ص ٤٠.
- ٣٣- يُنظر: التفكير اللّغوي بين القديم والجديد: ص ١٧٩-١٨٠.
- ٣٤- كذا والصّواب: ينافي تطوّر.
- ٣٥- كذا والصّواب: بعدها.
- ٣٦- ابن مضاء القرطبيّ وجهوده النّحويّة: ص ٨٢.
- ٣٧- النّقد اللّغويّ عند العرب: ص ٨٧-٨٨، ويُنظر: فصول في اللّغة والنّقد: ص ١٨٨.
- ٣٨- الديوان: ١٠٥ / ١، والبيت من الوافر.
- ٣٩- الديوان: ٢٩٨ / ٣، والبيت من الكامل.
- ٤٠- الموشّح: ص ٢٢٣.
- ٤١- القصّار: هو الذي يحوّر الثياب ويدقّها بالقصرة التي هي القطعة من الخشب، وحرفته القصارة. يُنظر: اللّسان (قصر): ١٢٢ / ٥.

- ٤٢- الموشّح: ص ٢٢٤.
- ٤٣- الدّيان: ٤ / ٦١، والبيت من الطّويل.
- ٤٤- يُنظر: الكتاب: ٤ / ٤٤١.
- ٤٥- الدّيان: ٤ / ٢٧، والبيت من الطّويل.
- ٤٦- يُنظر: الحيوان: ٥ / ٣١٨.
- ٤٧- يُنظر: رسالة الغفران: ص ٢٠٠.
- ٤٨- يُنظر: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: ١ / ٥٣.
- ٤٩- النقد اللّغويّ عند العرب حتّى نهاية القرن السّابع الهجريّ: ص ٨٨.
- ٥٠- الأغاني: ٣ / ١٤٤.
- ٥١- يُنظر: الدّراسات اللّغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجريّ: ص ٣٥٧-٣٥٨.
- ٥٢- دراسات لغويّة، عبد الصبور شاهين: ص ١٠٧.
- ٥٣- المدخل إلى دراسة النّحو العربيّ على ضوء اللّغات السّامية: ص ٩٣.
- ٥٤- يُنظر: الكشف: ١ / ٤٠.
- ٥٥- يُنظر: شرح الكافية: ٢ / ٧٧.
- ٥٦- الدّيان: ٣ / ٤٩، والبيت من الطّويل، وفيه مكان (خرجت) (نهضت)، والشّاهد فيه خلو جملة (عليّ سواد) من الواو.
- ٥٧- زيادة يقتضيها المقام.
- ٥٨- الرّواية والاستشهاد باللّغة: ص ١٥٨.
- ٥٩- يُنظر العين: (جعب)، و(دهل)، و(عذر)، و(قصب)، و(قول).
- ٦٠- يُنظر: جمهرة اللّغة: (ب ظ ب ظ).
- ٦١- يُنظر: تهذيب اللّغة: (هجا) و(وتد).
- ٦٢- يُنظر: لسان العرب: (وتد): ٣ / ٥٤٥، و(رفض): ٧ / ١٧٦، و(ريب): ١ / ٥١٥، و(لحف): ٩ / ٣٧٥.
- ٦٣- يُنظر: تاج العروس من جواهر القاموس: (وتد): ٢ / ٥٢٢، و(رفض): ٥ / ٣٥، و(ريب): ١ / ٢٨٣.

- و(لحف): ٢٤٤/٦، و(هجأ): ١٣٧/١، و(قبل): ٧٤/٨.
- ٦٤- كان النحو عند القدماء يشتمل على التراكيب والصيغ.
- ٦٥- يُنظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة: ص ١٠١.
- ٦٦- الخصائص: ٢٩/٢.
- ٦٧- يُنظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ص ٤٥٠.
- ٦٨- الاحتجاج بالشعر في اللغة: ص ١٠٠.
- ٦٩- شرح شافية ابن الحاجب: ٧/١.
- ٧٠- التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث: ص ١١.
- ٧١- يُنظر: دروس في الألسنية العامة: ص ٢٠٢.
- ٧٢- يُنظر: الكتاب: ٤/٦٥، وشرح المفصل: ٧/٤٥٨، وشرح الشافية: ١٠٨/١، والمطاوعة حقيقتها وأوزانها (بحث): ص ١٥٦.
- ٧٣- شرح الشافية: ١٠٣/١.
- ٧٤- يُنظر: المصدر نفسه، الصحيفة نفسها.
- ٧٥- الديوان: ٣/٢٥٦، والبيت من الوافر.
- ٧٦- يُنظر: شرح المفصل: ٧/٤٥٩.
- ٧٧- الديوان: ٣/٢٥٧، والبيت من الطويل.
- ٧٨- اللسان (بشش).
- ٧٩- يُنظر: الديوان: ٣/٢٥٧-٢٥٨، الهامش (٥).
- ٨٠- يُنظر: شرح الشافية: ٨٣/١.
- ٨١- الديوان: ٤/٣٥، والبيت من الرجز.
- ٨٢- يُنظر: أدب الكاتب: ص ٢٦٨، وشرح المفصل: ٧/٤٥٦.
- ٨٣- الديوان: ٢/٦٥، والبيت من البحر السريع.
- ٨٤- يُنظر: اللسان (لعب).
- ٨٥- يُنظر: ديوان الأدب: ٢/٤٧٣-٤٧٥، وشرح الشافية: ١/١١٢.
- ٨٦- نفسه: ٣/٥٧، والبيت من الطويل.
- ٨٧- تاج العروس (كمد): ٢/٤٨٦.

- ٨٨- اللّمع: ص ١٠١.
- ٨٩- يُنظر: اللّسان (لقي).
- ٩٠- يُنظر: معاني الأبنية: ١٩، وما بعدها.
- ٩١- يُنظر: الكتاب: ١٦/٤، وديوان الأدب: ٨٥/١.
- ٩٢- يُنظر: الكتاب: ٢٨/٤.
- ٩٣- الدّيان: ٥٩/٢، والبيت من مجزوء الكامل.
- ٩٤- يُنظر: اللّسان (نبث).
- ٩٥- يُنظر الدّيان: ٥٩/٢، الهامش (٢).
- ٩٦- يُنظر: الكتاب: ٨٣-٨٤/٤، وشرح المفصل: ٨٥/٦.
- ٩٧- شرح الشافية: ١٦٧/١.
- ٩٨- يُنظر: مسائل لغويّة في مذكرات مجمعيّة: ص ٥٧.
- ٩٩- الدّيان: ٢٠٣/١، والبيت من الطّويل.
- ١٠٠- الدّيان: ٩٨/٣، والبيت من البسيط.
- ١٠١- نفسه: ٣٤٩/١.
- ١٠٢- نفسه: ٢٥٦/٣.
- ١٠٣- نفسه: ٣١١/١.
- ١٠٤- نفسه: ١٨٥/٢.
- ١٠٥- الدّيان: ١٠٥/١، والبيت من الوافر، وتكرّر لفظ (الغزلي) في الدّيان: ٧٢/٣، و٢٧٧/٣.
- ١٠٦- يُنظر: الموشح: ص ٢٢٣.
- ١٠٧- الدّيان: ٢٩٨/٣ (الكامل)، وقد تكرّر لفظ (الوجلي) في الدّيان: ١٤٣/١.
- ١٠٨- يُنظر: الموشح: ص ٢٢٣.
- ١٠٩- يُنظر: الكتاب: ٤٠/٤.
- ١١٠- يُنظر: التكملة: ص ٣١٠.
- ١١١- يُنظر: الخصائص: ٥٠٥/١.
- ١١٢- تاج العروس (ججز).

- ١١٣- الموشح: ص ٢٢٤.
- ١١٤- يُنظر: اللسان (جفل).
- ١١٥- ديوان طرفة: ص ٥٤.
- ١١٦- يُنظر: اللسان (نقر).
- ١١٧- الديوان: ١/ ١٤٩.
- ١١٨- يُنظر: اللسان (رشد).
- ١١٩- الديوان: ١/ ٢٢٧، والبيت من السريع.
- ١٢٠- تاج العروس (شيب): ٣/ ١٧٠.
- ١٢١- يُنظر: شرح الشافية: ١/ ١٤٨.
- ١٢٢- الديوان: ١/ ١٤٥، والبيت من السريع.
- ١٢٣- الكتاب: ٤/ ٢٧، ويُنظر: أدب الكاتب: ٣٤٦.
- ١٢٤- تاج العروس (شيب).
- ١٢٥- المنصف: ١/ ٢١.
- ١٢٦- شرح الكافية: ٣/ ٤٩٧.
- ١٢٧- يُنظر: معاني الأبنية: ٥٩.
- ١٢٨- يُنظر: ارتشاف الضرب: ١/ ٢٣٣، وشرح ابن عقيل: ٢/ ١٣٧-١٣٨.
- ١٢٩- الدَّخْلُ هو الفساد الذي يدخل في العقل أو الجسم، يُنظر: اللسان (دخل).
- ١٣٠- يُنظر: الديوان: ٣/ ١٠٥، الهامش (١).
- ١٣١- نفسه: ٣/ ١٠٥، والبيت من الطويل.
- ١٣٢- اللسان (دخل).
- ١٣٣- الديوان: ٢/ ١٩٦، والبيت من البسيط.
- ١٣٤- يُنظر: اللسان (فأد).
- ١٣٥- الديوان: ٢/ ٢٣٨، والبيت من الرجز.
- ١٣٦- يُنظر: شرح الكافية: ٣/ ٤٣٤، وتصريف الأسماء: ص ١٩٢، وما بعدها.
- ١٣٧- يُنظر: شرح المفصل: ٥/ ٣٦١-٣٦٢، وجموع التصحيح والتكسير في اللغة العربية: ص ٧-٢٠.

- ١٣٨- يُنظر: شرح المفصل: ٣٦١/٥.
- ١٣٩- يُنظر: جموع التصحيح والتكسير في العربية: ص ٧.
- ١٤٠- يُنظر: المصدر نفسه: ص ٢٠.
- ١٤١- يُنظر: جامع الدروس العربية: ١٩/٢-٢٠.
- ١٤٢- الديوان: ٥٣/٢، والأبيات من مجزوء الرّمل.
- ١٤٣- يُنظر: اللسان (جذر).
- ١٤٤- يُنظر: نفسه (جذر).
- ١٤٥- الديوان: ١٣٣/١، والبيت من الرّمل.
- ١٤٦- يُنظر: اللسان (أمم).
- ١٤٧- يُنظر: الأصول في النحو: ٤٥٢/٢، وشرح المفصل: ٣٦٨/٥، وشرح الحدود النحويّة: ص ٥٨، وجامع الدروس العربية: ٢٥/٢-٢٦.
- ١٤٨- يُنظر: الكتاب: ٤٩٠/٣، والتكملة: ٣٩٩، وشرح الأشموني: ١٧٠-١٧١.
- ١٤٩- يُنظر: حاشية الصّبّان على شرح الأشموني: ١٢٠/٤.
- ١٥٠- يُنظر: أبنية الصّرف في كتاب سيبويه: ٢٩٢-٢٩٨.
- ١٥١- الثّيب: هي المرأة التي تزوّجت وفارقت زوجها، يُنظر: اللسان (ثيب).
- ١٥٢- الديوان: ١٨٢/١، والبيت من الطّويل.
- ١٥٣- يُنظر: الكتاب: ٦٤٤/٣، وشرح الشّافية: ١٦٨/٢.
- ١٥٤- يُنظر: اللسان (ثيب).
- ١٥٥- التّحريم: ٥.
- ١٥٦- يُنظر: الكتاب: ٦٤٢/٣، وشرح الشّافية: ١٧٧/٢.
- ١٥٧- الديوان: ٣٦٥/١، والبيت من الطّويل.
- ١٥٨- يُنظر: اللسان (كلب).
- ١٥٩- الديوان: ١٢٠/٢، والبيت من الطّويل.
- ١٦٠- يُنظر: اللسان (وشح).
- ١٦١- يُنظر: شرح الشّافية: ١٢٥/١، وأوضح المسالك: ٢٥٨-٢٥٩، وشرح ابن عقيل: ٤٥٨ ٤٥٦/٢.

- ١٦٢- الدِّيوان: ٣/ ١٩٦، والبيتان من السَّريع.
١٦٣- يُنظر: اللِّسان (عكف).
١٦٤- الدِّيوان: ١/ ٣١٢، والبيت من الطَّويل.
١٦٥- يُنظر: المصدر نفسه الصَّحيفة نفسها الهامش (٢).
١٦٦- يُنظر: الغريب المصنَّف: ص ٦٦-٦٧، واللِّسان (شول).
١٦٧- الدِّيوان: ١/ ١٤١، والبيت من الرَّجز.
١٦٨- يُنظر اللِّسان (نزه).
١٦٩- يُنظر: الكتاب: ٣/ ٦٣١، وشرح الشَّافية: ٢/ ١٥٥، وجامع الدُّروس العربيَّة: ٣٦/٢.
١٧٠- الدِّيوان: ٣/ ١٨٥، والبيت من الرَّجز.
١٧١- يُنظر: اللِّسان (فجر).
١٧٢- الدِّيوان: ٣/ ٤٥، والبيت من الكامل.
١٧٣- يُنظر: اللِّسان (بلد).
١٧٤- يُنظر: الكتاب: ٣/ ٦١٨، وشرح الشَّافية: ٢/ ٢١٠.
١٧٥- الكتاب: ٣/ ٦١٩، ويُنظر: شرح المفصَّل: ٥/ ٤٧٤.
١٧٦- شرح الشَّافية: ٢/ ٢٠٨.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أبنية الصّرف في كتاب سيبويه، د. خديجة الحديثي، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٥ م.
- الاحتجاج بالشعر في اللغة - الواقع ودلالته - د. محمد حسن حسن جبل، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).
- أدب الكاتب، أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الدّينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدّين عبد الحميد، دار الطّلائع، القاهرة، ٢٠٠٥ م.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيّان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق وتعليق: الدكتور مصطفى أحمد الناس، الطبعة الأولى، مطبعة المدني، ١٩٨٤ م.
- الأعلام، خير الدّين الزّركلي، الطبعة الرابعة عشرة، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ١٩٩٩ م.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، دار الثقافة - بيروت، ١٩٥٥ م.
- أمالي الزّجاجي، أبو القاسم، عبد الرّحمن بن إسحاق، الزّجاجي (ت ٣٤٠هـ)، تحقيق: عبد السّلام محمد هارون، الطبعة الثانية، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٧ م.
- بشار بن برد بين القدماء والمحدثين، (رسالة ماجستير)، محمد سالم محمد، جامعة دمشق، ١٩٨٣ م.
- بشار بن برد، دراسة وشعر، محمد الصّادق عفيفي، دار الرّائد العربي، بيروت - لبنان، ١٩٨٣ م.
- بشار بن برد، عبد القادر المازني، لجنة ترجمة دار المعارف الإسلامية، ١٩٩٤ م.
- تأريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، الطبعة الثامنة، دار المعارف، ١٩٦٦ م.
- تأريخ الأدب العربي، عمر فروخ، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني، الزّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)،

- مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).
- تصريف الأسماء، الأستاذ محمد الطنطاوي، الطبعة الخامسة، مطبعة وادي الملوك، مصر، ١٩٥٥م.
- التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، الطيب البكوش، تونس، ١٩٧٣م.
- تهذيب اللغة، أبو منصور، محمد بن أحمد، الأزهري (٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ومراجعة محمد علي النجار، (د.ت).
- جهرة اللغة، أبو بكر، محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ)، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٥هـ.
- جموع التصحيح والتكسير في العربية، الدكتور عبد المنعم سيد عبد العال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧م.
- الحيوان، أبو عثمان، عمرو بن بحر، الجاحظ، وضع حواشيه محمد باسل عيون السود، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣م.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر، البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، مطبعة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٤م.
- الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري، الدكتور محمد حسين آل ياسين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، ١٩٨٠م.
- دروس التصريف، محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٣١م.
- ديوان الأدب، أبو إبراهيم، إسحاق بن إبراهيم، الفارابي (ت ٣٥٠هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: الدكتور إبراهيم أنيس، مطبعة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٧٤م.
- ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: محمد حسين، مطبعة دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٤م.
- ديوان بشار بن برد، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.

- ديوان بشار بن برد، تحقيق: الدكتور صلاح الدّين الهوّاريّ، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- ديوان بشار بن برد، تحقيق وشرح: محمّد الطّاهر بن عاشور، علّق عليه ووقف على طبعه: محمّد رفعت فتح الله، ومحمّد شوقي أمين، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ١٩٥٠م.
- ديوان طرفة بن العبد، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦١م.
- الرّواية والاستشهاد في اللّغة، الدّكتور محمّد عيد، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٦م.
- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدّين محمّد بن الحسن، الاستراباديّ (ت ٦٨٦هـ)، تحقيق: محمّد نور الحسن وزميله، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ١٩٧٥م.
- شرح كافية ابن الحاجب، رضيّ الدّين محمّد بن الحسن، الاستراباديّ، قدّم له ووضع حواشيه وفهارسه: الدّكتور أميل بديع يعقوب، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ١٩٩٨م.
- شرح المفصل، موفّق الدّين يعيش بن عليّ بن يعيش، النّحويّ (ت ٦٤٣هـ)، تحقيق: أحمد السيّد سيّد أحمد، المكتبة التوفيقيّة، القاهرة- مصر، (د.ت).
- طبقات الشعراء، ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ)، تحقيق: عبد الستّار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، (د.ت).
- ظاهرة التّحويل في الصّيغ الصرفيّة، الدّكتور محمود ياقوت سليمان، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ١٩٨٥م.
- العين، الخليل بن أحمد، الفراهيديّ (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: الدّكتور مهدي المخزوميّ، والدّكتور إبراهيم السّامرائيّ، دار الرّشيد للنشر، ١٩٨٠م.
- فصول في اللّغة والنّقد، الدّكتور نعمة رحيم العزاويّ، الطّبعة الأولى، المكتبة العصريّة، بغداد، ٢٠٠٤م.
- الفهرست، ابن النّديم (٣٨٥هـ)، مصوّر عن طبعة ليزل سنة (١٨٧٢م)، التي نشرها غوستاف فلوجل، روائع التّراث العربيّ، مكتبة الحياط، بيروت- لبنان، ١٩٦٤م.
- في تصريف الأسماء، عبد الرّحمن شاهين، مطبعة مختار، الإسكندريّة- مصر، ١٩٧٧م.
- الكتاب، أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقّب بسبيويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق وشرح:

- عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٣ م.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر، الزخشي (ت ٥٣٨هـ)، تصحيح: الدكتور عبد الرزاق المهدي، مصححه على نسخة خطية، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣ م.
- لسان العرب، أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، الأفريقي، المصري، (ت ٧١١هـ)، حققه وعلّق عليه ووضع حواشيه: عامر أحمد حيدر، راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣ م.
- اللّمع في العربية، أبو الفتح، عثمان بن جني، تحقيق: فائز فارس، الطبعة الأولى، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٨٨ م.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم، الحسين بن محمد بن المفصل، المعروف بالزّاعب الأصفهاني (ت ٤٢٥هـ)، تحقيق: الدكتور رياض عبد الحميد مراد، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤ م.
- مسائل لغوية في مذكرات جمعية، الشيخ محمد حسن آل ياسين، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٩٢ م.
- معاني الأبنية في العربية، الدكتور فاضل صالح السامرائي، الطبعة الأولى، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ١٩٨١ م.
- معجم المؤلفين، عمر كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، (د.ت).
- المغني في تصنيف الأفعال، محمد عبد الخالق عزيمة، الطبعة الثانية، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٩ م.
- المنصف، شرح تصنيف المازني، أبو الفتح، عثمان بن جني، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٤ م.
- الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، أبو عبيد الله، محمد بن عمران، المرزباني (ت ٣٨٤هـ)، وقف على طبعه واستخرج فهارسه: محب الدين الخطيب، الطبعة الثانية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٨٥ هـ.
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون وعبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨٠ م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، أبو العبّاس، شمس الدّين أحمد بن محمّد بن أبي بكر ابن خلّكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: الدّكتور إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت، (د.ت).
- التعرّف والتّكثير في العربيّة، (أطروحة دكتوراه)، حيدر ناجي مظلوم، كلّية التّربية، الجامعة المستنصريّة، ٢٠٠١م.
- لغة الشّعريّ في القرنين الثّاني والثّالث الهجريّين، (أطروحة دكتوراه)، جمال نجم العبيديّ، كلّية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٢م.
- المصادر والمستقّات في معجم لسان العرب، دراسة صرفيّة دلاليّة، (أطروحة دكتوراه)، خديجة زبار عنيزان، كلّية التربية، جامعة بغداد، ١٩٩٥م.
- المطاوعة حقيقتها وأوزانها، الدّكتور هاشم طه شلاش، مجلة كلّية الآداب، جامعة بغداد، العدد (٥)، ٢٠٠١م.

تأسيس مدينة البصرة ومراحل تطورها
حتى نهاية العصر الأموي

The Establishment of Basrah and the Stages of
its Development up to the End of the Umayyad
Period

أ.د. رحيم حلو محمد البهادلي
جامعة البصرة/ كلية التربية للبنات/ قسم التاريخ

Professor. Dr. Raheem Hilo Muhammad Al- Bahadli
History Department/College of Education for Women/
University of Basrah

ملخصُ البحث

يتناول هذا البحثُ دراسةً مختصرةً عن تأسيس مدينة البصرة ومراحل تطورها العمرانيّ حتّى نهاية العصر الأمويّ؛ لما لهذه المدينة من أهميّة كبرى في تأريخ التمدّن الإسلاميّ؛ لكونها المدينة الأولى التي بناها العرب المسلمون في أطراف شبه الجزيرة العربيّة؛ إذ تمّ التركيز هنا على أهمّ الوحدات العمرانيّة للمدينة منذ النشأة، كالمسجد الجامع ومراحل بنائه، والقصور الرّسميّة وغير الرّسميّة لولاية البصرة، وتمّ -أيضاً- التطرّق إلى دور العامّة وخطّتهم، فضلاً عن أهمّ أسواق تلك المدينة وطبيعتها.

Abstract

This research paper deals with the foundation of Basrah and the stages of its development up to the end of the Umayyad Period. The choice of this subject arises from the significance of this city in the history of Islamic urbanization. It was the first city to be built by Arab Muslims in the edges of Arabia. The research focuses on the most important architectural units of the city since its beginning such as AL Masjid AL Jamia and the stages of its construction, and the state and private mansions of Basrah governors. In addition the research also tackles public buildings and together with the most important markets of the city and their nature.

مقدمة

تُعدُّ مدينة البصرة من المَدين المُهمَّة على صعيد الأُمَّة الإسلاميَّة؛ إذ قُدِّر لها أن تؤدِّي دوراً متميَّزاً وكبيراً في مجمل الأحداث العامَّة للدولة العربيَّة الإسلاميَّة على مرَّ العُصور التاريخيَّة حتَّى وقتنا الحاضر، إذ نالت البصرة منذُ اليوم الأوَّل من تمصيرها النصيب الأوفر من بين المَدين الإسلاميَّة في تأدية الدَّور المتميَّز من الناحية السياسيَّة والعسكريَّة والإداريَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والفكريَّة، إذ عُدَّت بعد فترةٍ من تمصيرها محلَّ استقطاب المقاتلين العرب المسلمين الذين بدؤوا بالانزياح شرقاً فاتحين أراضيَّ كبيرةً جدًّا؛ لنشر الدين الإسلامي وتوسيع رقعة الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة يومذاك، ثُمَّ ارتبطت جميع تلك المَدين والقرى بالجهاز الإداريِّ لمدينة البصرة، فكانت تضمُّ -يومذاك- كُلاً من: عبادان، والأحواز، ومفتَّح، وسجستان، والبحرين^(١)، حتَّى أن مدينة ميسان كانت تابعة -إداريًّا- لمدينة البصرة^(٢).

ومع ذلك، لم تتوقَّف مدينة البصرة عند المجال العسكري الذي مُصِّرت من أجله فحسب، وإنَّما أصبحت -فيما بعد- حاضرة العلماء والأدباء الذين كانوا يؤمُّونها من مَدين وأمصارٍ أُخرٍ لطلب العلم والمعرفة. وتميَّزت المدينة -أيضاً- بموقعها الاقتصاديِّ؛ إذ كانت تمثِّل عَصَباً أساساً للاقتصاد الإسلاميِّ -يومذاك-؛ كونها تُشرف على جباية أموال الجزية من الأشخاص، والخراج على

الأراضي الواسعة التابعة لها إدارياً، ما جعل من البصرة مدينة ذات أهمية كبرى، وقد انعكس ذلك بطبيعة الحال على معالمها وتخطيطها العمراني؛ إذ لا شك في أن مدينة بتلك الأهمية لا بُدَّ من أن تنال اهتمام الخلفاء والولاة على مرِّ العصور الإسلامية.

طبيعة المدينة والتخطيط العمراني

ولا بُدَّ قبل الحديث عن المعالم العمرانية لمدينة البصرة من الإشارة إلى مسألة مهمّة تتعلق بطبيعة المدينة وهويتها وتخطيطها العمراني، وهي: هل العرب المسلمون بنوا مدينة البصرة، أو أمّا كانت موجودة قبل الإسلام، وإنّا مصرّها المسلمون فحسب؟ ثمَّ هل هذه المدينة بواقعها الأساس (الأرض) مدينةً عربيّة، أو أمّا مدينةً فارسيّة من حيث التنظيم الإداري قبل الإسلام؟ وللإجابة عن هذا التساؤل نقف عند ما طرحه الدكتور عبد الجبار ناجي في كتابه: (دراسات في تأريخ المدن العربيّة الإسلاميّة)، فقد طرح فيه جميع الآراء التي أوردتها كتب اللغة عن المدينة.

فمنها: ما يقول: إنّ (البصرة) تسمية عربيّة خالصة، ومنها: ما يقول: إنّ أصل التسمية فارسيّة، وقد تبني الدكتور ناجي الرأي القائل: إنّ أصل التسمية عربيّ، أي: إنّّه يذهب إلى القول بأنّ المدينة عربيّة خالصة، ولكنّه لم يُعْطِ دليلاً قاطعاً على تبنيّه هذا الرأي، واكتفى بالتعليق على الرأي القائل بأنّ أصل التسمية فارسيّ، بقوله: «غير أنّه رأيٌ ضعيفٌ لا تؤيِّده القرائن التاريخية»^(٣).

ولكنّا في الوقت نفسه نقول: إنّ هناك ثمة لبسٍ في الموضوع فيما طرحه أستاذنا

الفاضل بالشأن ذاته؛ إذ لا شك في أن الوجود العربي في صدر الإسلام وقبله في هذه المدينة كان ضعيفاً جداً - إن لم يكن معدوماً -، ومن كان مُتواجداً من العرب في منطقة العراق - حينذاك - سواء كان في الأُبلة أم الحيرة أم المدائن، فإنه كان موالياً تماماً للتفوذ الساساني بحكم السيطرة الساسانية على منطقة العراق خلال تلك الفترة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إن العرب المسلمين لم يبنوا مدينة جديدة سموها البصرة، وإنما كانت المدينة موجودة على الواقع، ولكنهم مصرّوها وربطوها بالتّظيم الإداري للدولة الإسلامية الناشئة - يومذاك -؛ إذ من غير المعقول أن تؤسس مدينة جديدة من العدم في ظلّ موقفٍ عسكريٍّ مضطربٍ وفي غاية الخطورة، والدولة الإسلامية في مواجهةٍ مع أكبر قوّةٍ عسكريّةٍ عرفها العالم - يومذاك - وهي الإمبراطوريّة الساسانية، فمن الأنسب أن نقول إنه أمرٌ ببناء مُعسكراتٍ قُرب الحواضر من أجل تأمين الماء والغذاء، وتأمين الخطوط البريّة للقطعات العسكريّة والبريد، وما شابه ذلك، وهذا ما كان موجوداً أصلاً في منطقة البصرة، بملاحظة أن حاضرة البصرة قبل مجيء العرب المسلمين هي مدينة الأُبلة التي كانت تُسيطر عليها القطعات العسكريّة الفارسيّة بشكلٍ تامٍّ، إن لم نقل أن المدينة بطابعها العام كانت مدينةً فارسيّةً^(٤).

إذن، فاختيار منطقة البصرة كان اختياراً دقيقاً؛ لأنّ مدينة الأُبلة تقع على رأس الخليج العربيّ، ما يجعل من المنطقة مُفترق طُرق، فمن خلالها تُؤمّن الطريق نحو (المدينة المنورة) عاصمة العرب المسلمين، فضلاً عن أنّها نقطة انطلاق الجيوش العربيّة الإسلاميّة تجاه المشرق، وارتباطها بحراً بالخليج العربيّ، و(بالكوفة) المدينة الأخرى التي من المزمع الشروع بإنشائها مُعسكراً قُرب الحيرة، إذن،

فالمُنطقة بحد ذاتها كانت تُمثّل مُفترق طُرُق يُؤدّي خدمةً عسكريّةً وإداريّةً إلى جميع الاتجاهات المُهمّة -يومذاك-.

وهذا ما دلّت عليه ترجمة لفظ (بصرة) من اللّغة الفارسيّة إلى اللّغة العربيّة، فكلمة (بس راه) تعني بالفارسيّة: مُفترق طُرُق، أو مُلتقى طُرُق، وهذا ما يُؤيّد قول بعض اللّغويّين أنّ تسمية البصرة هي تسميةً فارسيّةً^(٥)، وهي ما تنطبق واقعاً من النّاحية الجغرافيّة على مدينة البصرة.

ومع ذلك، فإنّ العرب المُسلمين هم أوّل من وضع اللّبنات الأولى لمعالم التخطيط العمرانيّ لمدينة البصرة؛ إذ لم يعتمد العرب الفاتحون على ما كان موجوداً من حواضر فارسيّة في منطقة البصرة، وإنّما بنوا مدينةً جديدةً تتوافق مع الموروث العربيّ وتعاليم الدّين الإسلاميّ الجديد ومبادئه؛ إذ إنّنا نلاحظ أنّ أغلب المدن الفارسيّة أو المرتبطة بها كانت مبنيةً من الآجر والحجر، أو الطّابوق واللّبن، ونحو ذلك^(٦)، في حين نجد أنّ العرب المُسلمين أوّل نزولهم إلى المنطقة التي كانت تُدعى الحُرّية^(٧) بنوا الدُّور والمرافق الحيويّة من القصب^(٨)، وهو أمرٌ يدعو إلى حالةٍ من عدم الاستقرار، ويعكس في الوقت نفسه الصّفة العسكريّة للقطعات النّازلة تواءً في هذه المنطقة، وبهذا الشّأن قال البلاذريّ: أنّ العرب «نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتّى يرجعوا من الغزو، فإذا ما رجعوا أعادوا بناءه، فلم تزل الحال كذلك»^(٩)، فضلاً عن كثرة القصب في بطائح البصرة -يومذاك-^(١٠).

مفردات التخطيط العمراني ومظاهره

لعلَّ أوَّل مفردات التخطيط العمراني التي نالت النّصيب الأوفر لمدينة البصرة وبقية الأمصار الإسلاميّة هي بناء المسجد الجامع، وهو أمرٌ طبيعيٌّ يعكس -بطبيعة الحال- الهوية الحقيقيّة للقطعات القادمة من شبه الجزيرة العربيّة، ففضلاً عن كون المسجد المحور الذي تركز عليه بقية المفردات العمرانيّة الأخر، كان يؤدّي دوراً كبيراً في حياة العرب المسلمين، فهو المكان الذي يؤدّي فيه المسلمون صلاتهم، ويُمثّل المكان الذي يجتمعون فيه لتداول أمورهم المهمّة، وإحياء المناسبات الاجتماعيّة، وهو كذلك مكانٌ للعلم والمعرفة؛ لذلك نجد الاهتمام ينصبُّ على ضرورة بناء المسجد الجامع، فقد كان تأكيد جميع الولاة على المدن والأمصار الجديدة أن تُبنى المساجد في أمصارهم، وكان من بينهم أبو موسى الأشعريّ والي البصرة على حسب إشارة المقرئيّ^(١١)، ولكنّ الروايات التاريخيّة تشير إلى أنّ القائد العسكريّ عتبة بن غزوان هو أوَّل من قام بتخطيط المسجد الجامع وبناءه من مادّة القصب^(١٢)، وقيل: إنّ الذي اختطّه وبناءه هو محجن بن الأذرع السلميّ بأمرٍ من عتبة^(١٣)، ويُقال إنّ عتبة أمر نافع بن الحارث بن كلدة الثقفيّ ببنائه^(١٤)، وفي روايةٍ أخرى، أنّ عتبة أمر الأسود بن سريع التميميّ ببنائه، فبناه^(١٥).

ومهما يكن من اختلاف، فإنّ النتيجة واحدة، وهي: أنّ عتبة بن غزوان هو أوَّل من بنى أو أمر ببناء مسجدٍ في البصرة، أمّا ما ورد عن المقرئيّ من أنّ أبا موسى الأشعريّ هو أوَّل من قام ببناء المسجد، فهذا بعيدٌ عن الصّحّة؛ لأنّ عتبة ابن غزوان تولّى إمرة البصرة قبل أبي موسى الأشعريّ، ولكن من الأنسب أن

نقول بأنَّ أبا موسى الأشعريّ قام بتوحيد المساجد في البصرة بالمسجد الجامع بعد أن تعدّدت، حينما قامت كلُّ قبيلةٍ باتخاذ مسجدٍ خاصٍّ بأبنائها^(١٦).
ومن الأنسب-أيضاً- القول بأنَّ أبا موسى الأشعريّ هو أوّل مَنْ قام ببناء المسجد الجامع في البصرة من مادّي اللّبن والطّين، وزاد في مساحته^(١٧)، بعد أن تعرّضت البصرة إلى حريقٍ طال أغلب بيوتها والوحدات العمرانيّة المبنية، بما فيها المسجد الذي كان من القصب أيضاً^(١٨).

يُعدُّ بناء المسجد الجامع في مدينة البصرة خلال تلك الفترة ذا أهميّة كبرى من حيث التخطيط العمرانيّ للمدينة، فقد أنشئت جميع الوحدات العمرانيّة على أساسه من حيث التّخطيط، فبعد بناء المسجد في البصرة، قام عُتبة بن غزوان ببناء دار الإمارة - وهو القصر الرّسميّ لوالي البصرة - دون المسجد في المنطقة المحيطة به، كذلك بُنيت الوحدات العمرانيّة الأخرى، مثل: السّجن المركزيّ، الذي من الطّبعيّ أن يُبنى مُلاصقاً لدار الإمارة أو قريباً إلى حدٍّ ما منها، ثمّ بُنيت الدّار الخاصّة بالديوان والحّمّامات، وغيرها من الوحدات العمرانيّة الأخرى المهمّة للمدينة^(١٩)، وبعد ذلك بنى النّاس على وفق ذلك التّخطيط منازلهم على أساس القبائل، فكان لكلّ قبيلةٍ حيٌّ من أحياء البصرة^(٢٠).

وإذا كانت عمليّة بناء منازل النّاس غاية في البساطة، ومن مادّة القصب في بادئ الأمر، فإنّ عمليّة بناء المسجد وتخطيطه، وإن كانت تتخلّلها بعض البساطة، إلّا إنّها تنطوي على فلسفةٍ مُعيّنة في التّخطيط؛ إذ بُني المسجد ليعكس الهويّة الإسلاميّة للدولة الإسلاميّة الناشئة، فقد بنى عُتبة بن غزوان وكذلك أبو موسى الأشعريّ المسجد على غرار ما بُني من مساجد في عهد الرّسول الأكرم ﷺ^(٢١)؛

إذ كان مبنياً في بادئ الأمر على شكل هيكلٍ مُربّع الشكل مُحاطٍ بجدران من جميع الاتجاهات، وكانت مبنية من مادة القصب في عهد عتبة بن غزوان، ثم أصبحت تلك الجدران بعد ذلك من مادة الطين واللبن ليواكب التطور الحاصل في البصرة آنذاك^(٢٢)، ولكن الشيء الملفت للنظر، هو أن المسجد في البصرة أُجري عليه تطويرٌ كبيرٌ جداً في خلافة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ففضلاً عن حجم التغيرات العمرانية التي أجراها الإمام في مسجد البصرة من حيث مواد البناء وزيادة المساحة ليستوعب أعداد المصلين فيه^(٢٣)، نجد أن الإمام علياً عليه السلام جعل للمسجد منارةً وسبع صوامع، وهي من مستحدثات الإمام علي عليه السلام في مسجد البصرة - آنذاك -^(٢٤).

وكان مسجد البصرة - شأنه شأن بقية المساجد الأخر - يتكوّن من جملة مفرداتٍ لعلّ أولها المنبر، وكان في بداية الأمر مصنوعاً من مادة الطين أو اللبن قبل العهد الأموي^(٢٥)، ولكنّ صناعته تطوّرت خلال العهد الأموي، فقد وردت الإشارات إلى أن صناعة المنبر كانت من مادة الخشب^(٢٦)، ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى حاجة الولاة الأمويين لنقل المنبر من مكانٍ إلى آخر في المساجد لأغراض الخطب السياسية، أو إعلان البيعة، وما شابه ذلك، الأمر الذي يتطلّب التحكّم بموضع الوالي، فضلاً عن تطوّر ذلك المنبر من ثلاث درجات إلى تسع درجات في عهد معاوية بن أبي سفيان^(٢٧)، وبقينا أن ذلك كان لأغراضٍ أمنية؛ إذ إنَّ زيادة ارتفاع المنبر فيه نوعٌ من توفير الحماية للوالي.

كما عُرِفَت (المقصورة) في مسجد البصرة ولأوّل مرّة خلال العهد الأموي حينما قام زياد بن أبيه - والي البصرة يومذاك - ببناء مقصورة المسجد من مادة

الحجر أو الحجارة^(٢٨)، ما يُعطي انطباعاً بأن المسجد بأكمله كان مبنياً -يوماً ذاك- من مادة الحجر، تماشياً مع التطور الحاصل في الدولة العربية الإسلامية في العهد الأموي، بعد الانفتاح الكبير على أمم وشعوب أخر كانت غاية في التطور من حيث البناء والعمران، كما هو الحال في حضارة بلاد فارس وروما، وقد واكب العرب -حينذاك- تلك الحضارات بالتطور والانفتاح.

والمقصورة عبارة عن: مكان مُحَصَّن يصلي فيه الوالي بعيداً عن عامة الناس^(٢٩)، ويُشير البلاذري إلى أن زياد بن أبيه كان أول من عمل المقصورة^(٣٠)، وهو يعني بذلك - ومن دون شك - في مسجد البصرة؛ لأنّ الإشارات المتواترة لدينا تذكر أنّ المقصورة عُمِلت قبل ذلك التاريخ في مسجد المدينة في عهد عثمان بن عفّان، وفي الشّام في عهد معاوية بن أبي سفيان^(٣١)، ولا شكّ في أنّ السّبب في اتّخاذ المقصورة هو توفير الحماية للحكّام والولاة من عمليّات الاغتيال التي قد تطالهم^(٣٢).

وهناك إشارات متواترة إلى ظهور المنارة في مسجد البصرة في صدر الإسلام، والمنارة هي المكان المرتفع الذي يُصعد إليه ويُؤدّن فيه، وتسمّى بالمنذنة^(٣٣)، ومع أنّ المساجد خلال عصر الرّسول ﷺ كانت بسيطةً وتخلو إلى حدّ ما من المنارات النظاميّة، فإنّ ذلك الفنّ المعماريّ ظهر على ما يبدو بعد عهد النّبي محمد ﷺ، ولكنّ الرّوايات التّاريخيّة تتضارب فيما بينها حول أوّل من أظهر تلك المنارات، فيذكر البلاذري أنّ زياد بن أبيه في ولايته على البصرة لمعاوية بن أبي سفيان هو أوّل من بنى منارةً لمسجد البصرة^(٣٤)، في حين يُرجّح ابن بطوطة والعلامة المجلسي أنّ الإمام عليّاً عليه السلام هو أوّل من اهتمّ ببناء تلك المنارات خلال خلافته في

العراق، سواء كان ذلك في مسجد البصرة أم في مسجد الكوفة^(٣٥).
وقد عُرفت في البصرة - كذلك - معالمٌ عمرانيَّةٌ أُخر غير المساجد، ولعلَّ أهمَّ تلك المعالم العمرانيَّة هي القصور التي طالما حرصَ الولاة على بنائها على غرار حكامهم في الشَّام، وقد عُنِيَ الولاة عناية فائقة ببناء تلك القصور، وحرصوا على مواكبة التطوُّر القائم - آنذاك - لدى الأمم والدَّول المجاورة؛ لتوفير أقصى ما يمكن توفيره من وسائل الرَّاحة والاطمئنان، مع الحرص في الوقت نفسه على ضمان الأمان في تلك القصور التي أنفق على بنائها أموالٌ طائلةٌ من ميزانيَّة الدَّولة، والشَّيء الملفت للنظر في تلك المدَّة، أنَّ القصور التي بُنيت في البصرة من قبل الولاة كانت تنقسم على قسمين، قسمٌ يمكن أن يُطلق عليه القصور الرِّسميَّة، ونعني بها: دار الإمارة، أو الدَّار الرِّسميَّة لمحلِّ إقامة الوالي، التي كانت تُمثِّل مقرَّ الحكم المحليِّ للدَّولة، والقسم الآخر منها هي القصور غير الرِّسميَّة، ونعني بها: مجموعة القصور الشَّاهقة، التي أنفق فيها الولاة مبالغ ضخمة من أجل الاستجمام وتوفير الرَّاحة والتسلية للوالي المعيَّن.

فبالنسبة إلى القصور الرِّسميَّة لمدينة البصرة، فقد وردت الإشارة إليها عند ذكرِ بناء المسجد الجامع في عهد عتبة بن غزوان، وكان يُطلق عليه - آنذاك - بدار الإمارة؛ إذ وردت الإشارة إلى بنائه بالقرب من المسجد الجامع؛ ليكون مقرّاً لحكم الوالي الذي عُيِّن من قبل عمر بن الخطاب^(٣٦)، وإذا كان المسجد الجامعُ خلال تلك المدَّة بُني من مادَّة القصب وكذلك حال جميع الوحدات العمرانيَّة والمنازل أيضاً، فإنَّ من الطَّبيعي أن تكونَ دار الإمارة هي الأخرى مبنيةً من مادَّة القصب، إلَّا أنَّه بمجيء أبي موسى الأشعريِّ والياً على البصرة، عمل على بناء

دار الإمارة من مادة اللبن والطين^(٣٧)؛ ليواكب ذلك البناء التطور الحاصل في عهده.

وقد اهتم الأمويون بدار الإمارة تلك خلال مدة حكمهم؛ وذلك لما تُشكّله البصرة من ثقلٍ سياسيٍّ وعسكريٍّ واقتصاديٍّ، فاهتمّوا بها بوصفها جزءاً من اهتمامهم بولاية البصرة المعيّنين من قبلهم، فقد كانت تلك الدار عامرة ومبنيّة من مادة الحجر والآجر^(٣٨)؛ ولفخامتها قام الحجاج بن يوسف الثقفي بهدمها حتّى يححو عنها ذكر زياد^(٣٩)، وبقيت البصرة مسلوقة الدار حتّى مدة حكم سليمان بن عبد الملك، الذي استعمل على البصرة رجلاً يدعى صالح بن عبد الرحمن والياً على الخراج، وأمر سليمان واليه على البصرة -يومذاك- بإعادة بناء دار الإمارة على الأساس الأوّل نفسه، ما يُعطي انطباعاً عن عظم تلك الدار أيام زياد بن أبيه، وكان بناؤها في عهد سليمان بن عبد الملك من مادّي الآجر والجصّ على حدّ إشارة البلاذري^(٤٠).

أمّا القصور الشخصية التي لا تتعلّق بالدولة -يومذاك- فكانت تقتصر على فئة الولاة أو القادة والأمراء؛ لأنّهم الوحيدون الذين يستطيعون بناء تلك القصور دون عامة النّاس، على الأقلّ خلال العصور الإسلاميّة الأولى، وقد برز هذا النوع من القصور في العراق، وربّما في غيره من البلدان العربيّة والإسلاميّة خلال العصر العبّاسيّ^(٤١)، وقد يعود ذلك بالدرجة الأساس إلى التطور الحاصل في الحياة العامّة، وعلى جميع الأصعدة، فضلاً عن انفتاح المجتمع العربيّ الإسلاميّ على بلدان ودول آخر أكثر من ذي قبل.

ومع ذلك، نجد بعض الإشارات التي تُدلي بوجود ذلك النوع في العراق، وفي

البصرة على وجه التحديد، قبل ذلك التاريخ؛ إذ كان بعض الولاة الأمويين قد تأثروا بحكامهم في الشام، الذين كانوا يقطنون القصور الشاهقة الخاصة بهم؛ إذ يروى أن عبيد الله بن زياد إبان ولايته على البصرة اتخذ قصرًا شاهقًا واسعًا مبنياً -ربما- على غرار ما كان موجوداً من قصور شاهقة للحكام الأمويين في دمشق، وكان ذلك القصر خاصاً به، اتخذهُ للمتعة والتسلية، بعيداً عن مداخلات الحياة السياسية المضطربة -يومذاك-، فكان يخلو فيه مع ندمائه في أوقات الراحة، وكان ذلك القصر يُسمّى بـ(القصر الأحمر)؛ لأنه بُني من الطين الأحمر^(٤٢).

كما يروى أن الحجاج بن يوسف الثقفي بنى له قصرًا خاصاً به في البصرة^(٤٣)، وربما كان ذلك القصر بمنزلة مقرّ للراحة واللهو والتسلية، كونه والياً على العراق ويقطن في واسط، ولكنه في الوقت نفسه كان يتفقد بين الحين والآخر البصرة والكوفة، ما يعطيه انطباعاً بأنه كان بحاجة إلى مثل تلك القصور، كما أن استغناء الحجاج عن دار الإمارة التي بناها زياد بن أبيه في البصرة بعد تهديمها بأمره^(٤٤) يؤيد فكرة أن الحجاج الثقفي كان يقضي أوقات زيارته إلى البصرة في قصره الخاص.

التقسيمات الإدارية

أمّا عن منازل العامة وسكك الأهالي، فقد كانت مُقسّمة على وفق التقسيمات والانتمايات القبلية؛ إذ إنّ المجتمع العربي برمّته كان وما يزال مجتمعاً قبلياً؛ لذلك كانت البصرة مُقسّمة على مجموعة أحياء سكنية، وكلُّ حيٍّ منها يحوي دوراً لأفرادٍ ينتمون إلى القبيلة نفسها، ويُعدّ لنا الدكتور عبد الجبار ناجي تلك

الأحياء ويصفها بأنها كانت خمسة أخماس، وكلُّ خمسٍ يمثل حياً تقطنه قبيلةٌ معيَّنةٌ مع مَنْ يُحالفها من أفراد وبطون القبائل الأخر، وهي على وفق كلامه بالشكل الآتي^(٤٥):

- ١- خمس بني تميم: ويقع هذا الخمس في الجزء الجنوبي الغربي لمدينة البصرة يومذاك- ويتضمن هذا الخمس عدداً من الخطط الفرعية التي تتضمن بطون بني تميم كافة، وتلك المجموعات التي دخلت في حلف تميم.
- ٢- خمس أهل العالية: ويتضمن هذا الخمس قبائل هذيل وقيس وعيلان وبني سليم، وقبائل وبطوناً آخر دخلت -أيضاً- في حلف أهل العالية.
- ٣- خمس بكر بن وائل: ويضمُّ هذا الخمس مجموعةً من المحلات والخطط، كمحلة بني سدوس، وبني عديّ، وبني شيبان، وآل مسمع بن مالك، وغيرهم.
- ٤- خمس عبد القيس: ويقع هذا الخمس في شمال مدينة البصرة، حيث يقطن فيه جميع مَنْ ينتمي إلى عبد القيس، فضلاً عن مجموعات كبيرة من البطون الموالية لها.

- ٥- خمس الأزدي: وموقع هذه القبيلة من مدينة البصرة هو الجزء الجنوبي الشرقي، حيث تنتشر بطون الأزدي هناك مع غيرها من القبائل الموالية لها في الانتساب القبلي.

وقد كان بناء تلك الدّور في الأيام الأولى من تمصير المدينة من مادّة القصب، التي كانت متوافرةً بكثرة في بطائح البصرة^(٤٦)، فضلاً عن الطابع العسكري للمدينة الذي يُحتّم عليها اتّخاذ القصب مادّةً للبناء؛ لسرعة الانتقال من مكان إلى آخر، لكن مع مرور الوقت واتجاه القطعات العسكرية للاستقرار يوماً بعد

يوم، ونتيجة لتطور مفردات الحياة -يومذاك- وبسبب الحريق الذي شبَّ في مدينة البصرة، ابتداءً النَّاس ببناء تلك الدَّور من مادَّة اللَّبن والطَّين، وعلى وجه الخصوص في عهد أبي موسى الأشعريَّ صعوداً إلى قُبيل العهد الأموي^(٤٧)؛ إذُ تطوَّر بناء تلك الدَّور خلاله من مادَّة الطَّين واللَّبن إلى مادَّتي الحجر والآجر^(٤٨)، لتُواكب حجمَ التطوُّرات العمرانيَّة لمرافق الحياة العامَّة.

أمَّا أسواق البصرة، فلمْ تردِ إشاراتٌ صريحةٌ عنها في المؤلَّفات العربيَّة والإسلاميَّة، إلَّا النزر اليسير، وخصوصاً في المراحل الأولى من تمصير البصرة، ويُعلِّق الدكتور عبد الجبار ناجي على ذلك بالقول: «ويبدو أنَّ المدينة ظلَّت خاليةً من الأسواق فترةً من الزَّمن»^(٤٩)، ولكنَّ عدمَ ورود الإشارات إلى أسواق البصرة في المراحل الأولى لا يعني إطلاقاً انعدامها من الواقع؛ إذُ من الصَّوريَّ أن تكونَ هناك أسواقٌ عامرةٌ بالسَّلع الاستهلاكية والمواد الغذائية من حبوب وحيوانات وزيوت وغيرها، ما يرفد المجتمع البصريَّ في مأكله وملبسه وقضاء احتياجاته؛ إذُ لا بدَّ من وجود تلك الأسواق، ثمَّ إنَّ عدمَ ذكرها لا يعني عدمَ وجودها، وإنَّما قد تكونَ أسواقاً صغيرةً ومتنقِّلة، فلمْ تنل اهتمام المؤرِّخين، فأهملتها كتب التاريخ، والدَّليل على تواجدها في بداية تمصير البصرة هو ما ورد في سيرة والي البصرة عبد الله بن عامر بن كريز، من أنَّه كان أوَّل من اهتمَّ ببناء الأسواق، فقدُ أورد البلاذريُّ أنَّ ابن كريز هذا - وربَّما في عهد عثمان بن عفَّان - قام بأوَّل خطوةٍ ببناء سوقٍ منظَّمٍ في البصرة، بعد أن خَصَّصَ له مكاناً ملائماً يضمن من خلاله الإيفاء بمتطلَّبات أبناء البصرة كافَّة، من حيث المكان والمساحة، فقدُ ورد أنَّه قام بشراء عددٍ من الدَّور والمنازل التي تتوسَّط مدينة البصرة، فهدمها

وبنى مكانها سوقاً مركزياً لمدينة البصرة^(٥٠)، وحتماً كان ذلك السوق يحتوي على أصناف متعددة من البضائع والسلع التجارية بأصناف شتى، ممّا كان يحتاجه الفرد البصري، وطبيعي أن ما قام به ابن كرز من بناء السوق لم يأت من العدم ما لم تكن هناك بوادر قيام الأسواق، فأكملها هو.

وقد كثرت الأسواق خلال العهد الأموي لتتناسب طردياً مع حجم النسبة السكانية لمدينة البصرة، بعد أن ازداد سكانها خلال ذلك العهد، فتحوّلت إلى مدينة أهلة بالسكان بعد أن كانت تمثل شبه معسكر أو قاعدة للقطعات العسكرية التي كانت تقاتل شرقاً، فكان لا بدّ من عدّة أسواق تفي بمتطلبات الأهالي، لذلك نجد أن والي البصرة - حينذاك - زياد بن أبيه أقدم على إقامة عدّة أسواق في سوق واحد كبير، وكان ذلك السوق يسمّى (دار الرزق)، الذي كان يضمّ مختلف أنواع الأطعمة والسلع الضرورية للحياة اليومية^(٥١).

وبعد، فقد كانت هذه لمحة سريعة عن مراحل تطوّر مفردات الوحدات العمرانية في مدينة البصرة منذ النشأة وحتى نهاية العصر الأموي، وقد حاولنا فيها أن نبين كيف أن العرب المسلمين اختاروا ذلك المكان ليصبح بعد فترة مدينة وحاضرة إسلامية تُشرف على مقاطعات إدارية كبرى، وكيف تطوّرت أهمّ وحداتها العمرانية شيئاً فشيئاً عبر العصور التاريخية، آمليين الإيفاء بحق هذه المدينة العظيمة التي نهلنا من علومها ومعارفها الشيء الكثير.

الخاتمة

- وبعد، فقد كانت تلك دراسة مبسطة متواضعة عن تأسيس مدينة البصرة ومراحل تطورها العمراني، وقد توصلنا من خلالها إلى أهم النتائج الآتية:
- ١- أن تأسيس مدينة البصرة لم يكن من العدم، بل بُنيت المدينة بالقرب من حاضرة كانت موجودة بالأصل، وهي مدينة الأبلّة - حامية عسكرية فارسية -، وكان أول من مَصّرَها عتبة بن غزوان بأمر من عمر بن الخطاب.
 - ٢- لم يكن بناء المدينة لتكون مدينة فحسب، بل كان الدافع العسكري هو السبب المباشر في تمصيرها لتكون مكان تجمع المقاتلة العرب، ومن ثم الانطلاق في عمق المشرق الإسلامي، وخوض معارك الفتوح.
 - ٣- بُنيت البصرة من مادة القصب، وهو أمر يؤكد أن المدينة بُنيت لأغراض عسكرية لسهولة التنقل والمباغته، ولكن، ما إن استقرّ العرب المسلمون فيها، حتّى بُنيت المدينة من موادّ اللبن والحجر، وهو أمر يُشير إلى بداية الاستقرار والتمدّن.
 - ٤- بُني في المدينة أول مسجد خارج شبه الجزيرة العربية، ويعود الفضل بذلك إلى أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، الذي أمر ببنائه وبناء منارته.
 - ٥- كانت تقسيمات خطط المدينة حسب الأخماس، فكان لكل قبيلة خمس

معين، أي إن الدافع القبلي كان الأساس في تقسيمات المدينة، فضلاً عن الأسواق التي أنشئت فيها، وهي إشارات تُشير إلى سير المدينة نحو التمدن.

٦- تحولت المدينة بعد مدةٍ من تمصيرها إلى مدينة مهمة في تاريخ الإسلام، وتحولت من مدينة عسكرية إلى مدينة للعلم والعلماء، فكان منها الفقهاء، والمؤرخون، والنحويون، واللغويون، فكان فيها مدرسة عملاقة للنحو، ظهرت قبالها مدرسة الكوفة النحوية.

الهوامش

- ١- يُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢/ ٩٧، ١٦٦، ٣/ ١٢٧، ٥/ ١٦٣.
- ٢- يُنظر: البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٢٢؛ والطبري، تاريخ الرسل والملوك: ٣/ ٩٣-٩٤.
- ٣- د. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربيّة الإسلاميّة: ص ١٥٤.
- ٤- يُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١/ ٧٧-٧٨.
- ٥- الفيروز آبادي، القاموس المحيط: ١/ ٣٧٣، ويُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١/ ٤٣٠.
- ٦- يُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢/ ٥، ٥/ ٤١٧.
- ٧- البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤١٨؛ والديّنوري، الأخبار الطوال: ص ١١٦.
- ٨- يُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢/ ٤٢٥.
- ٩- البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٢٦.
- ١٠- ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١/ ٥١، ٤٥٠-٤٥١.
- ١١- المقرئزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار: ٣/ ١٤٤-١٤٥.
- ١٢- البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٢٥.
- ١٣- خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط: ص ٣١٠.
- ١٤- البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٢٥.
- ١٥- المصدر نفسه، الجزء والصفحة.
- ١٦- يُنظر: المقرئزي، المواعظ والاعتبار: ٣/ ١٤٥.
- ١٧- يُنظر: البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٢٦؛ وابن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان: ص ٢٣٠.
- ١٨- يُنظر: الطبري، تاريخ: ٣/ ١٤٧-١٤٨.

- ١٩- يُنظر: البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٢٥؛ وابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان: ص ٢٣٠.
- ٢٠- يُنظر: د. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية: ص ١٦٤ - ١٦٥.
- ٢١- يُنظر: البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٣٣٩؛ والطبري، تاريخ: ٣/ ١٤٨؛ وياقوت الحموي، معجم البلدان: ١/ ٤٣٢.
- ٢٢- ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١/ ٤٣٤.
- ٢٣- يُنظر: ماجد حياي سمير، تاريخ العمارة الإسلامية في العراق حتى نهاية العصر البويهي: ص ٥٨.
- ٢٤- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة: ص ١٨٦ - ١٨٧، ويُنظر: ماجد حياي، تاريخ العمارة الإسلامية: ص ٨٢.
- ٢٥- ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١/ ٤٣٣.
- ٢٦- يُنظر: الطبري، تاريخ: ٤/ ١٧٧؛ والمقرئ، إمتاع الأسماع: ١٠/ ٩٦.
- ٢٧- يُنظر: الطبري، تاريخ: ٤/ ١٧٧.
- ٢٨- يُنظر: البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٢٧.
- ٢٩- يُنظر: حسين مؤنس، المساجد: ص ٨٠.
- ٣٠- البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٢٧.
- ٣١- يُنظر: ابن شبة النميري، تاريخ المدينة المنورة: ١/ ٢٦٢؛ واليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: ٤/ ١٣.
- ٣٢- يُنظر: د. رحيم حلو محمد، الاغتيالات السياسية في المجتمع العربي الإسلامي حتى نهاية القرن الثاني الهجري: ص ١٤٩ - ١٥٦.
- ٣٣- ابن منظور، لسان العرب: ٥/ ٢٤١.
- ٣٤- البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٣٤٧.
- ٣٥- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة: ص ١٨٣؛ والمجلسي، بحار الأنوار: ٤٢/ ٢٧٩.
- ٣٦- البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٢٥؛ وياقوت الحموي، معجم البلدان: ١/ ٤٣٢.
- ٣٧- البلاذري، فتوح البلدان: ٢/ ٤٢٥.

- ٣٨- البلاذري، فتوح البلدان: ٤٢٨/٢؛ وياقوت الحموي، معجم البلدان: ٤٣٤/١.
- ٣٩- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٤٦٠/٢٠.
- ٤٠- البلاذري، فتوح البلدان: ٤٢٨/٢.
- ٤١- ماجد حياي، تاريخ العمارة الإسلامية: ص ١٤٦.
- ٤٢- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ٤٦٠/٢٠.
- ٤٣- المصدر نفسه، الجزء والصفحة.
- ٤٤- البلاذري، فتوح البلدان: ٤٢٨/٢.
- ٤٥- يُنظر: د. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية: ص ١٦٤-١٦٥.
- ٤٦- يُنظر: وياقوت الحموي، معجم البلدان: ٥١/١، ٤٥٠-٤٥١.
- ٤٧- البلاذري، فتوح البلدان: ٤٢٦/٢.
- ٤٨- يُنظر: المصدر نفسه: ٤٢٧/٢، وما بعدها.
- ٤٩- د. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية: ص ١٦٦.
- ٥٠- يُنظر: البلاذري، فتوح البلدان: ٤٥٧/٢.
- ٥١- يُنظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٣٣/٣٣، وما بعدها.

المصادر والمراجع

- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله (ت ٧٩٧هـ / ١٣٠٧م).
- ١- رحلة ابن بطوطة، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- البلاذري، يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٩٠١م).
- ٢- فتوح البلدان، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ١٣٧٩هـ.
- خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٥م).
- ٣- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، ١٤١٤هـ.
- الدثوني، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٦م).
- ٤- الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م.
- سمير، ماجد حياي (معاصر).
- ٥- تاريخ العمارة الإسلامية في العراق حتى نهاية العصر البويهي، رسالة ماجستير غير منشورة كلية التربية للبنات، جامعة البصرة، ٢٠١٤م.
- ابن شبة النميري، عمر بن شبة (ت ٢٦٢هـ / ٨٧٦م).
- ٦- تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهد محمد شلتوت، ط ٢، دار الفكر - قم، ١٤١٠هـ.
- الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م).
- ٧- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسسة الأعلمي، بيروت، (د.د).
- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م).
- ٨- تاريخ دمشق الكبير، تحقيق: علي شيري، دار الفكر - بيروت، ١٤١٥هـ.
- أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م).
- ٩- الأغاني، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (د.د).
- ابن الفقيه الهمداني، أحمد بن محمد (ت ٣٤٠هـ / ٩٥١م).

- ١٠ - مختصر كتاب البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، ط١، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/ ١٤١٥م).
- ١١ - القاموس المحيط، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.
- مؤنس، حسين.
- ١٢ - المساجد، المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت، ١٩٧٨م.
- المجلسي، محمد باقر (ت ١١١١هـ/ ١٧٠٠م).
- ١٣ - بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- محمد، رحيم حلو محمد (الدكتور).
- ١٤ - الاغتيالات السياسية في المجتمع العربي الإسلامي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، بحث منشور في مجلة آداب الكوفة، العدد (٦) السنة ٢٠١٠م.
- المقرئ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).
- ١٥ - إمتاع الإسماع، تحقيق: محمد عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- ١٦ - المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: د. محمد زينهم، ط١، مكتبة مدبولي - القاهرة، ١٩٩٨م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١٢م).
- ١٧ - لسان العرب، نشر أدب الحوزة - قم، ١٤٠٥هـ.
- ناجي، عبد الجبار (الدكتور).
- ١٨ - دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت.
- ياقوت الحموي، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م).
- ١٩ - معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب (توفي نحو ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م).
- ٢٠ - تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، (د.ت).

جوانب من سياسة الإمام عليّ عليه السلام مع أهل البصرة

Aspects of Imam Ali's Policy (peace be upon)
with Basrah People

م.د. علاء حسن مردان اللامي

كلية الإمام الكاظم عليه السلام للعلوم الإسلامية الجامعة - فرع ميسان

Dr. Alaa Hassan Mardan Allamy

Imam Kadhim College for Islamic Studies

ملخص البحث

لقد حاول الإمام علي عليه السلام أن يتعامل مع أهل البصرة من باب الهداية إلى طريق الصواب، مع الكشف عن الشبهات التي تعترض الإنسان في حياته، سواء كانت هذه الشبهات تفوق تفكير الناس، أم أنهم لا يملكون القدرة في التمييز بين الحق والباطل، فيقعون في الباطل من دون أن يعوا ذلك، وهذا الأمر حدث مع بعض أهل البصرة؛ إذ وقعوا ضحية الخطاب الديني -آنذاك- على أنه النهج الأصيل لدين الإسلام، فمثل بكيان أم المؤمنين عائشة، حسب تصورات البعض، ومن ثم لم يملكوا أكثر من اتباع تبرير مواقف عائشة، فجعلوا خروجها نصرة للدين. وهذا الأمر عاجله أمير المؤمنين عليه السلام بنظرته الثاقبة، بوصفه متمماً لمشروع هداية البشرية بعد النبي محمد صلى الله عليه وآله، فبدأ يكشف لبعض أهل البصرة تلك الأخطاء والشبهات التي أحاطت بهم، وفصل بين الحق والباطل، واتباع منهج الشريعة الإسلامية للتعبير عن العفو والتسامح بين المسلمين كافة، وليس من حق أحد من أهل البصرة مصادرة حق الآخرين، أو اتهامهم بشيء من القول أو الفعل، وأن يتعاملوا بصدق مع المواقف، لا أن يستغلوا لمصلحة ما، وأوعز عليه السلام إلى أهل البصرة أن يستغلوا مواقف القوة لمصلحتهم؛ من أجل تكريس مفهوم الوحدة والجماعة، لا مفهوم الفردية والانتقام، وهو بذلك يكشف عن روح الإسلام الحقيقية.

Abstract

Imam Ali (peace be upon him) resorted to guidance and propriety in his attempts to deal with the people of Basrah. Such a policy implied disclosing uncertainties that could face people in their life, whether they are beyond people's thinking or in case they are unable to distinguish right from wrong. Some Basrah people at that time fell victims of the religious discourse which, they thought, had represented the authentic course of Islam. One notable example of this phenomenon is the group of Basrah people who advocated Aisha in her stand against Imam Ali.

Imam Ali, on his part, tackled these situations both diligently and wisely. He showed those people the uncertainties and mistakes made by them clinging all through to the principles of Islamic law. To bring this into reality, Imam Ali called for tolerance, forgiveness, justice,

and honesty. The concepts of unity and the group were called for away from individualism or revenge. All these endeavours uncovered the soul of true Islam.

مقدمة

تنطلق دراسة التاريخ الإسلامي من معرفة الشخصيات الإسلامية التي صنعت ذلك التاريخ، أو أن التاريخ هو من صنعها؛ إذ إنها مثلت الدور الأول للرواية التاريخية المبكرة على أنها صورة تلك الأحداث الحقيقية، فتناقلتها المصنّفات والمدونات التاريخية على اختلافها، فجاء ذلك النقل بصور مختلفة ومتفاوتة في المعنى، تبعاً للمصنّف أو المدوّن، وهذا الأمر خلق صورة تاريخية تُؤوّل على أكثر من سياق أو وجهة نظر عند من يهتم لتاريخ الشخصيات، أو الأحداث الإسلامية بصورتها العامة.

من هذا المنطلق، جاء هذا البحث ليسلّط الضوء على الرواية التاريخية التي نقلت خبر الإمام علي عليه السلام مع أهل البصرة، وطبيعة سياسته عليه السلام معهم، وهل كان متفهماً الوضع الذي حلّ بمدينتهم، أو إنّه تعامل معهم من منصب الخليفة والحاكم الأمر الناهي على من هم تحت سطوته، فيبرّر أفعاله على وفق مصلحة السياسة التي انتهجها لدولته؟ فهل فعلاً هذه الأفكار هي أساس سياسة أمير المؤمنين عليه السلام بين رعيّته، أو هناك صورة أخرى قد غيّبها التاريخ، أو لم تُفسّر بصورة أكثر قبولاً مع توجه أمير المؤمنين عليه السلام، فليس كلّ ما يُقال صحيحاً، وليس كلّ ما يُعرف حقيقةً، بل في منهجية الكتابة التاريخية يبقى المجال مفتوحاً لكل من يرغب في أن يطوّع فكرته ويذوّبها بناءً على الرواية التاريخية. ومحاولتنا هذه لم

تأت من أجل تبرير موقف ما يخص أهل البصرة في القرن الأوّل من الهجرة، ولا يرفع من شأنهم في ظلّ شخص أمير المؤمنين (عليه السلام)، وإنّما هي محاولة لاستيعاب تلك السياسة الرائعة التي نهجها قائدٌ منتصرٌ يمتلكُ كلّ المقومات للتحكّم بمصير مدينةٍ مغلويةٍ، تمرّد بعض أهلها عليه، وصادروا حقّه في قيادة الدولة الإسلاميّة، بناءً على رغبة أغلب المسلمين -آنذاك-؛ إذ هم من انتخب الإمام عليّاً (عليه السلام)، وبطريقة الحرّيّة الحقيقيّة، من دون أن يُمارس فيها شيئاً من الضّغط، أو التخبّط في المصلحة الشخصيّة أو الفتويّة.

إنّ نهج أمير المؤمنين (عليه السلام) مع أهل البصرة كان محاولة منه في تحقيق المصلحة الإنسانيّة، وتحقيق سبل العيش الكريم، من دون أيّ تجاوزات، أو أن يكون هناك طالب حقٍّ، أو مغبون لم يهتد إلى حقّه، ولا يرغب في الإساءة وإشاعتها بين أبناء المدينة الواحدة، بل رغّبهم في الحياة المبنية على الودّ والتّسامح، بعيداً عن التزلف أو التلوّن في صفحات الحياة، تبعاً للمواقف التي تعرّضوا إليها، وعلمهم أنّ المسيء له الحقّ في الحصول على فرصة للتّصحيح وإدراك ما فاتته من واقعٍ سلبه حقّ الاختيار تبعاً لصعوبته، أو لشروء الدّهن في الاتجاه غير الصّحيح.

فسياسة أمير المؤمنين (عليه السلام) كانت منطلقاً للتّصحيح، مع تحقيق الصّورة اللاحقة بها، وهذا السّيء لا يتحقّق إلّا من خلال معالجة البيئة الفكرية والثقافية للنّاس، فكان (عليه السلام) خير من مثّل ذلك؛ إذ تجوّل في مدينة البصرة لأكثر من شهرين؛ من أجل هدايتهم إلى الحقّ، وكشف زيف الآخرين، أو الذين ادّعوا أنّهم كانوا على حقّ في تطبيق حقّ الشريعة الإسلاميّة، فنجده يكلم النّاس على قدر معرفتهم، ويأمرهم باتّباع العقل في تحقيق الحقّ، لا اتّباع المشهور، وأيضاً بين (عليه السلام) لهم بعض

التصرّفات التي بدأوها في بيئتهم على أنّها لا تمتّ لسمة الإنسانيّة بصلة، ومن تعامل بها عُددٌ من تَبَعَةِ الجاهليّة، بل أكثر من ذلك، فقد يُعَيَّرُ أبناؤه من بعده على فعلته تلك، وهذا يدلُّ على أنّه ﷺ تعامل معهم على أساس عقولهم وفكرهم، لا على أساس ما يمتلكه من معارف وقيم إسلاميّة سامية.

المبحث الأول

نظرة في البعد الدلالي لمفردة السياسة

- السياسة والتسييس

عرّف أصحاب اللغة السياسة بأنها: (القيام على الشيء بما يصلحه)، وفي قولهم: سوّسه القوم، جعلوه يسوسهم، ويقال: سوّس فلان أمر بني فلان، أي: كلّف سياستهم^(١). وقال الجوهري: سوّس الرجل أمور الناس، على ما لم يُسمّ فاعله، إذا ملّك أمرهم، ويذكر قول الخطيئة:

لقد سوّست أمر بنيك حتى تركتهم أدقّ من الطحين^(٢).

وقيل: الإمام عارف بالسياسة، وكان بنو إسرائيل تسوسهم أنبياءهم، وهو القيام على الشيء بما يصلحه^(٣).

وفي غريب الحديث، يقال: آل الأمير رعيته، يؤولها أولاً وإيلاً، أي: ساسها، وأحسن رعايتها^(٤). فالسياسة هي ولاية شؤون الرعية وتدير أمورهم، والقيام على الشيء بما يصلحه، فكانت نظرهم على أساس المسؤولية الملقاة على عاتقهم، وربما كانت هذه المسؤولية تفرض عليهم الخروج عن مبادئ الإسلام وقيمه الأصيلة من أجل إصلاح الشيء بما يناسبه، فربما كانت ملازمة للحق، أو على النقيض من ذلك، بأن تقوم على أساس الخدعة بالأمان من أجل تلافي خطرٍ ما. أمّا نظرة المؤرخين إلى السياسة والمُلك بوصفها ذواتي ارتباط ثنائي، فيرى ابن حزم -مثلاً- أنه يجب أن تتوافر بعض الشروط بصاحب الإمارة، منها: «حسنُ السياسة، ونجدة النفس، والرّفق في غير مهانة، والشدة في غير عنف،

والعدلُ بغيرِ إسرافٍ، وتمييزِ صفاتِ النَّاسِ في أخلاقهم، وسعةِ الصدرِ، مع البراءةِ مِنَ المعاصي، والمعرفة بما يَخْصُه في نفسه وفي دينه، وإن لم يكن صاحبَ عبارة، ولا واسعَ العلم^(٥). وهناك مَنْ يذهبُ إلى أنَّ «السِّياسةَ والمُلْكَ هي كفالةُ للخلقِ وخلافةُ الله في العبادِ لتنفيذِ أحكامه فيهم، وأحكامُ الله في خلقه وعباده إنَّما هي بالخيرِ ومراعاةِ المصالحِ، كما تشهد به الشَّرائعُ، وأحكامُ البشرِ إنَّما هي من الجهلِ والشَّيطانِ بخلافِ قدرةِ الله سبحانه وقدره^(٦)». فنظرةُ المؤرِّخينَ تقومُ على أساسِ التَّقريبِ بينِ الدِّينِ والسِّياسةِ في التَّدبيرِ^(٧)، يقول أحدُ الباحثينَ: «لا فصل بين المسائلِ السِّياسيَّةِ وبينِ أيِّ مسألةٍ مِنَ المسائلِ الفقهيةِ الدِّينيةِ على الإطلاق؛ إذ الدِّينُ عَيْنُ السِّياسةِ، والسِّياسةُ عَيْنُ الدِّينِ؛ لأنَّ التحرُّكَ السِّياسيَّ في مختلف المجالاتِ والأنحاءِ يحتاجُ إلى الفقيهِ ليعطيَ الشَّرعيةَ له^(٨)».

وقد أقام الإسلامُ سِياسةً بناءً تقومُ على العدلِ والمساواةِ وتحقيقِ الرِّفايةِ الشَّاملةِ لجميعِ الأممِ والشَّعوبِ، من دونِ استثناءٍ، فهي أجدرُ سِياسةٍ وأقومها بتحقيقِ العدلِ الاجتماعيِّ^(٩). فقد حدَّدَ الإسلامُ منطلقاتِ الحُكَّامِ وأساليبِ التَّدبيرِ لحفظِ الرِّعيةِ، ومِن ثَمَّ يكونُ هناكُ توازنٌ بينِ الحاكمِ والمحكومِ في إنصافِ الطرفين، لإشاعةِ روحِ التعاونِ والألفةِ الجماعيَّةِ؛ لأنَّ السِّياسةَ تقومُ على أساسِ الحقوقِ الشَّرعيةِ، وليس على حسابِ المصالحِ والغاياتِ والأطماعِ الشَّخصيَّةِ.

أمَّا نظرةُ الغربِ للسِّياسةِ، فقد عدَّوها (حكمَ الدُّولِ)^(١٠)، على وفقِ النظرةِ الحديثةِ القائمةِ على أساسِ العلاقاتِ التَّجاريَّةِ والاقتصاديَّةِ والتَّبادلِ النفعيِّ، وقد توسَّعوا في دراسةِ هذا الاتجاهِ ليتمكَّنوا من الغطرسِ والسيطرةِ على الكياناتِ الضَّعيفةِ والتحكُّمِ بمصيرها على حسابِ مصالحها بالدرجةِ الأولى،

ومن ثمَّ نظروا إلى الإسلام بنظرة التّصغير، وجردوه من تلك السّياسة الشّاملة، التي تقوِّض مشاريعهم الاحتكاريّة؛ لذلك فجذور السّياسة الإسلاميّة هي منطلق لحفظ الشّعوب واستقلالها بكيانها لتواصل حياتها^(١١).

المبحث الثاني

سياسة الإمام عليّ عليه السلام في احتواء المخالفين وعدم إقصائهم

ونظراً إلى اتّباع سياسة الإسلام الحكيمّة في تدبير شؤون الخلق، كانت سياسة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في أهل البصرة خيراً لمن اتّبعه واقتفى منهجه ممّا طلعت عليه الشّمس^(١٢)، فهدف الإمام هو الحفاظ على روح الإسلام الفتيّ، والدّفاع عن مبادئه وتحقيق العدالة، وهذه الإجراءات ليس كما عرفها أهل اللّغة من القيام على الشّيء بما يُصلحه، بل التزم أمير المؤمنين عليه السلام التّعامل على قدر عقول البصريّين واحتواء أفكارهم، فهو لم يوجّه التّهم وإصدار العقوبة لمن خالفه بعد نهاية معركة الجمل، بل التزم مبدأ الحرّيّة والتّعبير عن الرّأي، الذي يعكس منهج الإمام السّياسيّ المتكامل؛ إذ إنّ جاء للحفاظ على الوحدة السّياسيّة والاجتماعيّة، وتوجيه النّصح، ومنح الفرصة لمن انحرف عن جادة الصّواب^(١٣). وهذا التوجّه استخدمه عليه السلام قبل دخوله البصرة، وقبل وقوع القتال؛ كي يتسنّى للنّاس مراجعة أمرهم ومعرفة الحقيقة على أوضح صورة، فالإمام عليه السلام اعتمد على السّياسة الإسلاميّة، كي لا يكون هناك مغبون، أو طالب حقّ لم يجد الدّليل إلى مطلبه، لذلك كانت سياسته ضمن إطار الإسلام والشّريعة

ككُلِّ، حَتَّى يَكُونَ مَقْبُولاً عِنْدَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَتَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ آثَارُ الطَّاعَةِ فِي الْحَيَاةِ، وَيُؤَدِّي ثَمَارَهُ كَامِلَةً^(١٤). ثُمَّ إِنَّ خُرُوجَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْبَصْرَةِ كَانَ لِحِفْظِ أَهْلِهَا مِنَ الْإِنْحِرَافِ، وَتَخْلِيصِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ الَّتِي ابْتُلُوا بِهَا، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ بَعِيداً عَنْ صَوْتِ النَّاسِ فِي الْبَصْرَةِ، بَلْ إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ عَلَى عِلْمٍ بِحَالِ أَهْلِهَا وَمَا يُوَاجِهُونَ مِنَ الضُّغُوطِ الَّتِي سَيَفْرُضُهَا الطَّرْفُ الْآخَرُ فِي سَبِيلِ الْحَصُولِ عَلَى مَبْتَغَاهِ السِّيَاسِيِّ، فَمَا إِنَّ عِلْمَ بِحَالِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، حَتَّى نَجِدَهُ يَتَأَسَّفُ عَلَيْهِمْ، وَكَأَنَّهُ قَدْ كَانَ مَعَهُمْ فِي وَقِيعَتِهِمْ^(١٥).

وَيُرَوَّى أَنَّ الْإِمَامَ عَلِيّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّقَى بَعْضَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ قَبْلَ وَقُوعِ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ، وَمِنْ بَيْنِ أَهْلِهَا (كَلِيبُ الْجَرْمِيِّ)^(١٦)، وَقَدْ أَرْسَلَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ لِمَّا قَرَّبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهَا، لِيَعْلَمَ لَهُمْ مِنْهُ حَقِيقَةَ حَالِهِ مَعَ أَصْحَابِ الْجَمَلِ، لِتَزُولَ الشُّبُهَةُ مِنْ نَفْسِهِمْ، فَبَيَّنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ مَعَهُمْ مَا عِلِمَ بِهِ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، ثُمَّ قَالَ: «بَايَعُ، فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ لَا أُحَدِّثُ حَدَثاً حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ فَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ، مَا كُنْتَ صَانِعاً؟»، قَالَ: كُنْتُ تَارِكَهُمْ وَخَالَفَهُمْ إِلَى الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَامْدُدْ إِذَا يَدُكَ»، فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَ اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنَعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحِجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١٧). وَيَبْدُو أَنَّ هَذَا التَّشْكِيكَ الَّذِي أَثَارَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ جَاءَ بِنَاءً عَلَى مَشْرُوعِ النَّاكِثِينَ التَّتَقِيْفِيِّ بِشَأْنِ أَحَقِّيَّةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَلْ هُوَ عَلَى الصَّوَابِ أَوْ عَلَى الْبَاطِلِ؛ إِذْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ يَشْتَمُهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَخَطَبَ يَوْماً فِي الْبَصْرَةِ، فَقَالَ: قَدْ أَتَاكُمْ الْوَعْدُ اللَّئِيمُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ^(١٨).

فالأحداث السياسيّة التي نشأت في البصرة، أصبحت ذات اتّجاهات متشعّبة، وكلّ اتّجاه يُحاول أن يكسب الصّراع لمصلحته، من دون الالتفات إلى مبادئ الدّين الإسلاميّ، فأصبحت العاطفة في جانب، والهوى والعصبيّة في جانبٍ آخر، فكان على أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يعمل على وفق تلك الاختلافات، وأن يوفّق بينها وبين حقيقة الإسلام ما أمكنه، حتّى إنّ الإمام (عليه السلام) كان يقول: «العدل أفضلّ السّياستين»^(١٩)، فهو يحاول أن يطبّق الشّرع على منهجه السّياسيّ في معاملته أهل البصرة والعدل دينيّاً ودنيويّاً، فالعلم بالمسائل السياسيّة جزء لا يتجزّأ عن العلم الفقهيّ العباديّ أو الاجتماعيّ^(٢٠). وهذه السّياسة جعلت البعض يتّهمون أمير المؤمنين (عليه السلام) بضعف التّدبير في هذا المجال، فيقول ابن أبي الحديد: «إنّ السّائس لا يتمكّن من السّياسة البالغة إلّا إذا كان يعمل برأيه، وبما يرى فيه صلاح ملكه، وتمهيد أمره، وتوطيد قاعدته، سواء وافق الشّريعة أو لم يوافقها، ومتى لم يعمل في السّياسة والتّدبير بموجب ما قلناه، فبعيدٌ أن ينتظم أمره، أو يتوثّق حاله»^(٢١). لكنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) كان بعيداً عن وصف ابن أبي الحديد، الذي حاول أن يطبّق نظريّة السّياسة على كلّ حكم، ولا يتمكّن الحاكم من النّجاح في مجال حكمه، إلّا إذا اتّبع هواه في سياسته، وهو ما يخالف تعاليم الدّين الإسلاميّ ومنهجه، فالإمام عليّ (عليه السلام) لم يكن من هذا النوع الذي يسعى لتحقيق مصالحه الشّخصيّة، أو الظّهور بمظهر الحاكم المهيمن على شعبه، بل كان يسعى إلى تطبيق حدود الله على أحسن وجه، «فعليّ كان بالورع ملجماً عن جميع القول إلّا ما هو لله فيه رضا، ولا يرى الرّضا إلّا فيما دلّ عليه الكتاب والسّنّة، ومنوع اليد من البطش، إلّا ما هو لله رضا، دون ما يعوّل عليه

أصحاب الدّهَاء، والنّكرى - ناكِر الحقيقة متغيّر - والمكايِد والآراء»^(٢٢). فأَمير المؤمنين عليه السلام هو الرّاعي الذي يسهر على شعبه ويحرص على عدم المساس به بسوء^(٢٣)، وهذا الأمر جعله يُعرض عن المصانعة وبذل الأموال على حساب الدّين، في سبيل التّأثير على عقيدة النّاس؛ لذلك قيل: «إنّ مسألة قعود العرب عن نصرة الإمام علي عليه السلام هو أمر المال؛ لأنّ الإمام لم يكن يفضّل شريفاً على مشروف، ولا عربياً على أعجميٍّ، ولا يُصانع الرّؤساء وأمراء القبائل، كما يفعل الآخرون، ولا يستميل أحداً لنفسه، كما فعل معاوية؛ لذا ترك النّاس علياً»^(٢٤). فسياسة التّساوي والإنصاف بين الرّعيّة أصبحت معكوسة بنظر البعض؛ إذ يرون أنّ الإمام علياً عليه السلام غير أهل للسياسة، متناسين دوره القياديّ في حفظ الأُمّة الإسلاميّة من التمزّق والفرقة والانحراف.

ثمّ إنّ أمير المؤمنين عليه السلام اتّبع سياسة العفو عند المقدرة مع أهل البصرة، فلمّا انتهت معركة الجمل لصالحه، نادى منادٍ: «لا يُجهز على جريح، ولا يُتبع مولٌّ، ولا يُطعنُ في وجه مدبرٍ، ومَنْ ألقى السّلاح فهو آمن، ومَنْ أغلق بابَه فهو آمن»^(٢٥)، وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «وكانت السّيرة فيهم - أهل البصرة - من أمير المؤمنين، ما كان من رسول الله ﷺ إلى أهل مكّة يوم الفتح»^(٢٦)؛ لذلك قيل: «مَنْ تأمّل حال الرّجلين - النّبيّ محمد ﷺ، والإمام علي عليه السلام - وجدهما متشابهتين في جميع أمورهما»^(٢٧)، وهذا ما جعل أمير المؤمنين عليه السلام يسير بالمنّ والعفو في أهل البصرة، فأحبّ أن يقتدي مَنْ جاء من بعده، فيسير في المسلمين بسيرته، ولا يُجاوز فعله، فيرى النّاس أنّه قد تعدّى وظلّم^(٢٨).

وقيل: إنّ أهل البصرة من أهل البغي، الذين يقاتلون ولا رئيسَ لهم، فإذا

لم يكن لهم رئيس يرجعون إليه، فإنه لا يُجهز على جريحهم، ولا يتبع هاربهم، ولا تُسبى ذراريهم، ولا يُقتل أسيرهم، ومتى كان لهم رئيس يرجعون إليه، جاز للإمام أن يُجهز على جريحهم، ويتبع هاربهم، وأن يقتل أسيرهم^(٢٩). وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) حاول أن يسنّ سنّة في أهل الإسلام لمن جاء من بعده من الحكّام، على التزام الشرع في دار الهجرة والإسلام، فلا يجوز سبيهم وقتل أسيرهم^(٣٠)، فكان تعامله (عليه السلام) مع أهل البصرة بصفة أن مدينتهم دار هجرة، وهي تابعة للمسلمين، وليس من حقّ الحكّام التّجاوز عليها، أو انتهاك حرمة أهلها، فلمّا التمس جماعة من جيشه تقسيم ذراري أهل البصرة وأموالهم ونسائهم بين المجاهدين، «قال أصحابه: اقسم بيننا ذراريهم وأموالهم؟ فقال: ليس لكم ذلك، قالوا: كيف أحللت لنا دماءهم ولا تُحلّ لنا سبي ذراريهم؟ قال: حاربنا الرّجال فحاربناهم، فأما النّساء والذراريّ، فلا سبيل لنا عليهنّ، لأنّهنّ مسلمات، وفي دار هجرة، فليس لكم عليهنّ سبيل، فأما ما أجلبوا عليكم به، واستعانوا به على حربكم، وضمّهم عسكريهم وحواء، فهو لكم»^(٣١). فالتزم أمير المؤمنين (عليه السلام) سياسة المثل في أصحابه، وأنّ النّساء يخضعن لشروط الدّين الإسلاميّ، فلا يُمكن التّجاوز على حقّهنّ، ولا سبيهنّ، «وما كان في دورهم، فهو ميراث على فرائض الله - تعالى - لذراريهم، وعلى نسائهم العدة، وليس لكم عليهنّ ولا على الذّراري من سبيل»^(٣٢). فلمّا كثر على أمير المؤمنين الاحتجاج من أصحابه بشأن النّساء والذراريّ، قال: «أيّكم يأخذ عائشة في سهمه»، فسكتوا عن ذلك. فهذه السياسة ناتجة عن عبقرية أمير المؤمنين (عليه السلام) في تطبيق الشرع، وإرضاء جيشه فيما يرغبون إليه على وفق حدود الدّين الإسلاميّ، وهو قادرٌ على تلبية رغبات جيشه، لكنّه أبى

البطش، وأعلن الصّفح والعفو والالتزام بحقوق الدّين الإسلاميّ التي لا يجوز تخطّيها، ومن ثمّ كان التزامه تلك الطّريقة من أجل التّشريع، فجعل أصحابه على بينة من أحكام الإسلام، لتتسنى لهم قاعدة فقهية يلتزمون بها في الأوقات المشابهة لما حصل في حرب البصرة، فالإمام عليه السلام كان يتصرّف تصرّف إقامة الحجة بين أتباعه؛ لأنّ «أمير المؤمنين كان مقيداً بقيود الشّريعة، مدفوعاً إلى أتباعها ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتّدبير، إذا لم يكن الشّرع موافقاً، فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممّن لم يلتزم بذلك»^(٣٣)؛ لذلك نجد الإمام عليه السلام لم يخالف الشّرع من أجل السّياسة^(٣٤) والمصالح الدنيويّة في الوصول إلى السّلطة، ويبدو أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام لم يكن مثل الحكّام الذين كان همهم صنع المجد وإثرة الرّئاسة على طول عهودهم، منتهكين تعاليم الدّين الإسلاميّ، بل كان أمير المؤمنين أعلى مرتبة من تلك الصّفات التي تميل نحو حبّ الذات من أجل العيش للدّنيا فقط، فسياسة الإمام عليه السلام كانت مرتبطة بالمشروع السّمائيّ الذي بدأ به الرّسول الأكرم محمد ﷺ.

فالشّرع أفضل طريقة لإنجاح السّياسة لدى الحكّام، ولكن هذه السّياسة تتضارب مع أصحاب البدع والأهواء، وذوي الغلط الفاحش، الذين يميلون لحساب جماعة ما (أحزابهم)، لتحقيق ما يرغبون إليه من مكاسب دنيويّة، ومن أجل تحقيق مآربهم هذه، توهّموا أنّ السّياسة الشرعيّة قاصرة عن سياسة الخلق ومصلحة الأمّة، فتعدّوا حدود الله تعالى، وخرجوا من الشّرع إلى أنواع من الظلم والبدع في السّياسة^(٣٥). فالإمام عليّ عليه السلام عمل بأمر الله - عزّ وجلّ - ونهيه، فقد استنقذ نفسه، واستنقذ من أطاعه من أصحابه من عذاب الله، وأحرز وأحرزوا

به ثوابه - جلّ ذكره - (٣٦).

وهناك رواية تاريخية تُشير إلى أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) كان خشناً في ذات الله، لا يتعاطف مع الضلالة على حساب الهداية، وهذا الأمر حدث في البصرة بعد انتصاره في معركة الجمل، فالروايات تُشير إلى أنّ سبعين رجلاً من الرُّطّ أتوه (عليه السلام) يدعونه إلهاً بلسانهم، وسجدوا له، فقال لهم: «ويلكم، لا تفعلوا، إنّنا أنا مخلوقٌ مثلكم» (٣٧)، فأبوا، فحفرَ لهم أحاديده، وأوقد ناراً، فكان قنبر (٣٨) يحمل الرّجل فيقذفه في النّار، «فجعلوا يقولون وهم يُرمون في النّار: الآن صحّ عندنا أنّه الله؛ لأنّه لا يُعذّب بالنّار إلّا الله» (٣٩)، وفي ذلك كان الإمام (عليه السلام)، يقول:

إِنِّي إِذَا أَبْصَرْتُ أَمْرًا مُنْكَرًا أَوْقَدْتُ نَارًا وَدَعَوْتُ قَنْبَرًا
ثُمَّ احْتَفَرْتُ حُفْرًا فَحُفْرًا وَقَنْبَرٌ يَخْطُمُ خَطْمًا مُنْكَرًا (٤٠)

ويقول ابن حزم: «فإنّ محنة أبي الحسن رضي الله عنه من بين أصحابه رضي الله عنهم كمحنة عيسى صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من الرّسل (عليه السلام)» (٤١). فهل تصحّ هذه الرواية التي نُقلت في الكتب التاريخية على اختلافها (٤٢)، ومن ثمّ تُرسم سياسة للإمام عليّ (عليه السلام) مع غلاة البصرة، أو الحكم بحرق من ارتدّ عن الدّين الإسلاميّ بالنّار؛ ليضع حداً لكلّ من تسوّّل له نفسه بالارتداد، أو المغالاة في الدّين الإسلاميّ؟

فإذا صحّت هذه الرواية، فهي تكشف عن وجهة نظر أمير المؤمنين (عليه السلام) في محاربة كلّ من تطرّف في فهم الدّين، أو ممن يُحاول أن يحقّق مكاسب دنيويّة تحت ظلّ الدّين والحكومة معاً، مع ملاحظة أنّ الإمام (عليه السلام) «لم يقتلهم دفعةً واحدةً، بل حبسهم، وبيّن لهم، وأتمّ عليهم الحجّة، واستتابهم، فلم يرجعوا، ثمّ حفر

لهم حفراً مثقوبة على بعضها، ودخن عليهم، فلم يتوبوا، فقتلهم»^(٤٣). قال ابن عبد البر: «فاتخذوه رباً، وادعوه إلهاً، وقالوا له: أنت خالقنا ورازقنا، فاستتابهم، واستأنى، وتوعدهم، فأقاموا على قولهم، فحفر لهم حفراً دخن عليهم فيها طمعاً في رجوعهم، فأبوا، فحرقهم»^(٤٤).

وقد قام الإمام عليه السلام بمعالجة البنية الفكرية لبعض الناس الذين ابتعدوا بتفكيرهم عن جادة الصواب، محاولة تحرير الفكر من أن يكون جامداً في قضايا الدين، مع الإشارة إلى أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن يسعى وراء المناصب الدنيوية، أو الاستعلاء في الأرض، فلو كان من هذا القبيل لكان في هذه الحادثة الكفاية لتحقيق تلك المطالب، وحاشا للإمام عليه السلام أن يكون من ذلك النوع، وهو القائل: «إن دين الله لا يعرف بالرجال، بل بآية الحق، فاعرف الحق تعرف أهله»^(٤٥).

وفي بعض الروايات التاريخية، قال له الحارث بن حوط الرائي^(٤٦): «أترى طلحة والزبير وعائشة اجتمعوا على باطل؟ فقال: يا حارث، إنه ملبوس عليك، وإن الحق والباطل لا يعرفان بالناس، ولكن، اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف من أتاه»^(٤٧)؛ لذلك استعصى على فلاسفة التاريخ من عربٍ ومشرقين فهم شخصية الإمام علي، فأخطأوا، ونزعوا عنه صفة السياسة، واكتفوا بوصفه بالورع في الدين والزهد في الدنيا، ولكن اجتهاد أمير المؤمنين عليه السلام، ونزعه الشديد إلى منهج التوفيق بين الورع في الدين والصراحة في السياسة، كان فوق مدارك هؤلاء المؤرخين^(٤٨)؛ لذلك كان عليه السلام يقول على منبر البصرة: «ليحبني أقوام حتى يدخلهم حبي النار، وليبغضني أقوام حتى يدخلهم بغضي النار»^(٤٩). فأمر المؤمنين عليه السلام كان يحذر القوم من الإفراط أو التفريط في حقه، من ناحيتي

الحب، أو البغض، وعلى الإنسان أن يميّز بين الصّالح والطّالح، لا أن يتبع خطي الآخرين فيما قدموا عليه، من دون أن يتأكّد من الأمور حالة حدوثها، كما هو حال أهل البصرة؛ إذ ابتلوا بفتنة الصّحابة، وزوج النّبي عائشة، وما إن انتهت المعركة حتّى تبدّلت النفوس، وأصبحت المسألة تمسّ العقيدة الإسلاميّة، فالتزم الإمام عليه السلام سياسة التّريغ والتّرهيب، كلّ في محله، حتّى يتسنّى للقوم ركوب المسار الصّحيح، لهذا قيل: « سياسة عليّ لم تورّطه في غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتّباع سياسة أخرى، وهي كذلك لم تبلغه مآرب مستعصية، كان يعزّز عليه بلوغها في موضعه الذي وُضع فيه، وعلى مجراه الذي جرى عليه»^(٥٠). لذلك كان يأمل في أن يهدي الرّعية إلى جادة الصّواب، وإصلاح حال أهل البصرة عن طريق العفو والتّسامح، فكان يحبّ أن يقودهم إلى الله - عزّ وجلّ -^(٥١).

وهذا الأمر طبّقه الإمام عليّ عليه السلام حتّى مع أصحاب الدّيانات الأخرى؛ إذ إنّ هناك رواية تبيّن الطريقة التي نهجها أمير المؤمنين مع النّصارى في البصرة -آنذاك-، فقد روي أنّه لما بايع أهل البصرة عليّاً عليه السلام بعد الهزيمة، دخلوا في الطّاعة غير بني ناجية، فإيّهم عسكروا، فبعث إليهم عليّ عليه السلام رجلاً من أصحابه في خيل ليقاتلهم، فأتاهم فقال: ما بالكم عسكركم وقد دخل النّاس في الطّاعة غيركم؟ فافترقوا ثلاث فرق، فرقة قالوا: كنّا نصارى، فأسلمنا، ودخلنا فيما دخل فيه النّاس من الفتنة، ونحن نبايع كما بايع النّاس، فأمرهم، فاعتزلوا، وفرقة قالوا: كنّا نصارى ولم نُسلم، فخرجنا مع القوم الذين كانوا خرجوا، قهرونا، فأخرجونا كرهاً، فخرجنا معهم، فهزّموا، فنحن ندخل فيما دخل فيه

النَّاسَ وَنُعْطِيكُمْ الْجِزْيَةَ كَمَا أُعْطِينَاهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: اعْتَزِلُوا، وَفَرَقَهُ قَالُوا: إِنَّا كُنَّا نَصَارَى، فَأَسْلَمْنَا، فَلَمْ يُعْجِبْنَا الْإِسْلَامَ، فَرَجَعْنَا إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ، فَنَحْنُ نُعْطِيكُمْ الْجِزْيَةَ كَمَا أُعْطَاكُمُ النَّصَارَى، فَقَالَ لَهُمْ: تَوْبُوا وَارْجِعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَبَوْا، فَقَتَلَ مَقَاتَلْتَهُمْ، وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ، فَقَدِمَ بِهِمْ عَلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٥٢).

وَالظَّاهِرُ مِنَ الرِّوَايَاتِ التَّارِيخِيَّةِ أَنَّ الْإِمَامَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ طَوِيلَ النَّفْسِ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَلَمْ يَكُنْ يَتَعَامَلُ مَعَهُمْ عَلَى وَفْقِ مَنْصِبِهِ بِوصفه حَاكِمَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَوْ بِوصفه إِمَامًا مَعْصُومًا مَفْتَرِضَ الطَّاعَةِ، أَوْ شَخْصًا قَادِرًا عَلَى أَنْ يَتَّخِذَ مَوْقِفًا مُتَشَدِّدًا عَلَى جَمِيعِ أَهْلِهَا، فَيُطَبِّقَ حَالَةَ صَدُورِهِ، بَلْ ابْتَعَدَ عَنِ ذَلِكَ الشَّأْنِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُقَدِّمُ إِلَّا الْمَرْجُوَّ فِي صَلَاحِ أَهْلِهَا، بَلْ قَدْ يُفْهَمُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ تَعَدَّى عَلَى حَقُوقِهِمْ، لِأَسِيَمَا وَأَنَّ مَعَارِضِي الْإِمَامِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا مَازَالُوا مُتَوَاجِدِينَ فِي مَدِينَةِ الْبَصْرَةِ، وَأَيَّ نَقْطَةٍ مُثِيرَةٍ لِلْجَدَلِ يَعْمَلُونَ عَلَى اسْتِغْلَالِهَا، فَحَاجَجَ عَلَيْهِ أَهْلَهَا، وَأَبْطَلَ جَمِيعَ مَا أَثَارُوهُ مِنْ أُمُورِ الْجَدَلِ، فِيهِ الرِّوَايَةُ: «لَمَّا انْهَزَمَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ، قَامَ فَتَى إِلَى عَلِيٍّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا بَالُ مَا فِي الْأَخْبِيَةِ لَا تَقْسَمُ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا حَاجَةَ لِي فِي فِتْنَى الْمُتَعَلِّمِينَ، قَالَ: ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ فَتَى آخَرُ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ أَوَّلًا، قَالَ لَهُ الْفَتَى: أَمَّا وَاللَّهِ مَا عَدَلْتَ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَبَلِّغْ اللَّهَ بِكَ سُلْطَانَ فَتَى ثَقِيفٍ، ثُمَّ قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُونِي، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي مَا هُوَ شَرٌّ لَهُمْ» (٥٣).

فَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي اتَّبَعَهُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يُفَسَّرُ عَلَى أَسَاسِ أَنَّهُ ضَعْفٌ مِنْهُ فِي مُوَاجَهَةِ أَوْلَئِكَ الْفَتَيَانِ، بَلْ حَاوَلَ أَنْ يَسْتَدْرِجَهُمْ إِلَى حِكْمَتِهِ، فَيَتَعَامَلُ عَلَى أَسَاسِ مَعَارِفِهِ لَا حَتَاءَ فِكْرِهِمْ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ جَدًّا فِي وَاقِعِ النَّفُوسِ لِتَغْيِيرِ؛ إِذْ إِنَّ عَقْلِيَّةَ

العرب - آنذاك - كانت تسلّم للأُمور الغيبية، التي يدلُّ الحديث على وقوعها في المستقبل، ومنْ هنا تعاملَ أميرُ المؤمنينَ (عليه السلام) على مخاطبة أفكارهم، وما احتاجوه منْ معالم ثقافيّة، على وفق بيئتهم ومستوى التفكير حينها، لهذا خاطبهم (عليه السلام) منْ على منبر جامع البصرة، قائلاً: «يا أهلَ البصرة، إنْ كنْتُ قدْ أدَيْتُ لكم الأمانةَ، ونصحتُ لَكُمْ بالغيب، واتَّهَمْتُمُونِي، وكذَّبْتُمُونِي، فسَلَّطَ اللهُ عليكم فتى ثقيف. فقام رجلٌ، فقال له: يا أميرَ المؤمنينَ، وما فتى ثقيف؟ قال: رجلٌ لا يدعُ اللهُ حرمةً إلَّا انتهكها، به داءٌ يعترى الملوك، لو لمْ تكنْ إلَّا النَّارَ، لدخلها» (٥٤). وفتى ثقيف هو الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠-٩٥ هـ / ٦٦٠-٧١٤ م)، عامل بني أمية على العراق، وقيل: إنَّ الفتى البصري الذي ردَّ على أمير المؤمنينَ (عليه السلام) -آنذاك- قد بقي حتّى ولاية الحجاج فقتله (٥٥).

وقد ذكر المجلسي خطبةً للإمام عليّ (عليه السلام) يمدح فيها أهل البصرة، ويحثهم على فهم واقعهم، وعلاقة الإسلام بأهله، جاء فيها: «وأقسمُ لكم يا أهلَ البصرة، ما الذي أبتدئكم به منْ التَّوْبِخِ، إلَّا تذكيرٌ وموعظةٌ لما بعد؛ لكي لا تُسرِعُوا إلى الثَّوْبِ في مثل الذي وثبتم، وقد قال اللهُ لَنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾» (٥٦)، ولا الذي ذكرتُ فيكم من المدحِ والتَّطْرِية بعد التذكير والموعظة رهبةً منِّي لكم، ولا رغبةً في شيءٍ ممَّا قبلكم» (٥٧). وجاء في أحد كتبه إلى ابن عباس، عندما تركه على ولاية البصرة: «فحادثْ أهلها بالإحسانِ إليهم، واحلُلْ عقدة الخوفِ عنْ قلوبهم، وقد بلغني تنمُّركَ» (٥٨) لبني تميم، وغلظتكَ عليهم، وإنْ بني تميم لمْ يَغِبْ لهم نجمٌ، إلَّا طلع لهم آخر، وإنهم لمْ يُسَبِّقُوا بوعْمٍ» (٥٩) في جاهليّة ولا إسلام» (٦٠). فالإمام (عليه السلام) حاولَ أنْ يكشفَ سلباتِ الوالي، وإصلاحها بطريقة

أفضل، تلائم واقع أهل البصرة، وكلُّ حسب انتمائته القبليّ، فكان يراقب ولاته، ويحملهم على الإصلاح ما وجد إلى ذلك سبيلاً^(٦١)، وتبنّى العدل بجميع رحابه ومفاهيمه، فكان يُشرف على كلِّ أمرٍ في رقاع دولته، ويتفقّد أحوال رعيّته.

المبحث الثالث

السِّياسةُ الماليّةُ للإمام (عليه السلام) في أهل البصرة

أمّا سياسته الماليّة في أهل البصرة، فإنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) كان زاهداً في الأموال، بل حاول أن يعكس للآخرين من أهل البصرة أنَّ الأموال لا تعني له شيئاً، وهي سبب في اغترار غيره ممّن نكث بيعته، ليقدم على مدينة البصرة فينهب من أموالها، أو يستولي على خيراتها، بداعي مرتبته في الإسلام، يروى عن أبي حرب بن أبي الأسود^(٦٢)، قال: «إنَّ عليّاً لما قدم البصرة، دخل إلى بيت المال، فنظر إليه، ثمَّ أضرطَّ به^(٦٣)، وقال: غُرِّي غيري، غُرِّي غيري^(٦٤)».

وقبل أن يتوجّه إلى الكوفة، قام (عليه السلام) في أهل البصرة، فقال: «ما تنقِمون عليّ يا أهل البصرة؟ وأشار إلى قميصه وردائه، فقال: والله، إنَّها لمن غَزَلِ أهلي، ما تنقِمون مني يا أهل البصرة؟ وأشار إلى صرّة في يده فيها نفقته، فقال: والله، ما هي إلّا من غلّتي بالمدينة، فإنَّ أنا خرجتُ من عندكم بأكثر ممّا ترون، فأنا عند الله من الخائنين^(٦٥)». والظاهر من هذه الرواية، أنَّ البعض كان يخطط للترويح لبعض الأفكار غير الصّحيحة مُجّاه أمير المؤمنين (عليه السلام)، غايته من ذلك بثِّ فكرٍ معارضٍ لحكومة الإمام عليّ على أنَّها حكومة انتهازية، همّها أشخاصها، وهذا

الأمر ردّ عليه أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته أعلاه؛ ليحرّر عقلية بعض أهل البصرة من هذه التّهم التي يردّها بعض أعدائه هناك.

ولما قسم عليه السلام بيت مال البصرة على أصحابه، كان نصيب كلّ واحد خمسمائة درهم، وأخذ هو خمسمائة درهم كواحد منهم، فجاءه إنسان لم يحضر معركة الجمل، فقال: يا أمير المؤمنين، كنتُ شاهداً معك بقلبي، وإن غاب عنك جسمي، فأعطني من الفيء شيئاً، فدفع إليه الذي أخذه لنفسه، وهو خمسمائة درهم، ولم يُصب من الفيء شيئاً^(٦٦)، وهذا وجه آخر من سياسة أمير المؤمنين المالية، فهو لم يترك المحتاجين من دون الحصول على مبتغاهم؛ لأنّ حرمانهم سوف يجرّهم إلى السعي للحصول عليها بأيّ شكل من الأشكال، حتّى لو حصلوا عليها بطرق غير شرعية، وهذا الأمر له أثر سياسي ونفسي في الوقت نفسه، فالشخص الذي يطلب مبلغاً من المال ما هو إلّا لحاجته إليه، وعدم حصوله عليه سوف يجرّه نحو الأسوأ، وربّما ينحرف عن طريق الإسلام وموقفه السياسي الصحيح؛ سعيّاً وراء من يُعطيه، حتّى لو كان عدوّه، وهذا الأمر لم يتركه الإمام عليه السلام مع أهل البصرة، بل عاجله بحكم مسؤوليته على الرعية، وإنصاف الجميع من دون تمييز. فلم يكن الطمع في النعيم، ومنع الضعيف والمحتاج، من نظريات الإمام عليه السلام، بل كان يرجو أن يُعطيه الله أجر المتواضعين المتصدّقين، «ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمره^(٦٧)، ومن طعمه بقُرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن، أعينوني بورع واجتهاد، وعقّة وسداد، فوالله، ما كنزت من دنياكم تبراً - الذهب -، ولا ادخرت من غنائمها وفرّاً - المال -، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا خزت من أرضها شبراً»^(٦٨).

فأمير المؤمنين عليه السلام ترك ملذات الدنيا وشهوتها من أجل إصلاح الرعية، وتحقيق الإنصاف والعدالة على أحسن وجه، وتحقيق الرفاهية الاجتماعية على ما يستطيع إلى ذلك سبيلاً، كأنه عليه السلام أراد أن يعكس للحكام أهمية الورع في إصلاح شؤون الرعية التي تتبع حكامها، وليس من شيمتهم أن يستغلوا ضعف الناس، فيستلظون عليهم، ويحتكرون خيراتهم، وينعمون بملذات الدنيا، ويحرمون الفقراء من أبسط الحقوق، التي هي من واجبات الحكام تجاه شعوبهم.

المبحث الرابع

سياسة الإمام عليه السلام في كشف الحقائق وعدم طمسها

الملاحظ على أمير المؤمنين عليه السلام أنه سعى في تعريف أهل البصرة الحقيقة التاريخية المغيبة عنهم بفعل الإعلام المضاد لشخص علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا المجال يدل على سعة نظره عليه السلام، فضلاً عن صبره على استيعاب الناس على اختلاف طبقاتهم وتفاوت تفكيرهم؛ إذ كشف لهم عن الحقائق التاريخية التي هي أساس الاختلاف في العقيدة الإسلامية والعاطفة الاجتماعية.

ففي الرواية التاريخية تبرز هذه الأسس المنطقية في بيان الحقيقة من أمير المؤمنين عليه السلام، لعله يتمكن من معالجة الأفكار الخاطئة، فيروى عن معادة العدوية^(٦٩) أنها تقول: سمعتُ علياً عليه السلام على منبر البصرة، يقول: «أنا الصديق الأكبر، آمنتُ قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمتُ قبل أن يُسلم»^(٧٠). في حين الرواية التاريخية الأخرى قد مهدت وبسطت فكرة الصديق لشخص أبي بكر حسب زعمها؛ لأنه صدق برسول الله ﷺ حين كذبه الناس، إثر حادثة الإسراء^(٧١).

إذن، الأمر ليس كما نتوقعه، أو نقرأه من أفكار احتضنت وجعلت واقع حال يعبر عن شخصيات ودولة وأفضلية، بل أكثر من ذلك، وحسب التعميم التاريخي، وفي زمن متقدم جداً ساد لون من التحريف في الحقائق، ليعكس البيئة التي نشأ في أحضانها ذلك التاريخ غير الصحيح، فيجعل صورة مشرقة للبعض، غُيِّبَت على أثرها كل الإنجازات التي تحققت زمن الدعوة الإسلامية، لاسيما من الطرف القريشي، وهذا الأمر تحدّد في كلام الإمام عليّ (عليه السلام) أثناء تطوافه على قتلى معركة الجمل؛ إذ قال: «هذه قريش، جدعت أنفي، وشفيت نفسي، لقد تقدّمت إليكم أحذركم عضّ السيوف، وكنتم أحداثاً لا علم لكم بما ترون، ولكنه الحين وسوء المصرع، فأعوذ بالله من سوء المصرع»^(٧٢).

إذن، فالإمام (عليه السلام) يُعرّف أهل البصرة حقيقة الأمر الذي وقع، وما كان من قريش، التي نازعته كلّ شيء، ليتحوّل ذلك النزاع إلى خارج حدود قريش، فيعمّ كلّ أرض تابعة لدولة الإسلام، وليكشف عن ضغينة تُجاهه، لا لشيء سوى أنّه كان على الحق، ووقف إلى جانب رسول السماء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا الأمر يؤسّف له؛ إذ جعل الحقيقة مغيّبة، وما زال أثر ذلك التغييب يؤوّل إلى أكثر من رأي تابع لعاطفة، أو نصر مذهب، أو شخصية.

لذلك، بدأ الإمام عليّ (عليه السلام) مشروعه الثقافي في إيضاح الحقيقة التي غُيِّبَت عن بعض أهل البصرة، حتّى قيل: إنّه (عليه السلام) صعد المنبر يوماً في البصرة بعد الظفر بأهلها، وقال: «أقول قولاً لا يقوله أحدٌ غيري إلّا كان كافراً: أنا أخو نبيّ الرّحمة، وابن عمّه، وزوج ابنته، وأبو سبطيه، فقام إليه رجلٌ من أهل البصرة، وقال: أنا أقول مثل قولك هذا: أنا أخو الرسول، وابن عمّه، ثم لم يُتمّ كلامه حتّى أخذته الرّجفة،

فما زال يرجفُ حتّى سَقَطَ مَيِّتاً لعنه الله» (٧٣). وجاء في رواية أُخرى، عن أصبغ بن نباتة الحنظليّ (٧٤)، قال: «رأيتُ أميرَ المؤمنين عليه السلام يومَ افتتح البصرة، ركب بغلة رسول الله ﷺ، ثم قال: «أيّها النَّاسُ، ألا أخبرُكم بخيرِ الخلقِ يومَ يجمعُهُم الله؟»، فقامَ إليه أبو أيوب الأنصاريّ، فقال: بلى، يا أمير المؤمنين، حدّثنا، فإنّك كنتَ تشهدُ ونغيّبُ، فقال: «إنَّ خيرَ الخلقِ يومَ يجمعُهُم الله سبعة من وُلد عبد المطلب، لا يُنكرُ فضلُهُم إلّا كافراً، ولا يحدُّ به إلّا جاحداً»، فقام عمار بن ياسر - رحمه الله - فقال: يا أمير المؤمنين، سمّهم لنا لنعرفهم، فقال: إنّ خيرَ الخلقِ يومَ يجمعهم الله الرّسل، وإنّ أفضلَ الرّسل محمّد صلّى الله عليه وآله، وإنّ أفضلَ كلّ أمةٍ بعد نبيّها وصيّ نبيّها، حتّى يُدرّكه نبيّ، ألا وإنّ أفضلَ الأوصياء وصيّ محمّد عليه وآله السّلام، ألا وإنّ أفضلَ الخلق بعد الأوصياء الشّهداء، ألا وإنّ أفضلَ الشّهداء حمزة بن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب، له جناحانِ خضيبانِ يطيرُ بهما في الجنّة، لم يُنحلْ أحدٌ من هذه الأُمّة جناحانِ غيره، شيء كَرَّمَ الله به محمّداً صلّى الله عليه وآله، وشرفه، والسّبطان الحسن والحسين، والمهديّ عليهم السّلام، يجعله الله من شاء ممّا أهل البيت، ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٧٥)، ذلك الفضلُ من الله، وكفى بالله عليماً» (٧٦).

وواقع الحال يُشيرُ إلى أنّ هناك بعض أهل البصرة كانوا حتّى ذلك الوقت الذي انتصر به الإمام عليّ عليه السلام على ناكثي بيعته ما يزالون غير مصدّقين قوله، بل كأنّهم يشكّون في كلامه، وهذا راجعٌ إلى خلفيّتهم الثقافيّة مع أهوائهم التي ليس من السّهل التخلّص منها والعدول إلى هوى جديد. ومن ثمّ لم نجد الإمام

عليّاً عليه السلام يعتمد على الآخرين في توضيح حقّه، أو نشر حقائق غائبة عن العامة من الناس، بل كان هو مَنْ يتحدّث مباشرة لأهل البصرة؛ رغبةً منه في توضيح ما اشتبه من القول، وإصلاح ما أفسده الآخرون، مع التحفّظ على شخصيّات الإسلام الأوائل من دون المساس بها، أو تسقيطها، وهذا الأمر من روائع الإمام عليّ عليه السلام في توجّهه السليم لإصلاح شأن الرعيّة، ومراعاة شعورهم، وهذا الحال تكشفه الروايات التاريخية، التي عبّرت عن صورة القول من طرف بعض أهل البصرة وردّ أمير المؤمنين بالمقابل على أسئلتهم؛ إذ لم ينل عليه السلام حتّى من الذين تسبّبوا في قتل الناس، وإحلال الفساد في ملّة الإسلام، بل كان هدفه عليه السلام أوسع من ذلك، رغبةً في الابتعاد عن ابتزاز الآخرين من العامة^(٧٧)، وهذا يدلّ على حقيقة أمير المؤمنين في إصلاح الشّأن، ويعمّم ثقافة التّأخّي وعدم الشّهير بالآخرين، أو التّفكير في النّيل منهم، وهذه الميزة جدّية بخلق مجتمعٍ متعايشٍ سلميّ بعيدٍ عن الجدل غير الصّائب، أو التطرّف في الفكر.

وههنا نقطة مهمّة لا بدّ من تجليتها، وهي: أنّه قد ظهرت من أمير المؤمنين عليه السلام مجموعة من المواقف من بعض القتلى في معركة الجمل - وقد تقدّم بعضها - تتسم بالتألم والحزن، والذي يقرأ هذه المواقف بمفردها قد يتبادر إلى ذهنه أنّ أمير المؤمنين عليه السلام غير متيقّن من مشروعية حربه معهم، أو أنّ هؤلاء كانوا محقّقين في خروجهم على دولة الإمام عليه السلام، وهذا ما يتطلّب إلى الإيضاح، فنقول:

يعدّ البعد الإنسانيّ البعد الأهمّ الذي يميّز حروب أمير المؤمنين عليه السلام، فقد أظهر عليه السلام حُزنه وقلقه وتألمه على المصير الذي وصل إليه حال بعض الشخصيّات، كطلحة بن عبيد الله، وابنه محمّد بن طلحة، وكذا الزبير بن العوّام،

وغير هؤلاء، إذن، يا ترى، بماذا نعلل هذه المواقف؟ والإجابة على ذلك تتركز في النقاط الآتية^(٧٨):

أولاً: إنّ بعضاً من هؤلاء لهم مواقف بطوليّة في الدّفاع عن الإسلام، فكان عليه السلام يتمنى أن يقاتل بهم أعداء الإسلام، ويدافع بهم عن الرّسالة السّامية، التي تتعرّض إلى مجموعة من الفتن.

ثانياً: لا يمكن أن نتصور ذلك بأنّه نابع من حالة الشكّ، أو النّدم على ما أقدم عليه، وهو العالم علم اليقين بحجّة فعله، لكنّ حالة التّألم على مَنْ قُتل في هذه المعارك هي دافع ذلك، وما يترتّب عليه من آثار سلبية في مسيرة الدّولة الإسلاميّة، وهذا بطبيعة الحال نابع من الرّوح الإنسانيّة العظيمة التي عُرف بها، وكانت الطّاغية على جميع أفعاله وتصرفاته عليه السلام.

ثالثاً: إنّ ما أظهره الإمام عليه السلام كان في بعض جوانبه من حالة العتب؛ نتيجة نكران هؤلاء للإحسان الذي أسداه لهم في مواقف مختلفة، ومقابلتهم هذا الإحسان بالإساءة، عندما نكثوا بيعته، وخرجوا عليه يقاتلونه.

رابعاً: إنّ رثاء أمير المؤمنين عليه السلام بعض قتلى الجمل، مصداقٌ رائعٌ من مصاديق عظّمته وسلامة نفسه وطهارتها من كلّ رجسٍ وغلٍّ.

خامساً: إنّ قيامه عليه السلام بالصّلاة على القتلى والعفو عن الجرحى، قد جسّد البعد الإنسانيّ بكلّ معانيه، وقد أثّرت هذه السّياسة في نفوس أهل البصرة من خلال انضمام كثيرٍ منهم إلى معسكره.

سادساً: إنّ الغالب على شخصيّة عليه السلام في حروبه، العفو والصّفح، التي عبّر من خلالها عن حقيقة أخلاقه السّامية، التي هي انعكاسٌ واقعيٌّ لأخلاق

الإسلام.

سابعاً: إن هذه المواقف أشارت إلى رسوخ صفات المحبة والودّ وصفاء النية، وانعدام كلّ حالات العداوة والبغضاء.

وقد جاء في روايةٍ ذكر لموقف الإمام عليّ (عليه السلام) من المرأة وطبيعة التعامل معها بشكلٍ عامٍّ، فقد أوصى (عليه السلام) بالابتعاد عن السلوك القاسي، وأن لا يتناولها أحدٌ بأذى، بل أن يكونوا على قدرٍ من التفكير لاستيعاب الحالة المؤقتة التي ظهرت عليها بعض النساء، جرّاء شدة حزنهنّ على مَنْ فقدن من أقاربهنّ، فبعد نهاية معركة الجمل، وعند دخول الإمام عليّ (عليه السلام) الدار التي نزلت فيها عائشة في البصرة، تعرّضت له إحدى النساء بالدعاء عليه عند دخوله وخروجه، فقال له مَنْ كان بصحبته: «والله لا تفلتُنَا هذه المرأة، فغضب، وقال: صه، لا تهتكن سترًا، ولا تدخلن دارًا، ولا تهيجن امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم، وسفهن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعافٌ، ولقد كنّا نؤمرُ بالكفّ عنهنّ وإنهنّ لمشركاتٌ، وإنّ الرجل ليُكافئ المرأة ويتناولها بالضرب، فيعيرُ بها عقبه من بعده، فلا يبلغني عن أحدٍ عَرَضَ لامرأةٍ، فأنكل به شرار الناس»^(٧٩).

إنّ هذا اللون من التعامل لجديرٌ بالتأمّل والتدبر؛ إذ يكشف عن الوجهة الحقيقية للشرعية الإسلامية في تعاملها مع الضعفاء، لا سيّما المرأة، فهناك أكثر من إشارة في الرواية المتقدمة ذكرها الإمام عليّ (عليه السلام)، وجاء بالدرجة الأولى التعامل على قدر القوة؛ إذ ليس من الحكمة استغلال الضعيف نسبة لموقفه، فإذا غلب أحلّ لنفسه كلّ رغباته، وأصبح سيّد القانون، يُشرّع حسب هواه، بل على الضدّ تمامًا، عليه أن يتبع نهج الشريعة الإسلامية في الاحتراز من المرأة، على أنّها تتأثر

بعاطفتها، فتغلبُ على تصرّفاتِها، وكذلك للأثر الاجتماعيِّ والعار الذي يلحقُ الرَّجلَ عندما يتعرّضُ لامرأةٍ، أو يُحاولُ قهرَها في موقفٍ يُمكنه ذلك، وبهذا يكون مشروع أمير المؤمنين عليه السلام في تثقيف أهل البصرة -آنذاك- شاملاً لكلِّ ما وجده بحاجة إلى إصلاحٍ وتنبيه، أو ما تربّى عليه بعضهم من صورٍ نقلت إليهم على أئمتها واقعٌ ومصدّقٌ لحياة المسلم ينبغي عليه أن يُسلمَ بصحّتها، أو يجعلها منهجاً لحياته، سواء في ما صُنِعَ من مناقبَ لشخصيّاتٍ على أئمتهم أبطال الدّين الإسلاميِّ، أم ما تربّوا عليه من ثقافةٍ اجتماعيّةٍ سادت في بيئتهم، فلم يتخلّصوا منها حتّى في ظلّ الشريعة الإسلاميّة.

الختامة

من خلال ما تقدّم، وفي سياق هذه الدراسة، يتّضح أنّ هناك أفكاراً تاريخية بحاجة إلى الكشف عنها، والتحقّق منها، برؤية سليمة بعيدة عن التعصّب، أو التصنّع في البحث التاريخي، لاسيّما وأنّ أحداث القرن الأوّل من الهجرة مازالت بحاجة إلى استقرار نصوصها، أو التدبّر فيها، حتّى نكشف عن أوضاعها مع سبب ظهورها بالشكل النهائي في مرحلة التدوين التاريخي.

يتّضح -أيضاً- أنّ الإمام عليّاً عليه السلام كان على قدر كبير من التدبّر، وهذا الأمر لم ينتج عن كونه رئيساً، أو حاكم دولة فقط، بل جاء نتيجة لأنّه مكمل لمشروع الهداية من باب الولي أو الوصي، فضلاً عن كونه إماماً معصوماً مفترض الطاعة، كان عليه أن يؤسّس لأفكار صحيحة في ظلّ تواجده في مدينة البصرة، وهذا ما جعله يتّبع سياسة العفو والصفح والتجاوز عن المسيء، لحكمة: (العفو عند المقدرة).

وقد حاول الإمام عليه السلام أن يسوس أهل البصرة بطريقته الخاصّة، لا بطريقة من سبقه من الحكّام، أو الولاة؛ فقد وجد أنّ الأفكار المبتوثة في مدينة البصرة بعيدة عن التيار الثقافي الصحيح لوقائع التاريخ، أو التنشئة الفكرية لبعض أهل المدينة-البصرة- ما عمل جاهداً على تنقية فكرهم من تراكم الأفكار الخاطئة،

أو المقصودة، لمصلحة جهات رسمية مثلت الدولة الإسلامية، قد سبقته عليه السلام في حكم الدولة، فكانت البصرة جزءاً منها.

وقد حاول عليه السلام أن يترك بصمة رائعة جداً بخصوص التعامل بين طبقات المجتمع البصري؛ إذ أطلق لهم أكثر من فكرة تكشف لهم التدبر في أمور الحياة، وما بعد الممات، سواء كان المقصود طريقة اتباعهم الحق، أم نهجهم سبل النجاة، وتمييز الأفكار والأقوال الرديئة المتناقلة فيما بينهم، أو التي يسمعون بها من أطراف أخر تفد على مدينتهم.

الهوامش

- ١- يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: ٦/١٠٨-١٠٩.
- ٢- يُنظر: الجوهري، الصحاح: ٣/٣٩٨؛ وابن منظور، لسان العرب: ٦/١٠٨؛ والزبيدي، تاج العروس: ٨/٣٢٢؛ ويُنظر: باقر شريف القرشي، النظام السياسي في الإسلام: ص ٤٣.
- ٣- يُنظر: الطريحي، مجمع البحرين: ٢/٤٥٣.
- ٤- يُنظر: ابن الأثير: ٢/٤٢١.
- ٥- الإحكام: ٧/٩٨٧.
- ٦- ابن خلدون، تاريخ: ١/١٤٣.
- ٧- قيل: الفرق بين السياسة والتدبير، أنَّ السياسة في التدبير المستمر، ولا يُقال للتدبير الواحد سياسة، فكُل سياسة تدبير، وليس كُل تدبير سياسة. أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: ص ٢٨٨.
- ٨- محمد حسين الحاج، حقوق آل البيت (عليه السلام): ص ٩٦.
- ٩- يُنظر: باقر شريف القرشي، النظام السياسي في الإسلام: ص ٥٧.
- ١٠- يُنظر: عبد الرضا الزبيدي، الرسائل السياسية بين الإمام عليٍّ ومعاوية: ص ١٥.
- ١١- هذه إشارة إلى السياسة الغربية البعيدة عن سياسة الإسلام، ولمْ نرغب في التعمق فيها بقدر توضيح اختلافها مع سياسة الإسلام في العهود الأولى.
- ١٢- يُنظر: الكليني، الكافي: ٥/٣٣؛ والصدوق، علل الشرائع: ١/١٥٠.
- ١٣- يُنظر: عبد الرضا الزبيدي، الرسائل السياسية بين الإمام عليٍّ ومعاوية: ص ٣٠.
- ١٤- يُنظر: علي خان، التدوين في السياسة والعمل السياسي: ص ٢٩.
- ١٥- لقد تأثر الإمام عليٍّ (عليه السلام) عندما علم بما لقيته ربيعة في البصرة، وخروج عبد القيس عنها. للتفصيل، يُنظر: الطبري، تاريخ: ٣/٤٩٦؛ والمجلسي، بحار الأنوار: ٣/١٨.

- ١٦- كليب الجرهمي: هو كليب بن شهاب، الجرهمي، من بني قضاعة، عدّ من الصحابة، وقيل: إنّه من تابعي البصرة، وقيل: إنّه كان من الثقات، ويُستحسن حديثه، وحَدَّث عن الإمام عليٍّ (عليه السلام) بعض الروايات التاريخية، يُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: ١٢٣/٦؛ والعجلي، معرفة الثقات: ٢/٢٢٨؛ وابن عبد البر، الاستيعاب: ٣/١٣٢٩.
- ١٧- قطب الدّين الرّاوندي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ٢/١٤٥-١٤٦؛ وابن حمدون، التذكرة الحمدونية: ٧/١٦٢-١٦٢.
- ١٨- يُنظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/٢٢-٢٣.
- ١٩- محمد الرّيشهري، ميزان الحكمة: ٢/١٣٨٥.
- ٢٠- يُنظر: محمد حسين الحاج، حقوق آل البيت (عليهم السلام): ص ٩٨.
- ٢١- شرح نهج البلاغة: ١٠/٣٥٨.
- ٢٢- الجاحظ، الرّسائل السّياسيّة: ص ٣٦٦.
- ٢٣- يُنظر: علي نجيب عطوي، الكميت بن زيد الأسدي: ص ٩٣.
- ٢٤- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢/١٩٧؛ ويُنظر: جواد كاظم النّصر الله، شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، رؤية اعتزاليّة عن الإمام عليٍّ (عليه السلام): ص ٣٧٣.
- ٢٥- البيهقي، تاريخ: ٢/١٢٧؛ ويُنظر: المسعودي، مروج الذهب: ٣/١٠٧.
- ٢٦- العلامة الحليّ، مختلف الشّيعه: ٤/٤٥١.
- ٢٧- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠/٣٦٤.
- ٢٨- يُنظر: القاضي نعمان، دعائم الإسلام: ١/٣٩٤.
- ٢٩- يُنظر: ابن إدريس الحليّ، السّرائر: ٢/١٦.
- ٣٠- يُنظر: المفيد، الجمل: ص ٢١٧.
- ٣١- القاضي نعمان، دعائم الإسلام: ١/٣٩٥؛ ويُنظر: محمد باقر المحمودي، نهج السّعادة: ١/٣٢٨.
- ٣٢- القاضي نعمان، دعائم الإسلام: ١/٣٩٥.
- ٣٣- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠/٢١٢.
- ٣٤- يُنظر: أحمد الرّحمانيّ الهمدانيّ، الإمام عليّ بن أبي طالب: ص ٦٩٢.
- ٣٥- يُنظر: ابن عابدين، حاشية ردّ المحتار: ٤/٢٤٥.

- ٣٦- يُنظر: القاضي نعمان، شرح الأخبار: ١٠٥ / ٢.
- ٣٧- ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٢٢٧ / ١؛ والخوئي، معجم رجال الحديث: ٨٨ / ١٥.
- ٣٨- قنبر: مولى أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام)، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي؛ بسبب حبه للإمام عليّ (عليه السلام)، ذكرت له رواية عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، يُنظر: ابن داوود، الرجال: ص ١٥٤، والخوئي، معجم رجال الحديث: ٨٧ / ١٥.
- ٣٩- ابن حزم، الفصل في الملل: ١٨٦ / ٤.
- ٤٠- ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٢٢٧ / ١.
- ٤١- الفصل في الملل: ١٨٦ / ٤.
- ٤٢- يُنظر: ابن حزم، الفصل في الملل: ١٨٦ / ٤؛ والطوسي، اختيار معرفة الرجال: ٢٨٨ / ١؛ وابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٢٢٧ / ١؛ والمجلسي، بحار الأنوار: ٢٨٥ / ٢٥.
- ٤٣- المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي (عليه السلام)، الشيخ علي الكوراني: ١٠٤٥.
- ٤٤- في التمهيد: ٣١٧ / ٥.
- ٤٥- المفيد، الأمالي: ص ٥؛ والطوسي، الأمالي: ص ٢٢٦؛ ومحمد بن علي الطبري، بشارة المصطفى: ص ٢٢. وهذا القول قاله الإمام (عليه السلام) للحارث الهمداني، والد شريك الحارثي بمسجد البصرة.
- ٤٦- لم أعثر على ترجمة له.
- ٤٧- البلاذري، أنساب الأشراف: ٢٣٨-٢٣٩؛ واليعقوبي، تاريخ: ٢١٠ / ٢.
- ٤٨- يُنظر: حامد حفني داوود، نظرات في الكتب الخالدة: ص ٤٧.
- ٤٩- البلاذري، أنساب الأشراف: ٣٦٢ / ١.
- ٥٠- العقاد، عباس محمود، موسوعة العقاد: ١١٦ / ٢.
- ٥١- يُنظر: خطبة الإمام عليّ، المفيد، الإرشاد: ص ١٩٧.
- ٥٢- يُنظر: الثقفي، الغارات: ١ / ٣٣٠-٣٣١؛ وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٢٧ / ٣.
- ٥٣- القاضي النعمان، شرح الأخبار: ٢٩٠ / ٢.

- ٥٤- القاضي النعمان، شرح الأخبار: ٢/ ٢٩١.
- ٥٥- يُنظر: القاضي النعمان، شرح الأخبار: ٢/ ٢٩٠.
- ٥٦- من سورة الذّاريات، الآية (٥٥).
- ٥٧- بحار الأنوار: ٣٢/ ٢٥٦.
- ٥٨- تنمّرك: تنمّر له، أي: تنكّر له وتغيّر. الجوهريّ. الصّحاح: ٢/ ٨٣٨.
- ٥٩- يوغم: وَغِمَ عليه بالكسر، أي: حَقَّدَ، والوغم، الثّرة، يُنظر: الجوهريّ، الصّحاح: ١٩٩٨/٥.
- ٦٠- الشّريف الرّضي، نهج البلاغة: ٣/ ١٨.
- ٦١- يُنظر: محمّد مهدي شمس الدّين، دراسات في نهج البلاغة: ص ٧٣.
- ٦٢- أبو حرب بن أبي الأسود الدّؤليّ: قيل: إنّ اسمه محجن، وقيل: اسمه عطاء، وقيل: إنّ عطاءً وأبا حربٍ اثنان؛ إذ يُذكر بهذا الشّأن أنّه ولد لأبي الأسود عطاء وأبو حرب، ولا عقب لعطاء، وكان أبو حرب بصريّاً، عاقلاً، شاعراً، له عقب في مدينة البصرة، ولّاه الحجاج ابن يوسف الثّقفيّ في أيام ولايته على العراق (جوخا-نهر)، عليها كورة واسعة في سواد بغداد، فلم يزل عليها حتّى مات الحجاج، ويُقال: إنّّه كان كريماً، يُقدّم المساعدة للمحتاجين، مات سنة (١٠٨، أو ١٠٩هـ)، يُنظر: ابن قتيبة، المعارف: ص ٤٣٥؛ والذهبيّ، العبر في خبر من غبر: ١/ ١٣٤.
- ٦٣- أضرب به: معناه: استهزأ به. الجوهريّ، الصّحاح: ٣/ ١١٤٠.
- ٦٤- محمّد بن سليمان الكوفيّ، مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ٢/ ٥٥.
- ٦٥- البلاذريّ، أنساب الأشراف: ١/ ٣٧١.
- ٦٦- يُنظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/ ١٨٧.
- ٦٧- طمره: طمر: جمع أطمار، والطّمر الثّوب الحلق البالي. الجوهريّ، الصّحاح: ٧٢٦/٢.
- ٦٨- الشّريف الرّضي، نهج البلاغة: ٣/ ٧٠.
- ٦٩- هي معاذة العدويّة بنت عبد الله، امرأة صِلَة بن أشيم، وهي من أهل البصرة، أمّ الصّهباء، روي عنها في كتب الصّحاح وكتب الحديث الأخر بعض الأحاديث والرّوايات التّاريخيّة، وقيل: إنّها كانت من العابدات، وحديثها يُحتجّ به، تُوفيت على رواية سنة (٨٣هـ)،

يُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٨/ ٤٨٣؛ والذهبي، الكاشف في معرفة مَنْ له رواية في الكتب الستة: ٥١٧/٢.

٧٠- الجاحظ، العثمانية: ص ٢٩٠؛ وابن قتيبة، المعارف: ص ١٦٩؛ والبلاذري، أنساب الأشراف: ٢/ ١٤٦؛ والعقيلي، الضعفاء: ٢/ ١٣١؛ وعبد الله بن عدي، الكامل: ٣/ ٢٤٧؛ والمفيد، أوائل المقالات: ١/ ٣١؛ وابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ٤٢/ ٣٣؛ وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٢٨؛ والمزي، تهذيب الكمال: ١٢/ ١٨؛ والذهبي، المغني في الضعفاء: ١/ ٤٤٠؛ وابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ٣٧٠؛ وابن حجر، تهذيب التهذيب: ١٧٩/٤.

٧١- يُنظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٢/ ٢٧٠.

٧٢- المفيد، الإرشاد: ١/ ٢٥٤.

٧٣- ابن شاذان، الفضائل: ص ٩٨.

٧٤- أصبغ بن نباتة الحنظلي: أبو القاسم، المجاشعي، الدارمي، الكوفي، مِنْ خواص أمير المؤمنين عليٍّ (عليه السلام)، سَمِعَ منه، وروى عنه، ومن الوجوه البارزة بين أصحابه، وأحد ثقاته، وهو مشهورٌ بثنائه واستقامته على حبه، وصَفَتْهُ النُّصوص التاريخية القديمة بأنه شيعيٌّ. كان مِنْ شرطة الخميس، ومنْ أمرائهم، عاهد الإمام (عليه السلام) على التَّضحية والفداء والاستشهاد، وشهد معه الجمل، وصَفَيْن، وكان معدوداً في أنصاره الأوفياء المخلصين، له كتاب (مقتل الحسين (عليه السلام))، قيل: إنَّه عُمِّرَ حتَّى كانت وفاته في القرن الثاني من الهجرة، يُنظر: البخاري، التاريخ الكبير: ٢/ ٣٥؛ ومحسن الأمين، أعيان الشيعة: ٣/ ٤٦٤.

٧٥- من سورة النساء، الآية (٦٩).

٧٦- الكليني، الكافي: ١/ ٤٥٠.

٧٧- يُنظر في ذلك: الواقدي، المغازي: ١/ ٢٥٦.

٧٨- يُنظر: الميَّاحي، شكري ناصر، الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، دراسة في فكره العسكري: ص ٧٩-٨٨.

٧٩- الطبري، تاريخ: ٣/ ٥٤٤؛ ومسكويه، تجارب الأمم: ١/ ٥٠٥.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأولية

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير، مجد الدين، أبو السَّعادات المبارك بن محمد، الجزريّ (ت ٦٠٦هـ / ١٢١٠م).
- ١- النّهاية في غريب الحديث، تح: طاهر أحمد الزّاوي، محمود الطناحيّ، مطبعة مؤسّسة إسماعيليان، ط ٤، قم، ١٩٤٥م.
- البخاريّ، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، الجعفيّ (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م).
- ٢- التّاريخ الكبير، نشر المكتبة الإسلاميّة، ديار بكرى، تركيا، (د.ت).
- البلاذريّ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م).
- ٣- أنساب الأشراف، تح: سهيل زكار، رياض زركلي، ط ١، بيروت، ١٩٩٧م.
- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م).
- ٤- العثمانيّة، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة دار الكتاب العربيّ، مصر، ١٩٥٥م.
- الجوهريّ، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م).
- ٥- الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة، مطبعة دار العلم للملايين، ط ٤، بيروت، ١٩٨٧م.
- ابن حجر، شهاب الدّين العسقلانيّ (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م).
- ٦- تهذيب التّهذيب، ط ١، ١٩٨٤م.
- ابن أبي الحديد، عزّ الدّين، أبو حامد، عبد الحميد بن هبة الله، المدائنيّ (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م).
- ٧- شرح نهج البلاغة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار أحياء التّراث العربيّ،

- عيسى الباي الحليّ وشركاؤه، ط ١، ١٩٧٨ م).
- ابن حزم، أبو محمد، عليّ بن أحمد الظاهريّ (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤ م).
- ٨- الإحكام في أصول الأحكام، تح: أحمد شاكر، مطبعة العاصمة، القاهرة، (د.ت).
- ٩- الفصل في الملل والأهواء والنحل، مطبعة التمدّن، ط ١، ١٩٠٨ م.
- ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن عليّ (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦ م).
- ١٠- التذكرة الحمدونيّة، تح: إحسان عبّاس، بكر عبّاس، ط ١، ١٩٩٦ م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الحضرميّ، المغربيّ (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦ م).
- ١١- تاريخ ابن خلدون، ط ٤، بيروت، (د.ت).
- ابن داود، أبو بكر، تقيّ الدين، الحسن بن عليّ، الحليّ (ت ٧٠٧هـ / ١٣٠٧ م).
- ١٢- رجال ابن داود، تح: محمد طارق آل بحر العلوم، مطبعة الحيدريّة، النجف الأشرف، ١٩٧٢ م.
- الذهبيّ، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ).
- ١٣- العبر في خبر منّ غبر، تح: فؤاد سيّد، الكويت، ١٩٦١ م.
- ١٤- الكشف في معرفة منّ له رواية في الكتب الستّة، تقديم وتعليق وتخرّيج: محمد عوامة، أحمد محمد نمر الخطيب، ط ١، ١٩٩٢ م.
- ١٥- المغني في الضعفاء، تح: أبي الزّهاء حازم القاضي، ط ١، ١٩٩٧ م.
- الزبيديّ، محمد مرتضى، الحسنيّ، الواسطيّ، الحنفيّ (ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠ م).
- ١٦- تاج العروس من جواهر القاموس، مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).
- ابن سعد، محمد بن منيع، الزّهرّيّ (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٥ م).
- ١٧- الطّبقات الكبرى، مطبعة دار صادر، بيروت، (د.ت).
- الشّريف الرّضي، أبو الحسن، محمد بن الحسين بن موسى (ت ٤٠٦هـ / ١٠١٥ م).
- ١٨- نهج البلاغة، تح: محمد عبده، مطبعة دار المعارف، بيروت، (د.ت).
- شكري ناصر الميّاحيّ، (معاصر).
- ١٩- الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، دراسة في فكره العسكريّ، ط ١، دار الفيحاء، بيروت، ٢٠١٣ م.
- ابن شهر آشوب المازندرانيّ، رشيد الدين، أبو عبد الله، محمد بن عليّ بن أبي نصر بن أبي

- الجيش، السروي (ت ٥٨٨هـ / ١١٩٢م).
- ٢٠- مناقب آل أبي طالب، تح: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، مطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٩٦م.
- الصدوق، أبو جعفر، محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه، القمي (ت ٣٨١هـ / ٩٣٠م).
- ٢١- علل الشرائع، تح: محمد صادق بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٦م.
- الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (٣١٠هـ / ٩٢٢م).
- ٢٢- تاريخ الطبري، تح: نخبة من العلماء الأجلاء، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٣٩م.
- الطريحي، الشيخ فخر الدين (ت ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م).
- ٢٣- مجمع البحرين، تح: أحمد الحسيني، ط ٢، ١٩٨٨م.
- الطوسي، الشيخ أبو جعفر، محمد بن الحسن بن علي (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م).
- ٢٤- اختيار معرفة الرجال، تح: مهدي الرجائي، مطبعة بعثت، قم، ١٩٨٤م.
- ٢٥- الأمالي، تح: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، ط ١، قم، ١٩٩٤م.
- ابن عابدين، محمد أمين (ت ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م).
- ٢٦- حاشية رد المحتار، إشراف: مكتب البحوث والدراسات، مطبعة الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- عبد الله بن عدي، أبو أحمد (ت ٣٦٥هـ / ٩٧٦م).
- ٢٧- الكامل في ضعفاء الرجال، تح: سهيل زكار، مطبعة دار الفكر، ط ٣، بيروت، ١٩٨٩م.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد، النمر، الأندلسي (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م).
- ٢٨- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: علي محمد البجاوي، مطبعة دار الجيل، ط ١، بيروت، ١٩٩٢م.
- ٢٩- التمهيد، تح: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، مطبعة المغرب، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٣٨٧هـ.
- ابن عساكر، أبو القاسم، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله، الشافعي (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م).

- ٣٠- تاريخ مدينة دمشق، تح: علي شيري، مطبعة دار الفكر، ط ١، بيروت، ١٩٩٢ م.
- العقيلي، أبو جعفر، محمد بن عمرو بن موسى بن حماد، المكي (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م).
- ٣١- الضعفاء، تح: عبد المعطي أمين قلعجي، مطبعة دار الكتب العلمية، ط ٣، بيروت، ١٩٩٨ م.
- العلامة الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م).
- ٣٢- مختلف الشيعة، تح: لجنة التأليف، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط ١، قم، ١٩٩٣ م.
- القاضي النعمان، أبو حنيفة بن محمد، التميمي، المغربي (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٤م).
- ٣٣- دعائم الإسلام، تح: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٣ م.
- ٣٤- شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، تح: محمد الحسيني الجلاي، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، قم، (د.ت).
- ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م).
- ٣٥- المعارف، تح: ثروت عكاشة، مطبعة دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
- قطب الدين الراوندي، أبو الحسين، سعيد بن هبة الله (ت ٥٧٣هـ / ١١٨٥م).
- ٣٦- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تح: عبد اللطيف الكوهكمري، مطبعة الخيام، قم، ١٩٨٣ م.
- ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل، الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م).
- ٣٧- البداية والنهاية، مطبعة دار إحياء التراث العربي، ط ١، بيروت، ١٩٨٨ م.
- الكليني، أبو جعفر، محمد بن يعقوب بن إسحاق، الرازي (ت ٣٢٩هـ / ٩٤١م).
- ٣٨- الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، المطبعة الحيدرية، ط ٣، تهران، ٢٠٠٩ م.
- الكوفي، محمد بن سليمان (ت بعد ٣٠٠هـ / ٩١٣م).
- ٣٩- مناقب الإمام أمير المؤمنين، تح: محمد باقر المحمودي، مطبعة النهضة، ط ١، قم، ١٩٩٢ م.
- المجلسي، العلامة محمد باقر (ت ١١١١هـ / ١٧٠٠م).
- ٤٠- بحار الأنوار، مطبعة مؤسسة الوفاء، ط ٢، بيروت، ١٩٨٣ م.

- المزي، جمال الدين، أبو الحجاج يوسف (ت ١٣٤٢هـ / ١٣٤١م).
- ٤١- تهذيب الكمال، تح: بشّار عوّاد معروف، ط ٤، بيروت، ١٩٨٦م.
- المسعودي، عليّ بن الحسين بن عليّ (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م).
- ٤٢- التنبيه والإشراف، دار صعب، بيروت، (د.ت).
- ٤٣- مروج الذهب ومعادن الجوهر، مطبعة شريعت، ط ١، ٢٠٠٢م.
- مسكويه، أبو عليّ، أحمد بن محمد مسكويه، الرّازي (٤٢١هـ / ١٠٣٠م).
- ٤٤- تجارب الأمم، تح: أبو القاسم إمامي، مطبعة دار سروش، ط ١، ٢٠٠١م.
- المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، العكبري، البغدادي (ت ٤١٣هـ / ١٠٢٢م).
- ٤٥- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، مطبعة السّور، ط ١، إيران، ٢٠٠٧م.
- ٤٦- الأمالي، تح: حسين الأستاذي، علي أكبر غفاري، ط ٢، ١٩٩٤م.
- ٤٧- أوائل المقالات، تح: الشّيخ إبراهيم الأنصاري، ط ٢، ١٩٩٣م.
- ابن منظور، أبو الفضل، جمال الدين، محمد بن مكرم، الأفرقي، المصري (ت ٧١١هـ / ١٣١١م).
- ٤٨- لسان العرب، مطبعة دار إحياء التّراث العربي، ط ١، قم، ١٩٨٥م.
- الواقدي، أبو عبد الله، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٢م).
- ٤٩- المغازي، تح: مارسدن جونز، نشر دانس إسلامي، ١٩٨٤م.
- ابن هشام، أبو محمد، عبد الملك بن هشام بن أيّوب، الحميري (ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م).
- ٥٠- السّيرة النبويّة، تح: محمد محيي الدّين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٣م.
- اليعقوبي، أبو يعقوب، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح، البغدادي (ت ٢٩٢هـ / ٩٠٤م).
- ٥١- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، (د.ت).

ثانياً: المراجع

- الأمين، محسن.
- ٥٢- أعيان الشّيعه، تح: حسن الأمين، مطبعة دار المعارف، بيروت، ١٩٨٣م.
- الحاج، محمد حسين.
- ٥٣- حقوق آل البيت، تح: جعفر السّبحاني، مطبعة مهر، ط ١، ١٩٩٥م.

- الخوئي، أبو القاسم الموسوي.
٥٤- معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، تح: لجنة التحقيق، ط ٥، ١٩٩٣ م.
- داود، حامد حفني.
٥٥- نظرات في الكتب الخالدة، تح: مرتضى الرضوي، مطبعة دار العلم، ط ١، القاهرة، ١٩٧٩ م.
- الزبيدي، عبد الرضا.
٥٦- الرسائل السياسية بين الإمام علي ومعاوية، مطبعة أمير، ط ١، قم، ٢٠٠٠ م.
- شمس الدين، محمد مهدي.
٥٧- دراسات في نهج البلاغة، مطبعة دار الزهراء، ط ٢، بيروت، ١٩٧٢ م.
- العقّاد، عباس محمود.
٥٨- موسوعة أعمال عباس محمود العقّاد، العبقريات الإسلامية، ط ٢، بيروت، ١٩٩١ م.
- علي خان، عبد الله.
٥٩- التدوين في السياسة والعمل السياسي، مطبعة دار البيان العربي، ط ١، بيروت، ١٩٩٠ م.
- القرشي، باقر شريف.
٦٠- النظام السياسي في الإسلام، مطبعة دار المعارف، ط ٢، بيروت، ١٩٧٨ م.
- الكوراني، الشيخ علي (معاصر).
٦٢- المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي (ع)، ط ١، (د.مط)، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.
- المحمودي، محمد باقر.
٦٣- نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، مطبعة النعمان، ط ١، النجف الأشرف، ١٩٦٦ م.
- النصر الله، جواد كاظم.
٦٤- شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، رؤية اعتزالية عن الإمام (عليه السلام)، ط ١، طهران، ٢٠٠٤ م.
- الهمداني، أحمد الرحمان.
٦٥- الإمام علي بن أبي طالب، مطبعة أفست فتّاحي، ط ١، تهران، ١٩٩٧ م.

مِهْنُ السُّوقِ فِي الْبَصْرَةِ
فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الْأَوَّلِ
(١٣٢-٢٣٢هـ / ٧٥٠-٩٤٥م)

Market Professions in Basrah
in the First Abbasid Era
(132-232 AH / 750-846 AD)

أ.د. عبد الحكيم غنتاب الكعبي
جامعة البصرة/ مركز دراسات البصرة والخليج العربيّ

Professor. Dr. Abdul Hakim G. Al Kaabi

Basrah and Arabian Gulf Studies Centre/University of Basrah

ملخص البحث

شَهِدَ النِّشاطُ التِّجاريُّ في العراق في العصر العباسيَّ الأوَّلَ ازدهاراً كبيراً، وخاصةً عن طريق الخليج العربيِّ، وظهرتْ في أسواق البصرة طبقات نشِطة من العاملين في هذا الميدان، وفي مقدِّمتهم التِّجار الذين كانوا يُعدُّونَ من (العامة)، ثم طرأ تطوُّر في النظرة إليهم خلال هذا العصر، فعُدَّ بعضهم نتيجة لتعاظم ثرواتهم من طبقة (الخاصة)، وكانوا يُصنِّفونَ إلى ثلاثة أصناف، هي: التَّاجر الخزان (أي: تاجر الجملة)، والتَّاجر المجهِّز، والتَّاجر الرِّكَّاض.

أمَّا الباعة، فينقسمونَ على قسمين: الباعة الثَّابتون، وهم أصحاب الدكاكين في الخانات والأسواق، والباعة المتجولون. وتضمُّ فئة الباعة ومن يتصل بهم من المجهِّزين والصُّنَّاع، وأصنافاً أُخر كثيرة من العاملين في السُّوق يُشار إليهم عادة بمصطلحات: (أهل المهن)، أو (الأصناف)، أو (أهل الصِّنائع)، فضلاً عن فئة مهنيَّة أخرى مهمَّة في السُّوق هي فئة الوسطاء (السَّاسرة).

Abstract

The commercial movement in Iraq witnessed noticeable prosperity during the first Abbasid era, particularly via the Arab Gulf. Basrah markets witnessed active stratum of workers in this field, especially those dealers who belong to the public class of society. But later on some of those dealers used to be regarded as a special class due to their growing wealth. They used to be divided into three classes: the wholesalers, the suppliers and the mobile dealers or the bagmen. On the other hand, sellers were classified into: stable sellers who own shops in the different markets and hawkers or peddlers. This group of sellers and those connected with them, suppliers and manufacturers, usually identified by the terms like 'the professionals' or 'craftsmen' in addition to another important market profession known as 'the brokers'

مقدمة

لم يترك لنا المؤرّخون العرب تصوّراً واضحاً عن أحوال العامة من التّجار وأصحاب الحرف والمهن في الأسواق وظروف معيشتهم وأحوالهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة؛ ذلك أنّ جلّ اهتمامهم كان قد انصبّ - كما هو معروف - على تدوين شؤون دار الخلافة، وحوادث السياسة والحروب، وأسهبوا في ذكر ترف الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدّولة والحاشية، إلّا أنّه من الممكن - ومن خلال عددٍ من الرّوايات والنّصوص المتناثرة في المصادر - رسم الخطوط العريضة لطبيعة تلك المهن التي مارسها العامة في الأسواق العراقيّة عامّة، وفي أسواق البصرة على وجه الخصوص، بوصفها المدينة التجاريّة الأولى في العراق والمنطقة، وطبيعة نشاطهم وأجورهم وظروف معيشتهم.

ومن المعروف أنّ الإسلام عندما ظهر في الحجاز شجّع النشاط التجاريّ وباركه، وزكّى الحرف والمهن^(١)، إلّا أنّه في القرن الأوّل الهجريّ/ السّابع الميلاديّ - الذي كان يُعدُّ عصر فتوح وحروب - لم تكن النظرة إلى التّجارة والتّجار، وإلى أصحاب الحرف والمهن، واضحةً فيه، فقد انصرف مُعظم العرب الذين دخلوا الإسلام في هذا القرن إلى الانخراط في حركة الفتوح التي انساحت شرقاً وغرباً، ما أتاح الفرصة للعناصر غير العربيّة ولأهل الدّمة في ممارسة

التجارة في كنف الدولة الإسلامية على نطاقٍ واسعٍ، وعندما استولى الأمويون على منصب الخلافة الإسلامية (٤٠-١٣٢هـ / ٦٦٠-٧٤٩م)، لم تكن نظرهم إلى التاجر تتسم بعين التقدير، ولم نجد لطبقة التجار ولأصحاب المهن في السوق شأنًا كبيراً في تاريخهم، وهكذا كان عليه الحال في بداية قيام الدولة العباسية^(٢).

- أهم أسواق البصرة

أسواق البصرة التجارية الكبيرة التي ذكرتها المصادر أربعة أسواق، هي: سوق المربد، وسوق الكلاء، والسوق الكبير، وسوق باب الجامع - أو باب عثمان.

أ- سوق المربد

لم يشتهر سوق في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط كما اشتهر المربد، فقد وُصف بعُكاظ العرب في الإسلام، وقيل فيه: «العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة»^(٣)، وذهب البعض إلى القول: «لم تكن البصرة في نظر العرب شيئاً لولا المربد»^(٤)، فهو المركز التجاري العظيم، وهو المركز الثقافي العظيم - أيضاً -، ملتقى طرق التجارة البرية ومجمع الحجاج، فيه أشهر محلات البصرة وأسواقها وصناعاتها، وفيه تنتظم حلقات الشعراء، وبه يلتقي اللغويون بالأعراب لتلقف الفصاحة شفاهاً^(٥)، وهو من جانب آخر ساحة من ساحات الحروب، فقد كان مسرحاً لأكبر فتنة في التاريخ العربي الإسلامي، لقد كان باختصار ميدان أدب وتجارة وحرب، وهو مرآة عكست حياة العرب قبل الإسلام، وصورت حضارتهم في الإسلام، واستطاع أن يصهر الحياتين معاً في

بوتقة واحدة، وصاغ منها تلك الحلية العجيبة^(٦).

أصبح للمربد دورٌ حيويٌّ في نشاط البصرة الاقتصاديّ، وفي تدعيم مكانتها التجارية على مدى القرون الثلاثة الأولى للهجرة، فقد كان مركز التجارة البريّة، ومحطّة وقوف القوافل المغادرة والقادمة من وإلى البصرة^(٧). وقد مرّ ظهوره وتطوّره بعدّة مراحل، فقد نشأ محطّةً للبدو يبيعون فيه الجمال عند الباب الغربيّ للبصرة^(٨)، ثمّ تطوّر بسرعةٍ حتّى أصبح في نهاية العصر الإسلاميّ الأوّل سوقاً تباع فيه التّمور والأسلحة والجمال وغنائم الحرب^(٩). وفي العصر الأمويّ، وبعد أن ظهرت الميول والأهواء والتيارات السياسيّة والفكريّة أصبح المربد نادياً سياسياً يتبارى فيه كبار الشعراء، فتغنّى فيه جرير والأخطل بأعجاد الأمويّين، وتغنّى فيه الفرزدق بشرف البيت الهاشميّ، وتجتمع فيه وفود القبائل لحضور تلك المنافرات الأدبيّة^(١٠)، في الوقت نفسه الذي أصبح فيه ملتقى التبادل البضائعيّ بين أهل البصرة وسكّان الصّحراء الغربيّة المجاورة التي كوّن البصريّون مع أهلها أقدم علاقاتهم التجاريّة^(١١).

ب- سوق باب الجامع

ويُسمّى -أيضاً- (سوق باب عثمان) نسبة إلى (عثمان بن أبي العاص الثقفي) (ت ٥٥هـ / ٦٧٥م)، وكان في الأصل مجرد دار يملكها (عبد الله بن عامر)، وهبها بدوره إلى عثمان الثقفي^(١٢)، اشتراها منه عبيد الله بن زياد، وأعاد بناءها، وسمّاها (البيضاء)^(١٣)، ثمّ صارت سوقاً يُدعى (سوق باب الجامع)^(١٤)؛ لأنّه يقع أمام المسجد الجامع من جهته الشماليّة الغربيّة، وتنتشر محلات هذا السوق بمحاذاة سكّة المربد المعروفة^(١٥)، وكان مركزاً تجارياً واسعاً يحتوي على عددٍ من الأسواق

الصَّغِيرَةِ الْمُتَخَصِّصَةِ، أشهرها سوق الرِّقِيق (سوق النخَّاسين) الذَّائِعُ الصَّيْتُ؛ إِذْ يُبَاعُ الْعَبِيدُ^(١٦) وَالْجَوَارِي^(١٧) فِيهِ، وَهَنَّاكَ بَاعَةُ الدَّقِيقِ وَالْكَتَبِ وَالْأَقْمِشَةِ وَغَيْرَهَا^(١٨)، كَمَا يَوْجَدُ فِيهِ سَوَاقٌ لِلصَّرَافِينَ^(١٩).

ج- السُّوقُ الْكَبِيرُ

وَيُعْرَفُ كَذَلِكَ بِاسْمِ (سوق نهر بلال)^(*)؛ لِأَنَّهُ يَمْتَدُّ عَلَى جَانِبِي هَذَا النَّهْرِ، فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَلْتَقِي فِيهِ نَهْرُ مَعْقِلِ بَنْهَرِ ابْنِ عَمْرٍ، وَهَذَا الْمَوْقِعُ أَعْطَاهُ أَهْمِيَّةٌ تِجَارِيَّةٌ كَبِيرَةٌ؛ لِأَنَّهُ يَقَعُ فِي نَهَايَةِ الطَّرِيقِ التِّجَارِيِّ بَيْنَ بَغْدَادَ وَالْبَصْرَةِ، كَمَا أَعْطَاهُ مَجَالًا لِلتَّوَسُّعِ حَتَّى أَصْبَحَ فِيهَا بَعْدَ يَضْمِّ أَكْثَرِ أَسْوَاقِ الْبَصْرَةِ حَيَوِيَّةً وَشَهْرَةً، وَكَانَ أَهْمُهَا سَوَاقُ الصَّيْرِفَةِ، وَهُوَ وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَسْوَاقٍ تَقُومُ بِأَعْمَالِ الصَّيْرِفَةِ فِي الْمَدِينَةِ^(٢٠)، وَهَنَّاكَ (سوق البلّوريين)، وَهُمْ صَنَّاغُ الرَّجَاجِ الَّذِي تُجْلَبُ مَوَادُّهُ الْأَوَّلِيَّةُ مِنْ جَزْرِ الْمَحِيطِ الْهِنْدِيِّ، وَتُصْنَعُ مِنْهُ الْقَوَارِيرُ وَالْأَوَانِي وَالْأَفْدَاحُ^(٢١)، وَكَانَ صَانِعُو الرَّجَاجِ فِي الْبَصْرَةِ يَتَمَتَّعُونَ بِشَهْرَةٍ وَاسِعَةٍ فِي الْعَصْرِ الْوَسِيطِ، وَقَدْ اسْتَعَانَ بِهِمُ الْمُعْتَصِمُ الْعَبَّاسِيُّ (٢١٨-٢٢٧هـ) عِنْدَمَا شَرَعَ بِبِنَاءِ سَامِرَاءَ سَنَةَ (٢٢٠هـ)^(٢٢). وَيَوْجَدُ فِي هَذَا السُّوقِ-أَيْضًا- بَاعَةُ اللَّؤْلُؤِ وَالْحَلِيِّ وَالْمَجْوَهَرَاتِ وَالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ^(٢٣)، الَّتِي اسْتَهْرَتْ بِهَا تِجَارَةُ الْبَصْرَةِ، وَكَانَتْ مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ ازْدِهَارِهَا؛ لَمَّا تَحَقَّقَتْ مِنْ أَرْبَاحٍ وَفِيرَةٍ وَسَمِعَتْ تِجَارِيَّةً طَيِّبَةً، نَفَذَتْ إِلَى أَصْقَاعٍ بَعِيدَةٍ.

د- سوق الكلاء

يُعَدُّ هَذَا السُّوقُ مِنْ أَهَمِّ مَرَاغِي التِّجَارَةِ النَّهْرِيَّةِ فِي الْبَصْرَةِ، فَضْلًا عَنْ وَظِيفَتِهِ بِوَصْفِهِ سَوَاقًا وَمَرْكَزًا تِجَارِيًّا مُتَكَامِلًا، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعَةِ أَسْوَاقٍ تَمْتَدُّ عَلَى جَانِبِي (نهر الفيض)^(٢٤)، أَهْمُهَا: سوق العَلَّافِينَ (بَاعَةُ أَعْلَافِ الْمَاشِيَةِ)، وَبِهِ دَارُ

(أبي الهذيل العلاف)^(٢٥)، وإنّ باعة الحصر والتّمور والقصب والصناعات المعتمدة على سعف النّخيل يُمارسون نشاطهم قرب هذا السّوق^(٢٦). وهناك سوق القصابين، ويُسمّى (رُحبة القصابين)، وهو سوق كبير قرب قناة الفيض^(٢٧)، وبقره يقع سوق الأغنام التي نقلها (بلال بن أبي بردة) من باب عثمان إلى رحبة القصابين هذه^(٢٨).

وفضلاً عن المراكز التجاريّة المذكورة وأسواقها الثّانويّة المتفرّعة عنها، هناك عددٌ من الأسواق الصّغيرة المستقلّة، لمْ تنطرق إليها لقلّة أهمّيّتها في الفعاليّة التجاريّة، وهي أسواق يُمكن أنْ تُوجد في أيّ مدينة أو مركز حضريّ.

- مقدّمات النشاط التجاريّ في البصرة

بانتهاى عصر الفتوح، أيّ: في القرن الثاني من الهجرة/ الثامن الميلاديّ، اتّجه العرب الفاتحون- وخاصة في مدن العراق التجاريّة الكبرى (البصرة، والكوفة، وبغداد)- إلى الحياة المدنيّة، وإلى المشاركة في الفعاليّات الاقتصاديّة، وتمكّنت البصرة -بوصفها ميناء العراق الوحيد- من النهوض مجدّداً، حتّى بعد أنْ انقطع عن أهلها العطاء^(٢٩)، وأصبحتْ واردات المقاطعات المشرقيّة الغنيّة التابعة لها تُرسَل إلى العاصمة الجديدة بغداد، ونجحتْ البصرة في إنقاذ نفسها عن طريق النّشاط التجاريّ، مستفيدة من موقعها الجغرافيّ المطلّ على شمال الخليج (العربيّ)، ومنْ جهود وثروات أبنائها، فضلاً عن عوامل وظروف آخر محليّة ودوليّة.

في هذا العصر تبلور النّشاط التجاريّ، وبشكل خاصّ عن طريق الخليج

فالمحيط الهندي، ونهضت البصرة بدورٍ نشيطٍ في هذا الميدان، خاصّة بعد اتخاذ بغداد عاصمة للدولة العبّاسيّة، وبنائها على ضفاف دجلة سنة (١٤٥هـ / ٧٦٢م)، فتدفّقت إليها عن طريق البصرة وعبر نهري دجلة والفرات سلع التجارة الشرقيّة الغنيّة، حتّى أضحت بغداد -بعد وقتٍ قصيرٍ من إنشائها- عاصمة الدّنيا، وقلب العالم، والمدينة التجاريّة الأولى في عالم العصور الوسطى. ونتيجة لتلك التطوّرات، ساد أهل العراق -وفي مقدّمهم أهل البصرة- حبّ الاشتغال بالتجارة والتّرحال إلى أقاصي البلدان؛ طلباً للأرباح وانتقاء المتاجر الرّائجة، واشتهروا بالتطوّح في الآفاق البعيدة والتّرامي على الأسفار، حتّى قال الجاحظ عنهم: بأنّه «ليس في الأرض بلدة واسطة، ولا بادية شاسعة، ولا طرف من أطراف الدّنيا، إلّا وأنتَ واجدٌ فيه البصريّ...»^(٣٠)، ويقول ابن الفقيه الهمدانيّ: «... وأبعد النّاس نجعةً في الكسب بصريٌّ وحميريٌّ، ومَن دخل فرغانة القصوى (شرقاً)، والسّوس الأقصى (غرباً) فلا بدّ أن يرى فيهما بصريّاً أو حميريّاً»^(٣١).

ونقلت لنا حكايات ألف ليلة وليلة معلومات مفيدة عن التجارة والتّجار في العراق، وخاصّة تجار البصرة في العصر العبّاسيّ، على الرّغم من صور المبالغة والخيال التي فيها، فقد أشارت إلى أنّ التجارة أصبحت رمز الثّراء والغنى في عقلية العراقيّين، حتّى أنّ بعضهم لا ينجل من المشاركة بخمسة دراهم مع أحد كبار التّجار، وجلبت له هذه الدّراهم الثّراء الواسع^(٣٢)، كما ذكرت أنّ بعض كبار التّجار أمثال الشّيخ (أبي المظفر)، قد وصل بتجارته إلى الصّين^(٣٣). وورد -أيضاً- أنّ بعض ولاة الأمور في البصرة كانوا يهتمّون بالتّجارة، فامتلكوا المراكب، وأشرفوا على تجارتها، ولم تقتصر مواردهم على راتب الدّولة، بل

أصبحوا من كبار التجّار المعروفين^(٣٤)؛ ونظراً إلى أهميّة التجارة، أصبح للتّجار مكانة محترمة في المجتمع والدّولة^(٣٥)، وأشارت إحدى الحكايات إلى أنّ الخلافة العبّاسيّة احتاجت إلى خدمات أحد تجّار البصرة المعروفين، وهو أبو محمّد الكسلان^(٣٦).

- أرباح التجارة

ظهرت في البصرة طبقة من كبار التجّار الأثرياء الذين نجحوا في استثمار الأموال، وعقد الصّفقات التجاريّة الكبرى، وتهيئة مستلزماتها من السّلع ووسائل النقل وغيرها^(٣٧)، وتضخّمت الأموال والملكيّات في العراق حتّى عدّ التّاجر البصريّ من أغنى التجّار وأكثرهم كسباً^(٣٨)، من ذلك أنّ أحد تجّار المراكب في البصرة كان يملك (٢٠) مليون دينار، وآخر اسمه (الشّريف عمر) كان دخله في العام (٢،٥) مليون درهم^(٣٩)، وأنّ مقدار ما كانت تجبّيه الدّولة من تاجر واحد من تجّار البصرة كان بحدود (مائة ألف دينار) في العام^(٤٠)، بينما كان ربح تاجر آخر من تجّارها في اليوم الواحد (عشرين ألف درهم)^(٤١). وذُكر أنّ تاجراً من البصرة يُسمّى (حسن بن العبّاس) له مراكب تُبحر إلى الصّين والهند، بلغ ما يتحصّل من ضرائبها (مائة ألف دينار) في العام^(٤٢). وأنّ ابن سيرين عقد صفقة تجاريّة لشراء خشب السّاج من مناطق المحيط الهنديّ بلغت قيمتها (عشرين ألف درهم)، ودفع (ثمانين ألف درهم) في صفقة أخرى، واشترى مرّة زيتاً بأربعين ألف، ومات وعليه أربعون ألفاً^(٤٣)، وأنّ (يونس بن عبيد الله) دفع ثلاثين ألف درهم عن صفقة تجاريّة واحدة^(٤٤).

من جانبٍ آخر، وصل التَّاجِرُ البَصْرِيُّ إلى أبعد المناطق في المحيط الهندي كي يقوم بضروبٍ شتَّى من المتاجرة، وكانت الشُّحُنات الثَّمِينَةُ القادمة إلى ميناء البصرة تحقِّق أرباحاً طائلة؛ إذ كانت حمولة سفينة واحدة قادمة من الصِّين تُقدَّر بحدود نصف مليون دينار^(٤٥). وقد احتكرت بعض العوائل البصريَّة الملاحة وملكيَّة المراكب التجاريَّة، فيُذكر أنَّ أبا بكر أحمد السَّيرافي كان يمتلك معظم السُّفن التي كانت تُبحر إلى الهند والصِّين، كما كان يمتلك مخازن كبيرة للحبوب والعطريَّات، وكانت ثروته تُقدَّر بثلاثة ملايين دينار^(٤٦).

إنَّ المعلومات المتوافرة عن حجم التَّجارة البصريَّة وأرباحها -آنذاك- تظلُّ قليلة، ولا تمكِّننا من رسم صورةٍ دقيقةٍ عنها، وإنَّ المعلومات المتوافرة في المصادر والمقالات المشتَّنة التي نعثر عليها في هذا الشأن غالباً ما اتَّسمت بسمَّة خياليَّة متأثرة بحكايات ألف ليلة وليلة ومغامرات السَّندباد البحريِّ، وفيها الكثير من المبالغة^(٤٧)، وحتى لو افترضنا عدم وجود المبالغة في بعضها، فهي لا تُعطينا صورة كاملة عن تلك التَّجارة. ويُقدَّر الأستاذ (صالح أحمد العلي) حجم تجارات البصرة في القرن الأوَّل الهجريِّ -على سبيل المثال- بحدود مليون درهم سنوياً^(٤٨)، ولنا أن نتصوَّر حجم ما وصلت إليه أرباح التَّجارة العراقيَّة عموماً في العصر العبَّاسيِّ، خاصَّة بعد تأسيس بغداد، وبعد أن بلغت البصرة ذروة ازدهارها التَّجاريِّ في القرن الثالث الهجريِّ/التَّاسع الميلاديِّ، فضلاً عن ارتفاع مستوى المعيشة في العراق، وارتقاء المجتمع درجات مهمَّة في سلَّم التمدُّن والحضارة، وأصبح سوق السِّلَع الكماليَّة رائجاً بحكم أُبهة الدَّولة، وتعدَّد حاجات المجتمع، وصارت التَّجارة هي السيِّدة في البلاد^(٤٩).

وقد تفاوتت أرباح التجارة بحسب سلعتها، فالكماليّة منها يباح فيها الربح إلى (٣٠٠٪)، أمّا البضائع الأخرى، فلا يزيد الربح فيها على (٣٪)، وقد ردّد الفقهاء عند تعرّضهم لهذا الموضوع ما يدلّ على أنّ الربح (١٠٪) يُعدّ مألوفاً وعادياً^(٥٠).

- مهنة السوق

أولاً: التجّار

التجّار هم الذين يزاولون مهنة التجارة، وكانت كلمة (تاجر) - في أوّل أمرها - تدلّ على معنى محدود، وهو (بائع الخمر)، ثمّ اتّسع مدلول هذه الكلمة شيئاً فشيئاً، فشمل كلّ مَنْ يُزاول بيع وشراء أدوات التّرف الغالية الثّمن، كالمجوهرات، والريّاش، والثّياب الفاخرة، والرّقيق، وكان اعتمادهم في رواج تلك السّلع، بالدّرجة الأولى على: قصر الخلافة، وحاشية الخليفة، وكبار رجال الدّولة، والأغنياء؛ وهم بذلك يختلفون عن (الباعة) من حيث نوع البضاعة، ومن حيث نوعيّة (طبقة) النّاس الذين يجري عليهم تصريف البضاعة، فالباعة يتعاملون ببيع وشراء السّلع الاستهلاكيّة الصّوريّة حياة النّاس اليوميّة. من جانبٍ آخر، تختلف فئة التجّار عن فئةٍ أخرى ذات صلة بالنّشاط التجاريّ، وهم الدّلّالون أو (السّماسرة) الذين يدلّون المشتري على السّلع، ويدلّون البائع على الأثمان^(٥١). ويصنّف التجّار بحسب طبيعة تخصّصهم، أو طريقة ممارستهم هذه المهنة في السوق إلى ثلاثة أصناف، هي:

أ- التّاجر الخزّان: وهو تاجر الجملة، الذي يُحاول استغلال الفرص الملائمة، فيشتري البضائع وقت توافرها وكثرة عرضها ورخصها، ويعتمد إلى خزنها؛

انتظاراً لتغيّر أحوال السوق، فتتعدّم هذه البضاعة أو تصبح نادرة؛ بسبب انقطاع توريدها، أو تأخرها لصعوبة نقلها من مناشئها الأصليّة، أو ترتفع أسعارها لشدّة الطلب عليها في الأسواق، وعند ذلك يطرّحها للبيع، فتكون أرباحه كبيرة ومضمونة. وحتىّ يتجنّب هذا الصّنف من التّجار الخسارة التي تنجم عن تغيّر فجائيّ في الأسعار، يحتاج باستمرارٍ إلى معرفة أحوال السوق وأحوال البضائع في أماكنها من حيث أسعارها، ووفرته أو قلّتها، وظروف الطّرق، والأحوال السّياسيّة في بلده، وأنّ لا يغامر بشراء صفقة كبيرة دفعةً واحدةً، وإنّما يُحاول تقسيم مشترياته من البضاعة نفسها إلى دفعات، بين الواحدة والأخرى حدود الخمسة عشر يوماً، وأنّ يكون دقيقاً في تقدير أرباحه المتوقّعة. كما يستلزم منه هذا الحرص أن يدرس طبيعة الحاكم من حيث عدله أو جورّه، وقوّته أو ضعفه^(٥٢). وقد حدث في أيّام الخليفة العبّاسيّ الثّاني (أبي جعفر المنصور) أن رخصت الأسعار، ما دعا (أبا أيّوب التّاجر البغداديّ) أن يشتري طعام سواد الكوفة وسواد البصرة طمعاً في الرّبح، وقد كتب عليه المنصور كتاباً بذلك، وما زالت أسعار الموادّ في رخصٍ مستمرٍّ بدل أن يصعد السّعر أو يقف على الأقل، وقد أرقه المنصور بالمطالبة بالمال^(٥٣).

ب- التّاجر الرّكّاض: هذا الصّنف من التّجار ينتقل من بلدٍ إلى آخر، وهو في سفرٍ دائمٍ يتحمّل المصاعب ومخاطر الطّرق، وكان عليه أولاً أن يعرف نوع التّجارة التي يجب جلبها، وأنّ يحتاط فيها يشتري، وأنّ يصطحب معه دائماً قائمةً بأسعار البضائع التي ينوي شراءها، ويقارن عند الشّراء بين سعر السلعة وبين سعرها عنده في القائمة، ثمّ يُضيف إليها التّكاليف التي ستترتّب على البضاعة

لحين وصولها إلى السوق، بما في ذلك المكوس وأجور النقل والمدة التي يقضيها في الطريق ليحسب أرباحه بدقة. وعلى التاجر الرّكّاض إذا دخل بلدة لا يعرفها جيداً أن يفتش عن الوكيل المأمون، وأن يتفهم أحوال السوق؛ لئلا يورط نفسه، ويكون في ذلك قد أخذ بقول التجار: «التبصر نصف عطية»^(٥٤)، أو: «التدبير نصف التجارة»، وكان لمعظم هؤلاء التجار الخدم والمرافقون والحمايات، فقد ذكر الدمشقي: «أن التاجر إذا اشترى الأثقال، يحتاج إلى أن يكون معه أصحاب ثقات، وأعوان كُفّاء، يعينونه وقت الشراء، ووقت الحزم والحمل، ووقت التقلب والبيع، فإن كان وحيداً تأذى قلبه وجسمه، وطمع في سرقة ماله الحمالون والجمالون والبحريّة، وكلّ من يجري مجراهم ممن يحتاج إلى معونته بسببها في التنقل»^(٥٥).

ج- التاجر المجهّز: وهو التاجر المستقرّ في بلده، ويعتمد في المتاجرة على وكلاء له في بلدان مختلفة ممن لهم الخبرة في ميدان التجارة، ويتحلّون بالصدق والأمانة، ولهم حصّة متفق عليها من الأرباح، ويقوم هذا التاجر بإرسال البضائع إلى هؤلاء الوكلاء، ويترك لهم حرّية التصرف في بيعها أو تخزينها، ثم إن هؤلاء الوكلاء يشترّون له البضائع ويرسلونها إليه^(٥٦). إن الإشارات الكثيرة إلى هؤلاء الوكلاء تدلّ على أهميّتهم في الحياة التجارية -آنذاك-، فهم يقومون بما تقوم به فروع الشركات التجاريّة في الوقت الحاضر^(٥٧)، ويُذكر أن العلامة ابن خلدون أدلى بمعلوماتٍ مماثلة لما ذكره الدمشقي بخصوص أصناف التجار، ولكنّه أغفل ذكر التاجر المجهّز^(٥٨).

- مكانة التجار الاجتماعية -

كان التجار قبل العصر العباسي يُعدّون من (العامة)، ثم طرأ تطوّر في النظرة إليهم في هذا العصر، فعدهم البعض - نتيجة لتعاظم ثرواتهم - من طبقة (الخاصة)، والعامة هي خلاف الخاصة، وأبرز ما يميّز العامة الجهل والفقر، أمّا الخاصة، فيُراد بهم، أصحاب الخليفة من ذوي قرباه، ومن رجالات الدولة البارزين والكتّاب وقادة الجيش، والأشراف والقضاة، فضلاً عن المقرّبين من أهل الفنّ الموهوبين والعلماء وأهل الأدب. ويبدو أنّ سبب هذا التحوّل في النظرة الاعتبارية إلى التجار جاء نتيجة التطوّرات الاقتصادية المهمة في هذا العصر، وفي مقدّمتها ازدهار النشاط التجاريّ بين بغداد - عبر البصرة - وعالم المحيط الهنديّ، الأمر الذي أعطى أهميّةً للثروة جنب الأهميّة التي كانت للنسب والمهنة^(٥٩).

ومن المواقف التي عزّزت من مكانة التجار وأهل السوق عامّة في العصر العباسي الأول، إقدام هارون العباسي على إشراك التجار وأهل السوق في البيعة لابنه المأمون سنة (١٨٣هـ / ٧٩٩م)^(٦٠)، ويُعدّ القرن الثالث الهجريّ/ التاسع الميلاديّ، مرحلة تحوّل مهمّة في نظرة الدولة والمجتمع العراقيّ إلى التجارة والحرف الأخر، وبات واضحاً للجميع شغف الناس بحبّ المال من أجل تحقيق السّعة في العيش، والمنزلة اللّائقة بين الناس، الذين نظروا إلى الثّراء نظرة تقدير عالية، الأمر الذي دفع بعض أفراد حاشية الخليفة، والمقرّبين إليه إلى ممارسة النشاط التجاريّ، لما كان يحقّقه من مكاسب وأرباح وفيرة^(٦١).

إنّ نظرة الرّأي العامّ إلى التجارة ومهن السوق، شهدت تحوّلاً مهمّاً في

هذا العصر، وعُدَّت التجارة من أفضل أنواع الكسب، وعُدَّ التَّجَّار من طبقة الخاصة^(٦٢)، فقد امتدح كلُّ من الجاحظ وإخوان الصفا استقلال التَّجَّار ومكانتهم في المجتمع، فيقول الجاحظ: «...أَتَمُّهُمْ فِي أَفْنِيَتِهِمْ كَالْمُلُوكِ عَلَى أَسْرَتِهِمْ... لا تلحقهم الذَّلَّةُ في مكاسبهم، ولا تستعدَّ الصَّرْعُ لمعاملاتهم...»^(٦٣)، بينما أشار إخوان الصفا بشيء من المبالغة إلى أنَّ «النَّاسَ كُلَّهُمْ إِمَّا صُنَّاعٌ، أَوْ تُجَّارٌ»^(٦٤).

ثانياً: الباعة

الباعة هم الذين يبيعون المواد الاستهلاكية الصَّروية لحياة النَّاس، وينقسمون على قسمين: الباعة الثابتون: هم أصحاب الدكاكين في الخانات والأسواق^(٦٥)، وكانوا أصنافاً وتخصّصات متنوّعة، فمنهم: باعة الخبز، واللَّحْم، والحيوانات الحية، كالأغنام والخيول والجمال والطَّيُور^(٦٦)، وباعة السَّمَك والحطب والشُّوك والحصر والمكانس والكبريت والعطر، وكذلك البقالون، الذين يبيعون الحبوب، كالحنطة والشَّعِير والرَّز والخضروات والفواكه^(٦٧)، ويندرج ضمن الباعة الثابتون -أيضاً- العطَّارون والبزازون، وهؤلاء أحسن النَّاس حالاً من بقيَّة الباعة من حيث الأرباح والتنظيم والخبرة^(٦٨).

وكانت كلُّ مجموعة من دكاكين الباعة تكوِّن سوقاً قائماً بذاته، يختلف في مبيعاته وتجارته عن الأسواق الأخرى، وقد حافظت هذه الأسواق على تخصّصها، فكان هناك سوق العطَّارين، والصَّيادلة، والخزَّازين، والجوهريين، والخبَّازين، وسوق السَّلاح، وسوق الطَّعام، والخشَّابيين، والنَّجارين، والصَّفَّارين، والصَّاعِة، وأسواق الحيوانات، وغيرها^(٦٩).

أمَّا النوع الثَّاني من الباعة، فهم (المتجولون)، وهم الذين لا يستقرُّون في

مكانٍ معيّنٍ، ويطوفون في الشوارع والأسواق والأزقة، وكانت مبيعاتهم مختلفة -أيضاً-، فهم يبيعون العصائر والمشروبات وبعض الفواكه، كما يبيعون الأدوية والأطعمة والكتب^(٧٠)، وعادة ما يتخذ هؤلاء الباعة المتجولون مواقع مؤقتة لهم، وينادون على بضاعتهم، ثم ينتقلون منها إلى مكانٍ آخر، وكان الباعة الثابتون في الأسواق لا يرتاحون لوجود هؤلاء الباعة المتجولين، وكثيراً ما كانوا يطردونهم من أسواقهم^(٧١).

وتضمّ فئة الباعة، ومن يتّصل بهم من المجهّزين والصّناع، أصنافاً كثيرة من العاملين في الأسواق، يُشار إليهم عادة بمصطلحات: (أهل المهن)، أو (الأصناف)، أو (أهل الصّنائع).

ثالثاً: السّامسة

وهم الوسطاء بين البائع والمشتري، مقابل نسبة من الربح يحصلون عليه، فكانوا يأخذون نماذج من بضائع التّجار، أو الباعة، ويعرضونها على النّاس، إلّا أنّ أغلب هؤلاء لم يكتفِ بدور الوسيط، بل يلجأ إلى أساليب مختلفة، وربّما ملتوية لتصريف بضاعته، بما في ذلك خداع المشتري والكذب عليه، وكثيراً ما يتمّ التّواطؤ أو الاتّفاق المسبق بين الدّالّين أنفسهم، أو بين البائع أو التّاجر من جهة، والدّلال من جهةٍ أخرى؛ لغرض إقناع المشتري أو خداعه، وتصريف البضاعة عليه^(٧٢).

- دخل العاملين في السّوق

من الطّبعي أن يكون هناك تباين وتدرّج في أرباح العاملين في السّوق

ومواردهم الماليّة، ويمكننا أن نميّز -من حيث المورد المالي- بين نوعين من العاملين في السّوق:

النوع الأوّل: ذوي الدّخول العالية، وهم فئة التّجار الذين يملكون ملايين الدّنانير، وهؤلاء يمتلكون خبرةً وتجربةً تمكّنهم من تقدير احتمالات السّوق، من ارتفاع وانخفاض في الأسعار، قبل عقد أيّ صفقةٍ تجاريّةٍ، وربّما لجأ البعض منهم إلى استعمال طرق غير مشروعة للتأثير على السّوق، كأن يبتّ أخباراً كاذبة كي يُحدث ارتفاعاً أو انخفاضاً في الأسعار، وفقاً لما تقتضي مصالحه الخاصّة^(٧٣).

الثاني: هم أصحاب الدّخول الواطئة، من الذين لا يتمكّن بعضهم حتّى من سدّ رمقه من دخله الشّحيح إلّا بصعوبةٍ بالغةٍ، وأغلب هؤلاء يعملون في السّوق بأيديهم، وأدواتهم البسيطة^(٧٤)، ومنهم البقالون، والباعة المتجولون، الذين يمارسون البيع والشّراء بشكلٍ محدودٍ دون الحاجة إلى رأس مالٍ كبيرٍ، أو مهارةٍ عاليةٍ، أو تخصّصٍ دقيقٍ، ومثل هذه التّجارة يكون نطاقها في العادة محدوداً، وأرباحها قليلة^(٧٥).

ومن هؤلاء -أيضاً- الصّناع، أو أصحاب الحرف، الذين يُصنّفون بدورهم إلى صنفين، الأوّل: هم الصّناع المأجورون، أي: الذين يقومون بعملهم لحساب غيرهم لقاء أجرٍ محدود، والصّنف الثاني: هم الذين يمارسون مهنتهم في حوانيتهم لحسابهم الخاصّ، وأغلبهم من ذوي الحرف التي ورثوها عن آبائهم، وهذا الصّنف، ربّما تكون موارده أفضل من الصّنف الأوّل، بحكم امتلاكهم رأس المال مع وسيلة الإنتاج، فضلاً عن امتلاكهم حرّيّتهم الشّخصيّة في العمل، وتحرّره من الاستغلال، الذي عادة ما يقع على الصّنف الأوّل من الصّناع،

أي: المأجورين^(٧٦).

يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ أَغْلَبَ أَرْبَاحٍ وَأَجُورَ الْعَامِلِينَ فِي الْأَسْوَاقِ - بِاسْتِثْنَاءِ كِبَارِ التَّجَارِ - كَانَتْ زَهِيدَةً وَمُتَوَاضِعَةً، وَكَانَ مَعْظَمُهُمْ يَعْيشُ فِي فَاقَةٍ وَعُوزٍ، وَمَنْ الْمُؤَكَّدُ أَنَّ هُنَاكَ تَدَرُّجًا وَحَالَاتٍ وَسَطًا بَيْنَ هَذِهِ وَتِلْكَ مِنَ الْأَرْبَاحِ.

وَيَعْكِسُ لَنَا الْجَدُولُ أَدْنَاهُ، وَالْخَاصُّ بِالْأَجْرَةِ الْيَوْمِيَّةِ لَعَيْنَةٍ مُخْتَارَةٍ مِنَ الْعَامِلِينَ فِي الْأَسْوَاقِ الْعِرَاقِيَّةِ خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهَجْرِيِّ / التَّاسِعِ الْمِيلَادِيِّ صُورَةً لَذَلِكَ الْوَاقِعِ، وَطَبِيعَةَ أَجُورِ الْعَامِلِينَ فِي تِلْكَ الْأَسْوَاقِ:

عَيْنَةٌ مِنْ أَجُورِ الْعَامِلِينَ فِي الْأَسْوَاقِ فِي الْقَرْنِ (٩٣ هـ / ٩ م)

نوع العمل	الأجرة اليومية	الملاحظات
عامل صناعة زجاج	درهم ونصف ^(٧٧)	
عامل حانوت	نصف درهم	مع كسوته وطعامه
عامل حدادة	خمسة دراهم	
عامل الحمام	خمسة دراهم	
حفار قبور الموتى	درهم - ٣ دراهم	للقبور الواحد ^(٧٨)

إِنَّ هَذِهِ الْأَجُورَ تُعَدُّ زَهِيدَةً جَدًّا مُوَازِنَةً بِالتَّكَالِيفِ الْيَوْمِيَّةِ، فُوجِبَ الْغَدَاءُ - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ - فِي أَحَدِ مَطَاعِمِ بَغْدَادِ خِلَالَ تِلْكَ الْحَقْبَةِ، كَانَتْ تُكَلِّفُ مَا بَيْنَ دَانِقٍ إِلَى عِشْرِينَ دَانِقًا^(٧٩)، وَأَنَّ الْعَامِلَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْيشَ يَوْمَهُ بِدَرَاهِمِ^(٨٠)، فَكَيْفَ هُوَ حَالُ أَصْحَابِ الْأَسْرِ الْكَبِيرَةِ مِنْ أَهْلِ السُّوقِ، الَّذِينَ هُمْ مِنَ الْمُؤَكَّدِ لَا

يستطيعون مع هذه الأجور الحصول على ضروريات الحياة؟ ويُذكر أن الفقهاء يَعُدُّونَ الشَّخصَ الواحدَ فقيراً ويستحقُّ الصَّدقة، إذا كانَ دخلُهُ السَّنويَّ أَقلَّ من (٢٠٠) درهم، أي: ما يساوي (١٦) درهماً ونصف درهم شهرياً^(٨١).

وأخيراً، لا بدَّ من القول بأنَّ رابطة المهنة قد ولدت نوعاً من التكتل والتماسك والتكافل بين أصحاب التخصُّص الواحد، وبين أهل السوق الواحد، وبمرور الزَّمن، قويت تلك الرابطة بين أصحاب المهنة الواحدة، وصار كلُّ منهم يشعر بالارتباط الوثيق بأهل صنفه، ارتباطاً كان يفوق - أحياناً -، أو يوازي ارتباطه بقبيلته وعائلته. ونتيجة لهذا الشعور، شاع الانتساب إلى المهنة بجوار الانتساب إلى المدينة أو القبيلة، فصرنا نسمع في بغداد والبصرة، وغيرهما من مدن العراق الأخر ألقاباً، مثل: الزَّجاج، والنَّظام، والدَّبَّاح، والزَّيات، والحلاج، والخزاز، والنَّجار، وغيرها^(٨٢)؛ الأمر الذي جعل أديب البصرة الكبير (الجاحظ) يقول: إنَّ «الصَّناعة نسب»^(٨٣).

الخاتمة

في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، أتجه العرب الفاتحون، وخاصة في مدن العراق الكبرى، إلى الحياة المدنية، وإلى المشاركة في الفعاليات الاقتصادية. وقد ازدهر النشاط التجاري، وبشكل خاص عن طريق الخليج العربي، ونهضت البصرة بدور نشيط في هذا الميدان، وظهرت فيها طبقة نشطة من التجار تعاظمت ثرواتها وأرباحها، وقد تفاوتت أرباح التجارة بحسب سلعتها، فالكمالية منها يُباح فيها الربح إلى (٣٠٠٪)، أمّا البضائع الأخرى، فلا يزيد الربح فيها على (٣٪). أمّا بخصوص فئة الباعة في الأسواق، فيمكننا أن نميز -من حيث المورد المالي- بين نوعين من العاملين فيه:

النوع الأول: ذوي الدخول العالية، وهم فئة التجار الذين يملكون ملايين الدنانير.

الثاني: هم أصحاب الدخول الواطئة، من الذين لا يتمكن بعضهم حتى من سد رمقه من دخله الشحيح إلا بصعوبة بالغة، وأغلب هؤلاء يعملون في السوق بأيديهم، وأدواتهم البسيطة، ومنهم البقالون، والباعة المتجولون، الذين يُمارسون البيع والشراء بشكل محدود دون الحاجة إلى رأس مال كبير، أو مهارة عالية، أو تخصص دقيق.

وَيُمْكِنُنا القول -إذن- إنّ أغلب أرباح وأجور العاملين في الأسواق-
باستثناء كبار التجّار- كانت زهيدةً ومتواضعةً، وكان معظمهم يعيشُ في فاقةٍ
وعوزٍ، ومن المؤكّد أنّ هناك تدرّجاً وحالاتٍ وسطاً بين هذه وتلك من الأرباح.

الهوامش

- ١- يُنظر: البخاريّ، الجامع الصّحيح: ج ٣، ص ٤٥٢، وابن آدم، يحيى القرشيّ، كتاب الخراج: ص ٩٤، والخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد: ج ١، ص ٥.
- ٢- يُنظر: الجهشباريّ، الوزراء والكتّاب: ص ١٨٦.
- ٣- الثّعالبيّ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ص ١٢٨.
- ٤- شارل بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء: ص ٤٠.
- ٥- يُنظر: البلاذريّ، أنساب الإشراف: ج ١، ص ٤٩٥.
- ٦- يُنظر: الأفغانيّ، سعيد، أسواق العرب: ص ٣٩٤.
- ٧- لذلك أُطلق على البصرة لقب (مطرح البر)، يُنظر: المقدسيّ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ص ١٢٨، وشارل بيلا، الجاحظ: ص ٣١٨.
- ٨- من المرجّح أنّ هذا السّوق كان موجوداً قبل الإسلام، وأنّ السّلاطت السّاسانيّة في سعيها لدرء خطر البدو من العرب وإبعادهم عن الاتّصال المباشر بالمنطقة المأهولة قد حدّدت مكان السّوق على طرف الصّحراء بهذه الكيفيّة، ومن ثمّ عُرفت هذه المنطقة بـ(باب البادية). عون الشريف قاسم، شعر البصرة في العصر الأمويّ: ص ١٢-١٣، ويُنظر: المقدسيّ، أحسن التقاسيم: ص ١١٧، ومن معاني المربد: هو المكان الذي يجبس فيه الإبل والماشية، يُنظر شارل بيلا، الجاحظ: ص ٤٠-٤١.
- ٩- يُنظر: الدّوريّ، عبد العزيز، تاريخ العراق الاقتصاديّ في القرن الرابع الهجريّ: ص ١٣٥.
- ١٠- يُنظر: زكي، أحمد كمال، الحياة الأدبيّة في البصرة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة: ص ٤٨، وإحسان النّصّ، العصبيّة القبليّة وأثرها في الشّعر الأمويّ: ص ٣٩٧-٤٦١، والدّوريّ، تاريخ العراق الاقتصاديّ: ص ١٣٦.
- ١١- يُنظر: العليّ، صالح أحمد، التّنظيّمات الاجتماعيّة والاقتصاديّة في البصرة في القرن

- الأول الهجري: ص ٢٦٦.
- ١٢- يُنظر: البلاذري، فتوح البلدان: ص ٤٣٢.
- ١٣- يُنظر: ابن الفقيه الهمداني، كتاب البلدان: ص ١٩١، والطبري، تاريخ الرسل والملوك: ج ٥، ص ٥٢٢.
- ١٤- يُنظر: المقدسي، أحسن التقاسيم: ص ١١٧.
- ١٥- يُنظر: الطبري، تاريخ: ج ٩، ص ٤٨٥، والبلاذري، فتوح: ص ٤٣٢.
- ١٦- يُنظر: الجاحظ، البغال: ص ٢٩-٣٠.
- ١٧- يُنظر: مؤلف مجهول، ألف ليلة وليلة: ج ١، ص ٥٦٤.
- ١٨- يُنظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء: ص ٤١٥.
- ١٩- يُنظر: ناصر خسرو، سفرنامه: ص ١٤٦.
- * منسوب إلى بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، قاضي البصرة. البلاذري، فتوح: ص ٤٤٧.
- ٢٠- يُنظر: ناصر خسرو، سفرنامه: ص ١٤٦.
- ٢١- يُنظر: البيروني، أبو الريحان، الجماهر في معرفة الجواهر: ص ١٨٤.
- ٢٢- يُنظر: اليعقوبي، كتاب البلدان: ص ٢٦٤.
- ٢٣- يُنظر: المقدسي، أحسن التقاسيم: ص ١٢٨.
- ٢٤- يُنظر: الطبري، تاريخ الطبري: ج ٩، ص ٤٨٦.
- ٢٥- يُنظر: المرتضى، طبقات المعتزلة: ص ٤٤.
- ٢٦- يُنظر: الجاحظ، البخلاء: ص ١٢٥، ١٤٢، ١٤٣، واليعقوبي، البلدان: ص ٢٦٤.
- ٢٧- يُنظر: الطبري: ج ٦، ص ٦٧.
- ٢٨- يُنظر: الأصفهاني، أبو نعيم بن عبد الله، حلية الأولياء: ج ٦، ص ٢٢٨.
- ٢٩- أوجد العبّاسيون جيشاً نظامياً كان العرب أحد عناصره، وقلّص المأمون أعداد العرب المشاركة في الديوان (العطاء)، ثم أسقط المعتصم العرب كلياً من هذه المشاركة. عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية: ص ٦٢.
- ٣٠- التبصر بالتجارة، نشره حسن حسني عبد الوهاب: ص ٤.
- ٣١- ابن الفقيه الهمداني، كتاب البلدان: ص ٥١.

- ٣٢- يُنظر: مؤلف مجهول: ج ١، ص ٤٧٥.
- ٣٣- يُنظر: المصدر نفسه.
- ٣٤- يُنظر: المصدر نفسه: ج ١، ص ٥٧-٥٩.
- ٣٥- يُنظر: المصدر نفسه: ج ١، ص ٥٦.
- ٣٦- يُنظر: المصدر نفسه: ج ١، ص ٤٧٣.
- ٣٧- يُنظر: الدَّورِيُّ، عبد العزيز، مقدِّمة في تاريخ العراق الاقتصادي: ص ٦٨.
- ٣٨- يُنظر: ابن الفقيه، البلدان: ص ١٩١.
- ٣٩- يُنظر: إبراهيم حلمي، حالة العراق الاقتصادية، مجلَّة لغة العرب، ج ١١، السَّنة (٢)، عدد آيار (١٩١٣م): ص ٥٠١.
- ٤٠- يُنظر: جرجي زيدان، التمدن الإسلامي: ج ٢، ص ١٧٧.
- ٤١- يُنظر: عبد القادر باش أعيان العبَّاسي، البصرة: ص ٢٢.
- ٤٢- يُنظر: السَّيرافي، أبو زيد، رحلة السَّيرافي إلى الهند والصَّين وإندونيسيا: ص ١٠.
- ٤٣- يُنظر: العلي، التَّنظيَّيات: ص ٢٦٠.
- ٤٤- يُنظر: الأصفهاني، حلية الأولياء: ج ٤، ص ١٦.
- ٤٥- يُنظر: موريس لومبارد، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي، ترجمة: عبد الرحمن حميدة: ص ١٩٧.
- ٤٦- يُنظر: S.HUZAYYIN, Arabia and the Far East, Cairo, 1942 P. 157.
- ٤٧- يُنظر: كلود كاهن، تاريخ العرب والشَّعوب الإسلاميَّة، ترجمة: بدر الدِّين القاسم: ص ١٤٦.
- ٤٨- يُنظر: التَّنظيَّيات: ص ٢٦٠.
- ٤٩- يُنظر: آدم متر، الحضارة الإسلاميَّة في القرن الرَّابِع الهجري، ترجمة: محمَّد الهادي أبو ريذة: ج ٢، ص ٢٧٢.
- ٥٠- يُنظر: صالح العلي، التَّنظيَّيات: ص ٢٦٠.
- ٥١- يُنظر: دائرة المعارف الإسلاميَّة، التَّرجمة العربيَّة، مقال (Hoffening) مادَّة (تجارة)، ومقال (بيكر) مادَّة (سمسار). بدري محمَّد فهد: العامَّة في بغداد: ص ٦٣، ٧٣.
- ٥٢- يُنظر: الدَّمشقي، أبو الفضل، جعفر بن علي، الإشارة إلى محاسن التَّجارة: ص ٤٨-٥١.

- ٥٣- يُنظر: الجهشباري، الوزراء والكتّاب: ص ١٢٨.
- ٥٤- الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة: ص ٥٠-٥٢.
- ٥٥- المصدر نفسه: ص ٤٥.
- ٥٦- يُنظر: المصدر نفسه: ص ٥٢.
- ٥٧- يُنظر: الشيباني، محمد بن الحسن، كتاب المخارج في الخيل: ص ١٤.
- ٥٨- يُنظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة: ص ٤٧٥، وما بعدها.
- ٥٩- يُنظر: فهد، العامة: ص ٦٤.
- ٦٠- يُنظر: اليعقوبي، التاريخ: ج ٣، ص ١٤٦.
- ٦١- يُنظر: الجهشباري، الوزراء: ص ٢٧٢، والصّابى، أبو الحسين، هلال بن المحسن، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء: ص ٣١٤، ومسكويه، أبو علي، أحمد بن محمد، تجارب الأمم وتعاقب الهمم: ج ١، ص ١٥٢.
- ٦٢- يُنظر: عادل محي الدين الألويسي، الرأي العام في القرن الثالث الهجري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٣م: ص ٦١.
- ٦٣- الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ: ص ١٥٦.
- ٦٤- أخوان الصفا، رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا: ج ٢، ص ٢٨٥.
- ٦٥- يُنظر: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ج ٩، ص ٤٤.
- ٦٦- يُنظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ج ٤، ص ١١١.
- ٦٧- يُنظر: ابن الجوزي، أبو الفرج، أخبار الحمقى والمغفلين: ص ٥٩.
- ٦٨- يُنظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ج ١٢، ص ٣٠.
- ٦٩- يُنظر: بدري محمد فهد، العامة: ص ٧٥.
- ٧٠- يُنظر: الغزالي، إحياء علوم الدين: ج ٢، ص ٣٣٢.
- ٧١- يُنظر: فهد، العامة: ص ٨٠.
- ٧٢- يُنظر: الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة: ص ٤٤، ودائرة المعارف الإسلامية، مقال بيكر، مادّة (سمسار)، وبدري محمد فهد، العامة: ص ٨٢.
- ٧٣- يُنظر: الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة: ص ٤٠.
- ٧٤- يُنظر: الهمداني، محمد بن عبد الملك بن إبراهيم، تكملة تاريخ الطبري: ج ١، ص ٣٩.

- ٧٥- يُنْظَرُ: الجاحظ، البخلاء: ص ٥٩، والدَّورِيُّ، تاريخ العراق الاقتصادي: ص ٢٦٠.
- ٧٦- يُنْظَرُ: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر: ج ٢، ص ٢١٨.
- ٧٧- يُنْظَرُ: ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء: ص ١٨٣.
- ٧٨- يُنْظَرُ: الجاحظ، البيان والتبيين: ج ٣، ص ٥٦٠.
- ٧٩- يُنْظَرُ: آدم متز، الحضارة الإسلامية: ج ٢، ص ٢٨٥.
- ٨٠- يُنْظَرُ: ابن الجوزي، أخبار الحمقى: ص ١٣٨.
- ٨١- يُنْظَرُ: صالح أحمد العلي، التنظييات: ص ١٦٠، وحمدان عبد المجيد الكبيسي، أسواق بغداد حتّى بداية العصر البويهي: ص ٣٤٢.
- ٨٢- مازال أغلب هذه الألقاب متداولاً في العراق حتّى يومنا هذا، ومنها -أيضاً- ألقاب: البرّاز، الحدّاد، الباججي، والشّرفشجي، والقصاب، والقندرجي، وغيرها.
- ٨٣- الجاحظ، البخلاء: ص ٥٢.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- ١- ابن آدم، يحيى القرشي، كتاب الخراج، القاهرة، ١٣٨٤هـ.
- ٢- الأصفهاني، أبو نعيم بن عبد الله، حلية الأولياء، القاهرة، ١٩٣٨م.
- ٣- ابن الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٧٠م.
- ٤- ابن الجوزي، أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي، أخبار الحمقى والمغفلين، مطبعة التوفيق، دمشق، ١٣٤٥هـ.
- ٥- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٧هـ.
- ٦- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، تونس، ١٩٨٩م.
- ٧- ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر، أحمد بن محمد، كتاب البلدان، ليدن، ١٩٦٧م.
- ٨- أخوان الصفا، رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.
- ٩- البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ليدن، ١٨٦٤م.
- ١٠- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ١١- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الإشراف، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ١٢- البيروني، أبو الرّيحان، محمد بن أحمد، الجماهر في معرفة الجواهر، حيدر آباد الدكن، ١٣٣٥هـ.
- ١٣- الثّعالبي، أبو منصور، عبد الملك بن محمد، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ١٤- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون،

القاهرة، ١٩٦٥ م.

١٥- البخلاء، نشره: طه الحاجري، القاهرة، ١٩٥٨ م.

١٦- البغال، نشره: شارل بيلا، القاهرة، ١٩٥٥ م.

١٧- البيان والتبيين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٨ م.

١٨- التبصر بالتجارة، نشره: حسن حسني عبد الوهاب، ط ٢، القاهرة، ١٩٣٥ م.

١٩- الجهشيارى، أبو عبد الله، محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، ١٩٣٨ م.

٢٠- الخطيب البغدادي، أبو بكر، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، أو مدينة السلام، القاهرة،

١٩٣٩ م.

٢١- الدمشقي، أبو الفضل، جعفر بن علي، الإشارة إلى محاسن التجارة، القاهرة،

١٣١٨ هـ.

٢٢- السيرافي، أبو زيد، الحسن بن زيد، رحلة السيرافي إلى الهند والصين وإندونيسيا، نشر

علي البصري، بغداد، ١٩٦١ م.

٢٣- السبوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، القاهرة، ١٩٦٤ م.

٢٤- الشيباني، محمد بن الحسن، كتاب المخارج في الخيل، نشره: يوسف شاخت، لبيج،

١٩٣٠ م، وأعدت طبعه بالأوفسيت، مكتبة المثنى، بغداد (د.ت).

٢٥- الصّابى، أبو الحسين، هلال بن المحسن، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء،

تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، ١٩٥٨ م.

٢٦- الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل

إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٦ م.

٢٧- الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، بولاق، مصر، ١٣٠٩ هـ.

٢٨- المرتضى، طبقات المعتزلة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت (د.ت).

٢٩- المسعودي، أبو الحسن، علي بن الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد

محيي الدين، القاهرة، ١٩٥٨ م.

٣٠- مسكويه، أبو علي، أحمد بن محمد، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، القاهرة، ١٩١٥ م،

أعدت طبعه بالأوفسيت، مكتبة المثنى، بغداد (د.ت).

- ٣١- مؤلف مجهول، ألف ليلة وليلة، طبعة بولاق (مجلدان)، القاهرة، ١٢٥٢هـ، أعادت طبعها بالأوفسيت، مكتبة المشي، بغداد.
- ٣٢- ناصر خسرو، أبو معين الدين (ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م)، سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، بيروت، ١٩٧٠م.
- ٣٣- الهمداني، محمد بن عبد الملك بن إبراهيم، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: ألبرت يوسف كنعان، بيروت ١٩٦١م.
٣٤. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب، كتاب البلدان، النجف، ١٩٥٧م.
- ٣٥- التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

ثانياً: المراجع

- ٣٦- الأفغاني، سعيد، أسواق العرب، ط ٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٤م.
- ٣٧- الآلوسي، عادل محي الدين، الرأي العام في القرن الثالث الهجري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٣م.
- ٣٨- باش أعيان العباسي، عبد القادر، البصرة، دار البصري، بغداد ١٩٦١م.
- ٣٩- حلمي، إبراهيم، حالة العراق الاقتصادية، مجلة لغة العرب، ج ١١ السنة (٢)، عدد آيار (١٩١٣م).
- ٤٠- دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، مقال (Hoffening) مادة (تجارة)، ومقال (بيكر) مادة (سمسار).
٤١. الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت، ١٩٧٤م.
- ٤٢- التكوين التاريخي للأمة العربية، بيروت ١٩٨٤م.
- ٤٣- مقدمة في تاريخ العراق الاقتصادي، بيروت، ١٩٦٩م.
- ٤٤- زكي، أحمد كمال، الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.
- ٤٥- زيدان، جرجي، التمدن الإسلامي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٦٨م.
- ٤٦- شارل بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة: إبراهيم السامرائي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.

- ٤٧- العلي، صالح أحمد، التَّنْظِيمَاتُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ وَالْاِقْتِصَادِيَّةُ فِي الْبَصْرَةِ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْهَجْرِيِّ، بيروت ١٩٦٩م.
- ٤٨- فهد، بدري محمد، العامَّةُ فِي بَغْدَادَ، بَغْدَادَ، ١٩٦٧م.
- ٤٩- كاهن، كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلاميَّة، ترجمة: بدر الدين القاسم، ط٢، بيروت ١٩٧٧م.
- ٥٠- الكيسبي، حمدان عبد المجيد، أسواق بغداد حتَّى بداية العصر البويهيّ، بغداد ١٩٧٩م.
- ٥١- لومبارد، موريس، الجغرافية التَّارِيخِيَّةُ لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، ترجمة: عبد الرَّحْمَنِ حميدة، دمشق ١٩٧٩م.
- ٥٢- متز، آدم، الحضارة الإسلاميَّة في القرن الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ، ترجمة: محمد الهادي أبو ريذة، ط٣، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ٥٣- النَّصِّ، إحسان، العصبيَّة القبليَّة وأثرها في الشعر الأمويّ، بيروت، ١٩٦٣م.

S.HUZAYYIN, Arabia and the Far East, Cairo, 1942 - ٥٤

قصيدة (أمّ البروم) لبدر شاكر السيّاب، قراءةٌ أخرى

"Om AL Broom" poem

By: Bader shaker Al –sayyab: a different reading

أ.د. حامد ناصر الظالميّ

جامعة البصرة/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربيّة

Professor. Dr. Hamed Nasser Al-Dhalimy

Department of Arabic Language/College of Education for Human

Sciences / University of Basrah

ملخصُ البحث

هذه القصيدة من القصائد المتأخرة، تنتمي إلى مجموعةٍ من القصائد سيطرتُ عليها ثيمة الموت والصراع بين الحياة والموت. وقد نظمها بدر شاكر السياب في بداية السّتينيات، والبحث مركّز على استذكار السّياب مقبرة (أمّ البروم) في البصرة، بعد أن هدمتها السّلطات العراقية منذُ بداية الثلاثينيات، فلماذا يقوم السّياب باستذكار هذه المقبرة بعد ثلاثين سنة من هدمها وتسويتها وجعلها حديقة عامّة، أصبحت جزءاً من المدينة كما يقول السّياب ويؤكد ذلك في هامشه عن هذه القصيدة؟ سؤالٌ حاول هذا البحث الإجابة عنه.

Abstract

The poem under study is one of as-Sayyab's latest poems and belongs to a number of poems dominated by two themes: death and struggle between life and death. The poem was composed in the early 1960s. The present paper is about as-Sayyab's remembrance of Om Al-Broom Graveyard in Basrah after it was pulled down by Iraqi authorities at early 1930s. Why does the poet bring this place into memory after 30 years after it was removed and turned into a public garden?

مقدمة

الكلمة المفتاح هي التي تُساعدك في الدّخول إلى النّص وتفكيكه، ويتقصد بعض الأدباء الإشارة إلى كلمة محدّدة في النّص لفتح بعض الفجوات فيه؛ كي ينظر المؤرّوّل منها إلى ما وراء النّص، وأصوله التي تشكّل عليها. وقصيدة (أمّ البروم) واحدة من قصائد السيّاب التي أشار فيها إلى الكلمة المفتاح، قائلاً: «المقبرة التي أصبحت جزءاً من المدينة»؛ إذ كتبها الشّاعر في: (٢١/٧/١٩٦١م)، وضمّها ديوانه (المعبد الغريق)^(١).

أودُّ هنا أن أطرح سؤالاً يُجيب عنه البحث فيما بعد:

ما الذي جعل السيّاب يتذكّر مقبرةً قديمةً وسطَ العشار، ويكتبُ قصيدةً عنها سنة (١٩٦١م)، أي: قبل وفاته بسنواتٍ قليلةٍ، والمقبرة تمّ تهديمها وتسويتها عام (١٩٣٢م)؟ (تُنظر الوثائق في آخر البحث)، أي: ما الذي جعل السيّاب يتذكّر ذلك بعد ثلاثين سنة، أي: بعد انتهاء الدّفن فيها رسمياً في بداية الثلاثينيات، وعمره -آنذاك- ستّ سنوات أو أكثر بقليل؛ إذ وُلد سنة (١٩٢٤م)، وهو لم يأتِ إلى العشار في هذا العمر، ولم يُزر المقبرة؟ وعندما درس في الإعداديّة ووصل إلى منطقة العشار لم يبقَ شيءٌ من آثار هذه المقبرة إطلاقاً، بل تحوّلت إلى حديقة أُطلق عليها حديقة (الملك غازي)، ثمّ تحوّلت إلى مكانٍ لتجمّع العمّال والفقراء، وفيها بعد أصبحت مرآباً للسيّارات.

نظرة في ديوان (المعبد الغريق)

صحيح أن ديوان (المعبد الغريق)، الذي صدر في بداية الستينيات يكاد أن تكون موضوعات قصائده تحمل ثيمة (الموت)، وهو ما نجده في (قصيدة المعبد الغريق، قصيدة شبّاك وفيقة، وقصيدة حدائق وفيقة، وقصيدة أم البروم)، فمن الطبيعي أن اليأس قد سيطر عليه في أواخر حياته في بداية الستينيات، وألّت به الضائقة الماليّة، وبدايات مرضه وفصله من دائرته، ولكن، أن يُصدر ديواناً كاملاً ثيمته (الموت والقبر)، فهو أمرٌ يستحقّ المناقشة، وما الذي يذكر شاعراً مثل السياب بموضوع نسيه الناس، واندurst آثاره، ولماذا (أم البروم) تحديداً؟ يقول السياب عن (أم البروم): «المقبرة التي أصبحت جزءاً من المدينة، والحقيقة أن مدينة البصرة (ونقصد هنا مركز المحافظة)، هي جزء من مقبرة، أو مجموعة مقابر؛ إذ يوجد في مركز المدينة حتى عقد الثلاثينيات (٤٠) مقبرة، إذن مدينة لا تتجاوز مساحتها (٥ كم^٢) تضم (٤٠) مقبرة! ليس هذا قلب لكلام السياب؟ أي إن المدينة كانت عبارة عن محلات سكنية تربطها أزقة ضيقة وشوارع غير معبّدة، وتفصلها مستنقعات، وسط عدد كبير من المقابر، وما نشاهد من بقايا أضرحة يقدّسها الناس -الآن- في البصرة، هي بقايا تلك المقابر الأربعين، تمّ تهديمها وسحقها، ومن ثمّ بُنيت عليها المدارس والدوائر والبيوت و...؛ ولذلك يقول أحد الباحثين: «إن الدّارس لتخطيط المدينة يجد أن البصرة -آنذاك- هي مدينة داخل مقبرة، وليس العكس»^(٢).

والمقابر هي:

- ١- مقبرة العباسية، في العباسية (للمسلمين).
- ٢- مقبرة الفرسي، في محلة الفرسي (للمسلمين).
- ٣- مقبرة إبراهيم الخليل، في محلة السيمر (مقبر عامة).
- ٤- مقبرة محمد جواد، في محلة جسر العبيد (عامة).
- ٥- مقبرة السيد درويش، في محلة المشراق (للمسلمين).
- ٦- مقبرة الشيخ حبيب، في محلة القبلة (للمسلمين).
- ٧- مقبرة السبخة الكبيرة، في محلة السبخة (مقبرة عامة).
- ٨- مقبرة مستشفى العزل في محلة دويد (الخاصة بالمرضى المعزولين).
- ٩- مقبرة (تذكار مود)، قرب مستشفى (تذكار مود) (خاصة بالراقدين في المستشفى الجمهوري).
- ١٠- مقبرة الخضر، في محلة الخضر (للمسلمين).
- ١١- مقبر الساعي، في محلة الساعي (للمسلمين).
- ١٢- مقبرة الرباط الصغير، في محلة الرباط.
- ١٣- مقبرة الفقراء، في محلة المناوي باشا (عامة).
- ١٤- مقبرة القبلة الأولى، في محلة القبلة (اليهود).
- ١٥- مقبرة القبلة الثانية، في محلة القبلة (اليهود).
- ١٦- مقبرة النبؤ زوفين، في محلة الخندق.
- ١٧- مقبرة الكلدان خلف السجن المركزي (للمسيحيين).
- ١٨- مقبرة بريهة، في محلة بريهة (للمسلمين).

١٩. مقبرة نادي صيد الحمام (غير معرفة) هي للبروتستانت.
٢٠. مقبرة الخضراوية، في محلة (أبو الحسن)، للمسلمين (متروكة فيها مياه).
٢١. مقبرة الكواز، في محلة المشراق (عامة).
٢٢. مقبرة باب الهوا، في محلة المشراق (عامة).
٢٣. مقبرة العروة، في محلة السيمر (عامة وللأطفال).
٢٤. مقبرة السجن، في محلة نظران في السجن المركزي (للمسجونين فقط).
٢٥. مقبرة (علي بن موسى الرضا)، في محلة الفرسي (للمسلمين) (متروكة بسبب المياه).

٢٦. مقبرة مقام (عبّاس أبو مطرق)، في محلة البلوشي.
٢٧. مقبرة الشيخ (خرج)، في محلة المشراق (عامة).
٢٨. مقبرة الرباط الكبير، في محلة الرباط الكبير (عامة).
٢٩. مقبرة زين العابدين، في محلة العباس (عامة).
٣٠. مقبرة جبل اليهودية، في محلة كوت الحجاج (عامة).
٣١. مقبرة الفرعونية، في محلة كوت الحجاج (عامة).
٣٢. مقبرة (أم إسكندر)، في محلة السبخة الكبيرة (عامة).
٣٣. مقبرة أم الدجاج، في محلة أم الدجاج (عامة).
٣٤. مقبرة الإنجليز، في محلة الرباط الكبير (لجنود الإنجليز).
٣٥. مقبرة الحسن العسكري، في محلة المشراق (للمسلمين).
٣٦. مقبرة الهنود، في محلة القبلة.
٣٧. مقبرة الأرمن، في محلة القبلة.

٣٨. مقبرة البروتستانت (قرب مقبرة الإنكليز).

٣٩. مقبرة أخوات رزنة، في محلة سبخة العرب (للمسلمين).

٤٠. مقبرة (أم البروم) في محلة العشار.

(أم البروم) وجدل التسمية

وعندما نأتي إلى منطقة (أم البروم) ونبحث عن معناها، نجد تأويلاً سمعته من المؤرخ البصري (حامد البازي)، ولم أقرأه، أو أثبت منه، أو أجده مكتوباً، وهو شائع كذلك عند البصريين، وهو (أن هذه المنطقة سُميت بهذا الاسم؛ لكثرة قدور الطبخ فيها، والقدر الكبير هو (البُرمة)؛ إذ كان الأغنياء يطبخون هنا للفقراء، ويوزعون الطعام؛ لذلك سُميت بهذا الاسم، أي: بأحد لوازم الطبخ)، ولكن الذي أراه على وفق الوثائق التاريخية أن هذا المكان هو مقبرة للفقراء، ولمن أصابته أمراض مُعدية، فكيف يتفق الطبخ هنا مع دفن الموتى المصابين، ولم يؤكد لنا المرحوم (حامد البازي) كلامه ذلك بوثائق تاريخية نطمئن إليها، بل هو محض تأويل.

بعد أن عرفنا أن هذا المكان كان مقبرة، وهو ما أكدته الوثائق المتوافرة لدينا، بقي أن نسأل عن معنى هذا الاسم، وهو أمر يُرجعنا تاريخياً إلى ما كان يفعله السومريون أثناء دفن موتاهم؛ إذ يقول الدكتور (سامي سعيد الأحمد): إنهم «يلفون الميت مثنيّاً في حصيرة، أو قطعة من الكتان فوق ملابسه الاعتيادية، ورأسه على وسادة، ومعه كأس ماء وبعض الحاجات الشخصية، ثم يُوضع بتابوت من أعواد الصفصاف، أو بقطعة فخارية كبيرة، أو في جرتين كبيرتين

متقابلتي الفوهة، ويحني الظهر بحيث يُصبح الرأس عند الصدر وقرب الحنك من الحوض... ومن قبور العصر البابلي الحديث بكيش، وضع الميت بتابوت طيني، أو في الأرض، ولم تكن التوابيت على طول الجثث، مما يجعلهم يثنون الأطراف»^(٣). أي: إن الدفن يكون هنا بجرار كبيرة هي (البُرمة)، وهذه الطريقة، أي: الدفن بالجرار، أو في (البُرْم) كَتَبَ عنها (غسان طه ياسين)، الأستاذ في مركز البحوث الأثاريّة والحضاريّة في جامعة الموصل بحثين، هما:

- ١- أسلوب دفن الموتى في العراق القديم، وبعض مناطق الشرق الأدنى القديم، مجلّة بين النهرين سنة (٨) عدد (٣٠) سنة (١٩٨٠م): ص ١٣١-١٣٨.
- ٢- تقاليد دفن الموتى في (تلّ حلاوة) من خلال تنقيبات جامعة الموصل، الموسم (٢٢) شباط عام (١٩٧٨م)، في مجلّة آداب الرافدين، جامعة الموصل، عدد (١٢) سنة (١٩٨٠م): ص ٣٤-٦٩.

وفي هذين البحثين مخطّطاتُ تبيّنُ طريقة إحناء الجثّة ووضعها في الجرار الكبير كمدفن؛ إذ يُشنى الجسد داخل الجرّة (البُرمة)، كما لو كان في رحم الأم، أو يكون وضعها كالإنسان الذي أصابه برّد فتكوّر على نفسه، أو كالإنسان الخائف، وبعد إدخاله في الجرّة الكبيرة، يُضاف فوقه الكافور وموادّ التّحنيط الأخرى، ثم تُغلق الجرّة تماماً بالفخار والطّين. ونعتقد أنّ السّبب في ذلك؛ هو لحماية الجثّة من الحيوانات، ولمنع انبعاث الروائح منها، ولحمايتها من المياه الجوفية، وغيرها من الظروف الطّبيعيّة، ولسهولة نقلها إلى مكانٍ آخر.

لم تكن وسائط النّقل قبل مئات السّنين متوافرة وسريعة كما هي الآن؛ فلذلك يكون نقل الجثث عن طريق السفن طبعاً، وليس برّاً؛ إذ لا وجود لسيّارات

أو قطارات تقوم بذلك، وبما أن النقل النهريّ يستوجب أياماً عديدة لنقل جثث الميسورين - خاصة - من البصرة إلى النجف، فإنّ النقل بالتأبوت الخشبيّ لا ينفع هنا؛ لتحلّل الجثة خلال فترة النقل التي قد تطول؛ لذا فإنّ أفضل الطرق تكون بالجرار أو (البرم)؛ لعدم تأثرها بالظروف الجوية من حرّ وبردٍ، وغير ذلك، فالبرمة تحافظ على ما موجود فيها مدّة أطول، ولقرب مقبرة (أمّ البروم) من نهري العشار والخذق، فإنّ النقل سيكون أكثر سهولة إلى مناطق العراق الأخر عبر شطّ العرب، ومن ثمّ الدّخول في نهر الفرات، والوصول إلى النجف، وبهذا تتحوّل هذه المنطقة إلى مكان تجمع الجرار، أو (البرم) كي يتمّ نقلها فيما بعد، وهو ما جاء في الوثائق الرّسميّة، كالكتاب الصّادر عن متصرّف لواء البصرة المرقّم (١٥٣٤٥) في: (٧/٣/١٩٢٢م) المرسل إلى رئيس الصّحّة المركزيّ في البصرة، الذي يطالبه بتقديم إحصاء عن المعدّل الشهريّ للجثث التي تُرسل إلى الأماكن المقدّسة في النّجف الأشرف وكربلاء، وهذا الأمر موضّح وبشكل تفصيليّ في كتابٍ يحمل عنوان: (بيان لنقل الجثث إلى النّجف وكربلاء)، وهو صادر عن متصرّف لواء البصرة آنذاك^(٤).

ذلك ما يتعلّق باسم المنطقة التي جاءت عنواناً لقصيدة السيّاب (أمّ البروم)، أمّا لماذا تذكّر السيّاب هذا المكان بعد إزالته بثلاثين سنة؟ فنعتقد أنّ السّبب هو كون هذه المقبرة خاصّة بالفقراء الذين يموتون وليس لدى ذويهم الإمكانات اللاّزمة لنقلهم ودفنهم في النّجف أو كربلاء، وهي مقبرة للمصابين بأمراض فتّاك، وكذلك لدفن الغرباء، ثمّ سوّيت بالكامل، وبُنِي فوقها الملاهي ودور السيّنها و...!!

إزالة المقبرة وتهديمها

وعن إزالة هذه المقبرة نجد مجموعة من الوثائق تُشير إلى ذلك، فالوثيقة ذات الرقم (٢٨٣١) في: (١٣/٨/١٩٢٩م) (سرّي)، وموضوعها (مقبرة أم البروم)، هي في الأصل كتاب من رئيس بلدية البصرة موجه إلى متصرفية لواء البصرة، يطلب فيه إزالة هذه المقبرة، وفعلاً قد توقف الدفن فيها عام (١٩٣٠م)، على وفق الوثيقة الصادرة من رئيس بلدية البصرة إلى متصرفية لواء البصرة (سرّي) موضوعها (أم البروم) ذات الرقم (١٧٠٩) في: (٩/٧/١٩٣٠م)، والوثيقة المؤرخة في: (٢٥/٤/١٩٣٢م)، تُبين تحويلها إلى متنزّه تابع للبلدية، وكذلك أكد رئيس بلدية البصرة هذا الأمر بكتابه ذي الرقم (٩٩٦) في: (٩/٥/١٩٣٢م)، بجعل هذه المقبرة متنزّهاً، وهكذا تحولت إلى ساحة عامّة سنة (١٩٣٢م)، على وفق كتاب متصرف لواء البصرة المرسل إلى رئاسة بلدية البصرة ذي الرقم (٨٢٠٨) في: (٤/٧/١٩٣٢م)، وبعد ذلك تمّ هدم جدار المقبرة يوم (١٩/٧/١٩٣٢م)، فأرسل عالم العشار الشيخ (عبد المهدي المظفر) برقية إلى وزارة الداخلية في: (٣٠/٧/١٩٣٢م) يستنكر فيها هذا العمل، وحتى تغسيل الموتى، فقد تمّ إيقافه هنا، فتقدّم جمع من أهالي العشار، وعددهم أحد عشر شخصاً، بإرسال برقية إلى جلالة الملك للتراجع عن هذا الأمر (هدم المقبرة)، ومن هؤلاء الأشخاص:

- سلمان الصّكّار: وهو والد الشاعر الأديب والفنان والخطاط (محمد سعيد الصّكّار)، وكان من تجار الحبوب في البصرة، وحدثني والدي عنه أنّه كان بطلاً مصارعاً امتاز بقوة جسدية فائقة.

- مهدي الجابري.

- عبد الحسين علوش، وآخرون.

ولكن الأمر تم تنفيذه، وتمت تسوية المقبرة.

قصيدة السيّاب قراءة في ضوء النقد الثقافي

على وفق أساسيات النقد الثقافي التي تدرس الظروف السياقية المؤثرة في إنتاج النصّ، أي نصّ كان، أدبياً أم غير أدبيّ، ولتفكيك الخطاب، ومعرفة الباعث على الكتابة والسياقات الثقافية، وغيرها ممّا يُحيط بالنصّ، جاءت مقدّمتنا التاريخية هذه للإجابة عن السّؤال السابق.

يحتاج البحث في لغة السيّاب معرفة جملة أمور أبرزها: اللّغة المحليّة المتداولة آنذاك، والموروث الثقافي والاجتماعي، فمثلاً كلمة (بويب) الواردة في قصيدة (بويب)، ما معنى هذه الكلمة في الثقافة المحليّة آنذاك؟ هل هو اسم نهر معروف في البصرة بهذا الاسم مثلاً؟ أو هناك رأي آخر إذ يُطلق أهل أبي الخصيب - والسيّاب منهم - على كلّ نهر كبير متفرّع من شطّ العرب اسم (باب)، ولذلك لديهم (باب سليمان)، و (باب طويل)، والباب هو النهر الطويل والعريض، والباب هو مصدر للرزق، وكلّ شيء يتعلّق بالخير فهو باب، و(بويب) هو مصغّر باب، أي: كلّ نهر صغير وقصير متفرّع من الباب الكبير، وهو ليس اسماً لهذا النهر تحديداً، بل هو كلّ نهر صغير أينما يكون، ولكنّ بعض الباحثين يعتقد أنّ هذا النهر الذي قيلت فيه القصيدة، هو نهر محدّد بهذا الاسم لا غيره.

وعندما نعود إلى (أم البروم) التي كانت تمثّل صراعاً كبيراً ما بين الموت (المقبرة

المندرسه)، وما بين الحياة العابثة الصّاخبة (الملاهي والغانيات)، فالسيّاب لم يرَ تلك المقبرة بل سمع بها؛ إذ يقول:

«رأيتُ قوافل الأحياءِ ترحلُ عن مغانيها
تُطارِدُها وراءَ اللَّيلِ أشباحُ الفوانيسِ
سمعتُ نشيجَ باكيها
وصرخةَ طفلِها وثغاءَ صاِدٍ مِنْ مواشيها
ولكنّ لم أرَ الأمواتَ يطردُهنَّ حفارُ
من الحفرِ العِتاقِ وينزعُ الأطفالُ عنها أو يغطيها
ولكنّ لم أرَ الأمواتَ قبلَ ثراكِ مجليها
مُجُونُ مدينةٍ وغناءٍ راقصةٍ وخمارُ
يقول رفيقي السّكرانُ: «دَعِها تأكلُ الموتى
مدينتنا لتكبرُ.. تحضنُ الأحياءَ.. تسقينا
شراباً من حدائقِ برسفون^(٥).. نُعلِّنا حتّى
تدورَ جماجمُ الأمواتِ مِنْ شكيرٍ مشى فينا»^(٦).

هو يتحدثُ عن نقيضين (حياة الفقراء/ صراخ الأطفال)، وعن (مجون المدينة التي بُنيتْ حاناتها فوق جُثث الفقراء والمجذومين)، الذين تمّت تسوية عظامهم، فتحوّلت قبورهم إلى ملهى السّندباد، وسينما الكرنك، وملاهٍ...، وكأنّما ليس في هذه المدينة مكانٌ آخر غير هذا يذكرنا بالمقبورين تحت الأرض...، فالبصرةُ يختطفُها الموتُ، فهي مثل (برسفون) ابنة آلهة الخصب اليونانية، التي اختطفها (بلوتو) سيّد العالم السفلي، عالم الموتى، فصارت تعيش معه - كما تقول

الأسطورة- فأصبحت مدينة تعرك اللحم، ورحى تطحن البشر، ولا تكتفي بل تمتد يداها للأموات لطحنهم كذلك.

يقول السيّاب:

«مدينتنا منازلها رحى ودروبها نارُ

لها من لحمنا المعروك خبزٌ فهو يكفيها

علامٌ تمدُّ للأموات أيديها وتختارُ

تلوكُ ضلوعها وتقيؤها للريح تُسفيها»^(٧).

هل يستحقُّ أولئك الفقراء منّا سحق عظامهم لبناء سجنٍ، أو دائرة، أو

مرقص، أو ملهى، أو ... ، أو مدرسة، أو ... ؟

«تسلَّل ظلُّها النَّاري من سجنٍ ومستشفى

ومن مبعًى ومن خمارٍ من كلِّ ما فيها

وكانت إذ يُطلُّ الفجرُ تأتيك العصافيرُ

تساقطُ كالثمارِ على القبورِ تنفّرُ الصّمتا

فتحلُمُ أعينُ الموتى

بكركرة الضياء وبالتلال يرشها النورُ»^(٨).

فالأبُّ الذي مات وترك أمّاً لثلاثة أطفال تعولُ بهم، وتتسكّع على الأبواب

مع أطفالها، تستجدي ماءً وطعاماً حتّى ماتت، فخلا منها نعشُها:

«وتسمعُ ضجّةَ الأطفالِ أمُّ ثلاثةٍ ضاعوا

يتامى في رحابِ الأرضِ إن عطشوا وإن جاعوا

فلا ساقٍ ولا من مُطعمٍ في الكوخِ ظلّوا واعتلى النعشُ

رؤوس القوم والأكتاف ... أفئدة وأسماغ
ولاعين ترى الأم التي منها خلا النعش»^(٩).

فهؤلاء الثلاثة كالطيور، فقدوا الأب والأم التي تستجدي لهم الماء والطعام،
وتجمعهم في عشها فلا ساق ولا مطعم لهم، فالقبر الذي ضم جسدتها أبعدها عن
دنيا الذل، ولكن بقيت طفلتها الصغيرة ذات المفاتن تتسكع وأيدي المتطفلين لا
ترحمها:

«يباعدُ عالم الأمواتِ عن دنيا من الذلِّ
من الأغلال والبوقات والآهات والزحمة
وأوقدت المدينة نارها في ظلة الموتِ
تقلعُ أعين الأمواتِ ثم تدسُّ في الحفرِ
بذور شقائق النعمانِ تزرعُ حبة الصمّتِ
لتثمر بالرنين من النقود وضجة السفرِ
وقهقهة البغايا والسكرارى في ملاهيها
...»^(١٠).

هذا هو حال المدينة، تبدلاتٌ عجيبةٌ، وانقلاباتٌ أغرب، فالمدفون هنا في
(مقبرة أم البروم، المتحولة إلى المتنزه والشوارع) يحسب ويعدد العجلات التي
مرّت على جسده، وهو ينتظرُ موعد الرّب للخلاص من هذا العذاب.

«سلامٌ جال فيه الدمع والآهات والوجدُ
على المتبدلات لحودهم والغايات قبورهم طرقا
وطيب رقادهم أرقا

يَحْنُ إِلَى النَّشُورِ وَيَحْسَبُ الْعِجَالَتِ فِي الدَّرْبِ
وَيَرْقُبُ مَوْعِدَ الرَّبِّ»^(١١).

الوثائق

دائرة بلدية البصرة
العدد ١٧٠٩
التاريخ ٩ تموز سنة ١٩٣٠

سـرى
الموضوع- مقبرة لم البروم
الى -
متصرفية لواء البصرة

عطا على كتابنا السرى رقم ٢٨٣١ وتاريخ ١٣ آب سنة ١٩٢٩ .
بناء على امر متصرف اللواء السابق علي جودت بك فرسنا الاشجار الكيفة على خطاني
الطريق الذي يشق عباب مقبرة لم البروم ووضعنا لمباشرة هذه الاشجار اشخاص
يمنعون من يبيت بها ويسقوها اعتمادا على امر المتصرف المشار اليه ان يمنع قـبر
الاموات الجدد في هذه المقبرة . وقد جرى فعلا المنع وامتنع الأهليون من قـبر
امواتهم هناك مدة . الا اني اجد الآن عادوا الى قبر امواتهم في المقبرة المذكورة
الامر الذي لا يتألف مع مصلحة الصحة من جهة ويخالف سنة تقدم العمران .
فلـرجو اصدار امركم باتخاذ التدابير لمنع قـبر الاموات وليليدقنوها في مقـبرة
محمد جواد المتوسطة بين العشار والبصرة كما عرضت لكم بكتابي الاتف الذكر .

رئيس بلدية البصرة

١/ف

وثيقة (١)

الحدية ٢٠٠٠ ب ٣-١٢-٣١

From من بلدية البصرة

To الى متصرفية لواء البصرة

Dated ١٩٣٢ ٩ مايس / ١٩٣٢

File ١٧٣ الموافق

Memorandum

رق ٩٩٦ No ٩٩٦

G. F. 11. نموذج مام (١١)

الموضوع: مقبرة أم السبريم

جوابا لكتابكم عدد ٥٨٨٧ المؤرخ ٢٥ نيسان / ١٩٣٢ (قلم التحرير).

انظر ارفاق مدير الصحة بكتابته المرقم ١١٨ / ٢٠ المؤرخ ٢٢ / ٤ / ٢١ ارفاقه هذه الدائرة قبل ثلاث سنين وكتمت تقريرا سريريا مفصلا قدمته الى مقام المتصرفية عن مقبرة أم السبريم بتاريخ ١٣ آب / ١٩٢٩ وتمت الممدد ٢٨٢١ وعزيت بطن بتاريخ ٩ تموز ١٩٣٠ وبعث العدد ٩ ١٧٠٠ واقترحت مع فقر البلدية حينذاك تخصيص مبلغ عشرة الاف روبية لنقل حشوات الاموات من مقبرة أم البروم الى النجف الاشرف وتحويل المقبرة المذكورة الى حديقة خضراء يملكها الجمهور للترفيه والتسلية حيث انها واقعة في منتصف المدينة وفي مكان لائق وطلبت ان يقع دفن الاموات في هذه البقعة وان تخصص مقبرة محمد حواد التي هي خارج البلدة وتمنع الاقارب من التبرير لدفن الاموات من ابناء الملة الجعفرية صارف الشيخ عبدالمهدي بلفر وجعلت هذه الفكرة واقعا واما الحكومة انذاك عدم استعمال الشدة واخذ الامر بالالتجيز في احسن الفرص المتاحة لتعفيذ المشروع .

عنه معلوما

وطيبه ارجو التفضل بالاطلاع على كتابتي هذه الدائرة الملمع اليه اعلاه والدائرة حاضرة ومستعدة لطب ترونيته في هذا الشأن .

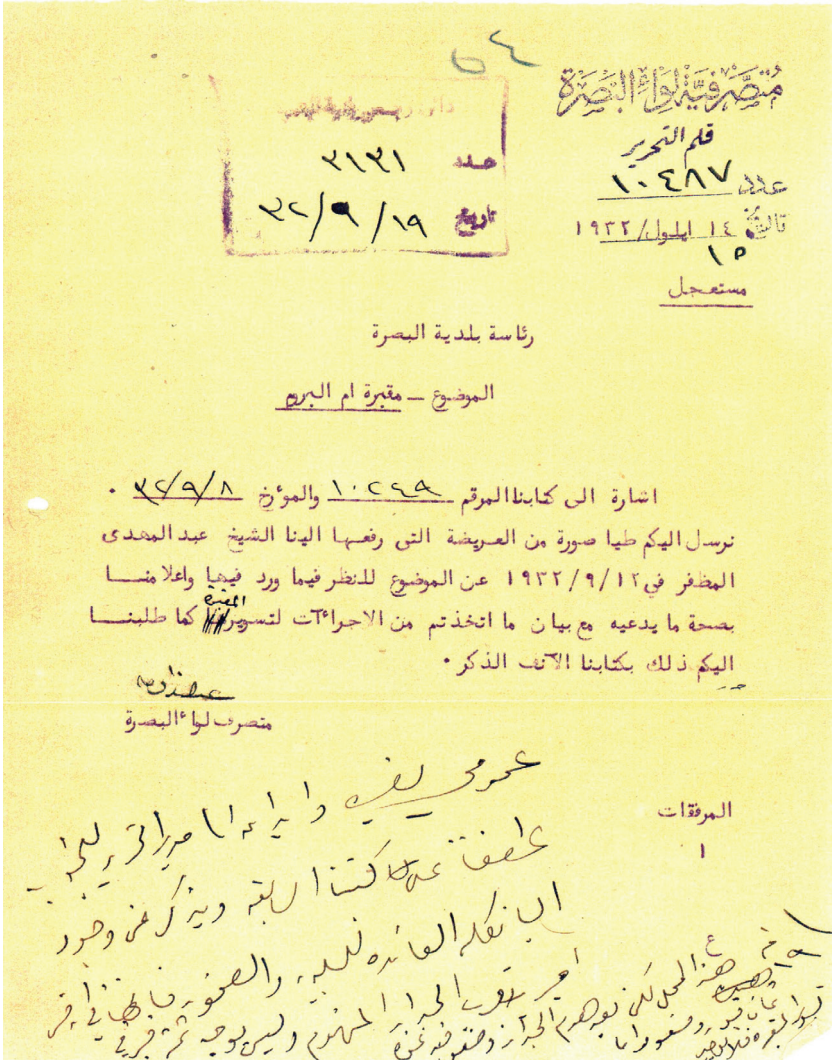
وغير ما تعلمه هو طلب نظام مراتبة المقابر الذي سيصدر بموجب المادة ٤٤ الفقرة ٧ حرف ١ من قانون ادارة البلد بالنسبة لتخطيطه على مقبرة أم البروم وغيرها . وعلى كل حال الامر منوط لرايكم السالتي

وكيل رئيس بلدية البصرة

صورة منه لمدير الصحة بالاشارة الى كتابته رقم ١١٨ / ٢٠ وتاريخ ٢٢ / ٤ / ٣٢

ف / ١

وثيقة (٢)



٢٢

الحديث ٢٠٠٠ ياد ٣-١٢-٣٩

From من بلدة البصرة

G.F. 11. نموذج عام (١١)

To الى متصرفية لواء البصرة

No. ١٥٢٢ رقم

Dated the 193 التاريخ الموافق ١٧ تموز ١٩٣٢

Memorandum مذكرة

الموضوع: ساحة أم البرم

بالإشارة الى كتابكم المرقم ٨٢٠٨ والمؤرخ ٤/٢ تموز ١٩٣٢ .
نؤيد اقتراح مدير الصحة بشأن هدم الجدار الموضوع البحث للاعتبارات
الواردة في كتاب مدير الصحة ونرجو موافقتكم على ذلك ليتسنى لنا هدمه
وازالتة من الوجود كيلا يكون المحلل الذي خلفه ماوى للاعداء .

رئيس بلدية البصرة

ف/١

وثيقة (٤)

قصيدة (أم البروم) لبدر شاكر السياب، قراءة أخرى

SGPS...156...187...2000 Pdf...24 5 32

FROM من متصرفية لواء البصرة
قلم التحوير

G. F. 12. ١٣٥
توفج (١٢) عام

To الله: No. ٩٠١٢ رقم

رئاسة بلدية البصرة

Dated the 193
١٩٣ ٢ تموز/ الموافق

Memorandum. مستعجل جدا. مذكرة

الموضوع - هدم جدار

٨٧٥٧

اشارة الي كتاب هذه المتصرفية المرقم
والمؤرخ في ١٢ تموز ١٩٣٢
لقد راجعنا هذا اليوم الشيخ عبد المهدى العظفر محتجا على هدم
الجدار الفاصل بين الطريق العام وساحة ام البروم الذي شرعت البلدية
بهدمه منذ صباح اليوم مدعيا بان هدم الجدار الموضوع البحث مما يؤثر
على حرمة المقبرة بنظر المسلمين .
لقد دقت اوليات القضية فوجدت ان مواثقة المتصرفية على
هدم الجدار الموضوع البحث وان كان مستندا الى توصية الدوائر الحكومية
ذات الاختصاص الا انها لم تسمع معروضات الشيخ المواليه في الامر
بصفة المتولي لهذه المقبرة .
لذلك وحيث ان عملية الهدم ربما تشكل قضية تتجاوز على
حقوق الغير فقد رأيت من المناسب تأجيل الهدم ريثما يقدم سعادة
المتصرف اللواء فيبحث في الامر بصورة نهائية . فيرجى العمل بموجب
ذلك .

متصرف لواء البصرة

محمد علي البدر شاكر السياب

وثيقة (٥)

صورة برقية

٤٧

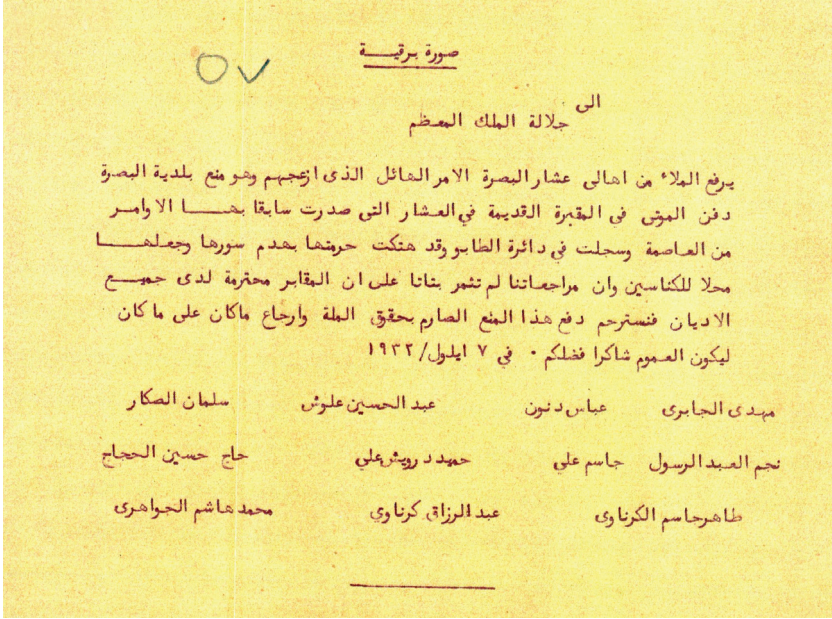
وزارة الداخلية

يا غوثاه بلدية البصرة هتكت حرمة مقبرة الاسلام بالعشار
قهرا وحياطيتها المشيدة باعانة المسلمين هدمتها تحقيرا وفوت
بانقاضها وفرشتها بالاقواء علنا فضلا عن انها اتخذتها ولا زالت
مقرا للكاسين ومخزنا لتقالة القذورات رغم ان المقابر محترمة بجميع
الاديان فلم تنهر مراجعنا فنطلب تدارك الامر بارجاع ما كان على ما
كان حرمة للديانة ومصلحة لصيانة حقوق الرعية

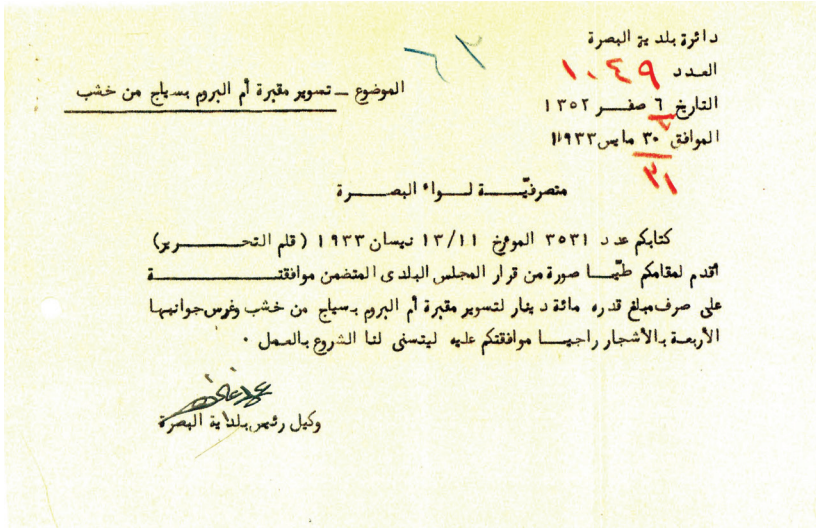
في ١٩٣٢/٧/٣٠ عالم العشار
(عبدالمهدي مظفر)

وثيقة (٦)

قصيدة (أم البروم) لبدر شاكر السياب، قراءة أخرى



وثيقة (٧)



وثيقة (٨)

صورة تعريضة

١٤١

لحضور صاحب السعادة متصرف لواء البصرة الموقر

المصروف

ايها المتصرف الهمام لقد راجعتكم مراعات عديدة ومشكوب خصوصي حول انواع التجاوزات المهمة والتعديلات الفائكة النازلة بسمكك التواضع على مقبرة الاسلام ولقد نعتك حمايتك وحماستك الاسلامية وشبهتك لعزتكم الدينية وحالا كشفنا بذاتك ونصرت الى فضاعة التعديلات القبيحة من هدم سورنا وجعلنا محلا للكناسين والآن نقالسة القاذورات وحضرتكم وندم هذا شفاها على ملاء من الناس بعدم تكرهك حرية المقبرة وبعد ذلك اخذ جماعة من العمال ينقلون لها الأحجار والبرمل يجعلها مخزنا لذلك .
ولقد حضرت عنك صباح يوم الخميس المصادف ١٩٣٢/٣/٢٥ قرب الساعة العاشرة زوالية لأخبرك شفاها حسب ما عودتموني على التجاوز القديم والحديث الذي وقع على المقبرة ولم احد فرصة مناسبة لأبين لك الكيفية وتندفد ار بدا من ان اوادعك قائلا لجنايتك اني سأعرض لمقامك تحويرا رسما بماحدث على المقبرة سابقا ولاحقا قلت لم يتحني الى ذلك نصرت ولم اقدم امثالا .

ثم حدث في الأيام الأخيرة مما هو غير متصور صدوره ابدا وشوم منع بلدية البصرة دفن الموتى في المقبرة المذكورة من جميع اطرافها واخذ التعديلات من المفسلين والحفارين ان لا يباشرونها . فأجبت ان اقدم الاستدعاء الرسمي لمافيه من المصلحة من عرض الكيفية وهذا اذا اشرح لحضرتكم المقبرة وكيفيةها :

ايها المتصرف الحازم ان المقبرة المسماة مقبرة ام البروم هي مقبرة لعامة المسلمين وثانية كيفيةها ومركزها رسما لدى الحكومة الجليلة يحتضن الخريطة المرسومة المبين حدودها في دائرة ~~المصرفية والبلدية~~ المصرفية والبلدية المحترقتين وموجب الامر الصادر حول تسجيل تلك المقبرة على ان الامر الرسمي المذكور خلد في خزينة الدفتر الخاقاني في البصرة كما بينت لكم ذلك شفاها ورضته لمقامكم لأجل الأطسلاع على الوثائق المذكورة وحررت هذا مع تقديم احترام لمقامكم السابق حيث أن مرعظم الذي ليس له احد غيرك طالبا من علو همتك ان تأمر بنا سور المقبرة ورفع المحل ~~المذكور~~ المذكور اعني محل الكناسين وايقاف البناء المهر الموضي وتحافظ المقبرة بحسب مقتضى تصرفك ايها الحازم على ان التصرف على الرمية متوجلا بالمصلحة والا مر لوليه

في ١٢ ايلول / ١٩٣٢

المستدعي

المالم الساكن في العشار

(الشيخ عبد المهدى) الحظفر

وثيقة (٩)

الخاتمة

تُفيدنا الوثائق في محاولتنا إعادة قراءة النصوص الأدبية من جديد، فمن الممكن إعادة قراءة الأدب الأصيل عبر الأزمنة والأمكنة المتعددة، ويتم اكتشاف الجديد فيه، والوثيقة التاريخية تزيد من نسبة الاحتمال، بل تؤدي إلى القطع بالرأي أحياناً، وبهذا فهي - بصورة أو بأخرى - تُساعدنا على إعادة قراءة النص بدقة أكبر. وهذا ما عملنا عليه في قصيدة السياب (أم البروم)، التي طرحنا حولها هنا عدة تساؤلات حاولنا الإجابة عنها في ضوء الوثائق التاريخية، التي عرضناها، والتي بينت لنا أن (أم البروم) كانت في الأصل مقبرة، وهو الأمر الذي تنبّه له السياب، فعملنا على الكشف عن دلالات قصيدة (أم البروم) في ضوء ذلك، فعرفنا أن الحوار الذي أراده السياب في القصيدة بين الموتى والأحياء، كان واعياً له، فقد عرف أصل المكان الذي تحدّث عنه في القصيدة، وبهذا نكشف عن جماليات النص في ضوء المعلومة التاريخية الدقيقة.

الهوامش

- ١- يُنظر: الأعمال الشعريّة الكاملة، بدر شاكر السيّاب: ١/ ١٢٦.
- ٢- الحالة الصّحيّة في البصرة سنة (١٩٢١ - ١٩٣٩م)، جعفر عبد الدّائم، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كليّة التّربية، قسم التّاريخ سنة (١٩٨٨م): ص ٢٠.
- ٣- المعتقدات الدّينيّة في العراق القديم، د. سامي سعيد الأحمد: ص ٨٨.
- ٤- تُنظر الوثائق المرافقة.
- ٥- ابنة آلهة الخصب اليونانيّة اختطفها (بلوتو) سيّد العالم السفليّ، عالم الموتى، فصارت تعيش معه هناك.
- ٦- الأعمال الشعريّة الكاملة، بدر شاكر السيّاب: ١/ ١٢٦.
- ٧- الأعمال الشعريّة الكاملة، بدر شاكر السيّاب: ١/ ١٢٦.
- ٨- الأعمال الشعريّة الكاملة، بدر شاكر السيّاب: ١/ ١٢٦، ١٢٧.
- ٩- الأعمال الشعريّة الكاملة، بدر شاكر السيّاب: ١/ ١٢٧.
- ١٠- الأعمال الشعريّة الكاملة، بدر شاكر السيّاب: ١/ ١٢٧.
- ١١- الأعمال الشعريّة الكاملة، بدر شاكر السيّاب: ١/ ١٢٨.

المصادر والمراجع

١. الأعمال الشعرية الكاملة، بدر شاكر السياب، دار الحياة، القاهرة، ٢٠١١م.
٢. الحالة الصحية في البصرة سنة (١٩٢١ - ١٩٣٩م)، جعفر عبد الدائم، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية التربية، قسم التاريخ سنة ١٩٨٨م.
٣. المعتقدات الدينية في العراق القديم، د. سامي سعيد الأحمد، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، ٢٠١٣م.
٤. وثائق بلدية البصرة للأعوام: (١٩٢٩م، ١٩٣٠م، ١٩٣٢م، ١٩٣٣م).

مدينةُ القُرْنَةِ في كتاباتِ الرَّحَّالَةِ والمسؤولينَ
الأجانبِ

Town of (Qurnah) in the Writing of Foreign
travelers and Top Officials

أ.م.د. عماد جاسم حسن الموسويّ

جامعة ذي قار/ كَلِيَّةُ التَّربِيَةِ للعلومِ الإنسانيَّة/ قسمُ التَّاريخِ

Assistant proffssor Dr. : Emad Ja ssim Hassan al Mussawi

History Department/College of Education for Human

Sciences/ Thi-Qar University

ملخص البحث

تُعدُّ كتابات الرَّحالة مادّة تاريخيّة تكادُ تكون مادّة وثائقية؛ وذلك لأهميّة تلك الكتابات في نقل الكثير من الأحداث التاريخيّة التي لم يقم أهالي المناطق بتوثيقها، لاسيّما مناطقنا العربيّة التي كان التوثيق فيها ضعيفاً، أو متعرّضاً للتلف؛ بسبب الأخطار الخارجيّة التي تدهمُّ بلادنا باستمرار؛ لذا، فإنّ أدب الرّحلات - على الرّغم من كونه يمتاز بأسلوب قصصيٍّ - ممّا يُستفادُ منه في التعرّف بتاريخ تلك المناطق. وعلى هذا الأساس، يتناول بحثنا (مدينة القرنه في كتابات الرّحالة والمسؤولين الأجانِب)؛ لغرض التعرّف على تاريخ هذه المدينة وإرثها الحضاريّ من خلال تلك الكتابات؛ إذ إنّ هناك عدداً من الرّحالة والمسؤولين الأجانِب مرّوا بهذه المدينة، وكتبوا عنها، وقدموا أوصافاً عنها بمختلف المجالات: السياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والصّحيّة، والعسكريّة، كما أنّ أولئك الرّحالة لم يكونوا من جنسيّة واحدة، بل كانوا من قومياتٍ ودولٍ مختلفة، دفعَتْ بهم عدّة أسبابٍ للمجيء إلى هذه المناطق، ومن ثمّ الكتابة عنها بشكلٍ أدّى إلى سدّ النقص الحاصل، أو الفراغ الموجود، في المادّة التاريخيّة عن هذه المدن.

Abstract

Foreign travelers' writings represent a historical material that almost amounts to a documentary record of events that have not been documented by people of the regions concerned. This is especially true of our Arab region where documentation used to be very limited or exposed to damage due to external dangers. Trips writings and memoirs are quite useful to know more about the history of any region in spite of the narrative style used by writers.

This paper seeks to review the history of Qurnah and its historical heritage through the writings and records of travelers and top officials who have passed by this town, have written about it and provided political, economic, social, health, and military descriptions about it. Besides, those travelers and officials were of various nationalities who came to the area for different reasons. Their writings, to be sure, contain important information, not to be found elsewhere, about this town.

مقدمة

مما لاشك فيه أنَّ تنقّلات الرّحالة وأسفارهم من أمتع فصول الأدب والتّاريخ، وأكثر مؤلّفاته رواجاً، وأحسنها قبولاً لدى القراء؛ لما لها من أثر في نفس القارئ، تجعله يتصوّر أنّه يعيش تلك الحياة، ويستمتع كثيراً بقراءتها، ويهوى متابعة مسير أولئك الرّحالة، وتتبع تنقّلاتهم، والتّعرّف على انطباعاتهم عن المناطق والمدن والقرى التي مروا بها وكتبوا عنها بأحوالها المختلفة.

وعلى الرّغم من أهميّة هذا النوع من الكتابة، إلّا إنّ هناك غايات وأغراضاً وأهدافاً كان السّوّاح والرّحالة الأجانب يبتغونها في رحلاتهم إلى البلاد التي يقصدونها، وهي إمّا للتبشير، أو للأغراض التجاريّة، أو التّمثيل الدّبلوماسي، أو لأغراض فنيّة وعسكريّة وطبيّة وعلميّة، أو لجمع معلومات دقيقة وتفصيليّة عن مناطق الشرق التي كانت معروفة بمواردها الطّبيعيّة، لحاجتهم إلى تلك الثّروات، لاسيّما بعد الثّورة الصّناعيّة في أوربّة، وحاجتهم إلى الموادّ الأوليّة، وكذلك بحثاً عن الأسواق لتصريف بضائعهم، فضلاً عن معرفة الحضارة العربيّة الإسلاميّة التي وصلت إلى أوربّة، في وقت كانت أوربّة فيه تعيش الجهل والظلام والسّبات، ونزاعات القبائل فيما بينها وصراعاتها، بينما كان العرب أصحاب حضارة، واكتشفوا الكثير من العلوم والمعارف التي أخذها -فيما

بعد- الأوربيون وطوروها. وفي ضوء ذلك، أراد الأوربيون التعرف على خفايا تلك الحضارة ومقوماتها، وأسس نجاحها، فأخذ الرحالة الأوربيون يأتون إلى مناطق الشرق فرادى وجماعات؛ لتحقيق تلك الأهداف.

كان العراق بسبب موقعه الجغرافي وثرواته الكثيرة والمتعددة محطة رئيسة من المحطات والبلدان التي يتوقف فيها الرحالة الأجانب، الذين يقصدون الشرق؛ ولذلك فإن أكثر من ثمانية وتسعين رحالة مروا بالعراق خلال المدة (١٥٥٣-١٩١٤م)، حسب ما ذكره (لونكريك) في كتابه: (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث).

ومع غض النظر عن عدد تلك الرحلات، إلا إن الشيء المهم هو أن تلك الرحلات نتج عنها تقارير ومؤلفات ومقالات مفصلة ومسهبة، كلها تصف العراق وأوجه الحياة فيه بطريقة وبأخرى، وأن أولئك الرحالة لم يكونوا من جنس واحد وقومية واحدة، بل تعددت أصولهم وأجناسهم، فمنهم البرتغالي، والألماني، والإيطالي، والفرنسي، والبريطاني، والدنماركي، وغيرهم.

وبما أن العراق يمتلك حضارة عريقة يمتد عمرها إلى آلاف السنين، فإن العديد من مدنه لها امتداد تاريخي عريق؛ ولذلك، فإن أغلب المدن العراقية قد زارها الرحالة، وتوقفوا فيها، وكتبوا عنها بتفاصيل دقيقة، وقد ظهرت العديد من الدراسات التي تُعنى بدراسة ما شاهده الرحالة في تلك المدن، التي بينت أوضاع تلك المناطق في حقبة تاريخية قُلت فيها الكتابات التاريخية والتوثيق من أهلها؛ ولذا، فإن كتابات الرحالة تُعدُّ مادة تاريخية مهمة يعتمد عليها الباحثون والدارسون لمدن العراق المختلفة، وللتعرف على تاريخ تلك المناطق؛ وذلك

لأنّ كتابات الرّحالة لم تقتصر على جانبٍ واحدٍ، بل حوت جوانب متعدّدة: سياسيّة، واقتصاديّة، واجتماعيّة، وثقافيّة، وجغرافيّة، ودينيّة، وقد عدّت تلك الكتابات مجالاً خصباً لإثراء الباحثين في التاريخ وتزويدهم بما يحتاجونه من معلومات بمختلف الجوانب، لاسيّما وأنّ كتب الرّحلات مهمّة جدّاً في التوثيق التاريخيّ؛ لأنّ أغلب الرّحالة كانوا يحتفظون بسجّلات يوثّقون فيها معلومات كاملة ويوميّة عن المناطق التي يمرّون بها، وأيضاً تواريخ نزولهم في تلك المناطق، حتّى وصلت بهم الأمور إلى أن يذكروا السّاعة التي يصلون فيها إلى أيّ مدينة، ويقدّموا معلومات كاملة عن السّكان والأرض والزّراعة والرّعاء والمناخ والحياة اليوميّة والأهوار والثروات الطبيعيّة، كالحوانات والحشائش والأشجار والأوبئة والأمراض، وكذلك المقاييس والأوزان والضرائب، وتعدّى الأمر إلى أكثر من ذلك، بل إنّ بعض الرّحالة كانوا يستقصون ويستفسرون ويسألون حتّى يحصلوا على المعلومات من السّكان المحليّين عن تاريخ تلك المناطق. وعلى الرّغم من دقّة تلك المعلومات وتفصيلها المسهبة، إلّا أنّه لا بدّ من التعامل معها بحذر؛ لأنّ في بعضها أخطاء كبيرة، أو في أحيانٍ أُخرى يريد الرّحالة أن يبيّن الأمور حسب وجهة نظره هو؛ لذا، لا بدّ من التأكّد والحذر عند الاعتماد عليها في الدّراسات التاريخيّة.

ومما يجدر ذكره هنا: أنّ الاهتمام بتاريخ تلك المدن مهمّ جدّاً للتعرّف على الإرث الحضاريّ والثقافيّ لمدّنا؛ لما له من دورٍ كبيرٍ في تشيئة جيلٍ قويٍّ محبٍّ لوطنه وتاريخه وتراثه؛ إذ إنّ الفلسفات التربويّة تؤكّد أنّ من الأسس التربويّة الصحيّحة إبراز الدور الحضاريّ والتاريخيّ لأيّ شعبٍ أو مدينة أو دولة؛ لما له

من أثر في تحفيز الجيل والنشء على الانتفاع من ذلك التاريخ. وعلى هذا الأساس، جاء اختيارنا مدينة القرنه، هذه المدينة الجميلة التي عدّها البعض (جنة عدن)؛ بسبب الطّبيعة التي تمتاز بها؛ ولأنّنا لم نر كتابات تاريخيّة منفردة يبرز تاريخ هذه المدينة المعطاء؛ لذا، حاولنا في هذا البحث إبرازها من خلال وصف الرّحالة الأجانب، الذين مرّوا بها منذ مئات السنين، الأمر الذي يؤكّد عراققتها وتاريخها الطّويل الممتدّ إلى جذور عميقة.

يُحاول البحث تسليط الضّوء على مشاهدات الرّحالة والمسؤولين الأجانب لمدينة القرنه ذات التاريخ العريق والطّبيعة المميّزة والموقع الجغرافيّ المهمّ، الذي جعلها محطة رئيسة تتوقّف فيها السفن التي تحمل الرّحالة وغيرهم من المسافرين من بغداد وإليها، أو بقيّة المناطق، والقادمين من الخليج العربيّ، أو المسافرين عن طريقه إلى مناطق أخرى. كذلك، فإنّ موقعها دفع الدّولة العثمانيّة إلى أن تجعل منها قلعة عسكريّة حصينة قامت بتسليحها بين مدّة وأخرى، ما جعل القرنه محطّ أطماع القوى، سواء المحليّة، أم الخارجيّة، وهذا ما أشار إليه الرّحالة في كتاباتهم. وإنّ البحث يُبيّن -أيضاً- مشاهدات الرّحالة للأوضاع الاجتماعيّة والعادات وطبائع المجتمع.

- مشاهدات الرّحالة الأجانب في القرنين السادس عشر والسابع عشر -

تُعدُّ مدينة القُرنة من أقدم المدن العراقيّة التي ذكرتها كُتُب الرّحالة الذين زاروا العراق في تاريخه الحديث، ويأتي في مقدّمة أولئك الرّحالة الإيطاليّ الجنسيّة (فردريجي)^(١)، الذي وصل إلى العراق عام (١٥٦٣م)، والذي كتب عنها يقول: «قبل الوصول إلى البصرة بيومٍ واحدٍ رأينا قلعة صغيرة تُسمّى القُرنة تقوم في نهاية الأرض، حيث يلتقي دجلة بالفرات، فيكوّنان نهراً عظيماً هادراً تصبُّ مياهه جنوباً في الخليج»^(٢)، ويقصد (فردريجي) بالنّهر العظيم (شطّ العرب)، ويبدو أنّ الرّحالة الإيطاليّين كانوا أوّل مَنْ وصل الأراضي العراقيّة، وسبقوا الرّحالة الأوربيّين الآخرين؛ إذ يأتي (كاسبارو بالبي)^(٣) في المرتبة الثّانية، والذي كان في طريقه إلى الهند، فوصل إلى العراق عام (١٥٨٠م) عن طريق البصرة، وعند وصوله إلى مدينة القُرنة كَتَبَ يقول: «كانت تطيرُ فوق مراكبنا في هذا المكان أسراب هائلة من الذّباب الأبيض، وكان لسعها أشبه بوخز الزّنبور، بل كوخز الإبر، كم كانت مزعجةً ومضرةً في الوقت نفسه»^(٤).

وفي الجانب الاقتصاديّ -وتحديداً الصّرائب-، قال: «كانت القُرنة يُديرها سنجق يستوفي ٢٥ شاهياً»^(٥) عن كلّ مركب يمرُّ من هناك، وشاهيين عن كلّ حملٍ، عدا الثّياب الوبريّة (الأجواخ)، والمخملية؛ إذ يطلبُ عن كلّ حملٍ أربع شاهيات، وكان التّوقّف في مدينة القُرنة يوم (٢٠/آيار/١٥٨٠م)، وعند الوصول إلى قلعة القُرنة تدفع شاهيين عن كلّ سفينة، وزودنا بورقة تشهد بأنّا أدّينا ما يتوجّب علينا من رسوم؛ ولذا، نستطيع المرور، ويتمّ التّوقيع على هذه الشّهادة في كلّ مكانٍ يتوجّب علينا فيه دفع الرّسوم»^(٦).

وينتقل (بالبي) بعد ذلك ليصف (التحصين) في هذه المدينة؛ إذ يقول: «وبعد اجتياز هذه المدينة، وفي نهايتها، رأينا فرعاً للفرات يتحد بدجلة، وقد شيد في هذا الموضع حصن كبير للحراسة، يُسمى (سير سيز اوزاكا)، ويُقيم فيه عددٌ من الجنود لملاحقة السراق»^(٧).

وتحدث (بالبي) - كذلك - عن المناخ، بالقول: «إنَّ الجوَّ حارٌّ جداً في بعض فصول السنة، قد يؤدي ببعض الناس الضَّعفاء، وقد علمتُ شخصياً أنَّ أربعة أنفار كانوا في سفرٍ، فأضناهم التعب والحَرُّ، فجلسوا يستريحون قليلاً، وإذا بهواءٍ حارٌّ هبَّ عليهم أدَّى إلى موتهم بالاختناق»^(٨).

ويصفُ (بالبي) الوضع الاقتصاديَّ وعمل السُّكَّان في القرنه، بالقول: «يستخدمُ السُّكَّان آلةً لطيفةً يصطادون بها كمَّيات وافرة من السمك، وما هذه الوساطة سوى قصبة محدَّدة الرأس لا غير - يقصد بتلك الآلة: الفالة -، ويُضيف (بالبي): «يعيش هؤلاء الناس حياة هانئة لكثرة ما عندهم من الحنطة، والجدير بالذكر أنَّ حبة الحنطة هنا كبيرة جداً تفوق الحجم الاعتياديَّ؛ ويرجعُ سبب ذلك إلى أنَّ حقولهم فسيحة وواسعة جداً؛ لذا، بإمكانهم الزرع في حقلٍ ارتاح مدَّة طويلة من الحصاد الأخير، وقد تطوَّل هذه المدَّة إلى خمسة عشر أو عشرين شهراً، ففي مثل هذه الحالة، يُعطي مثل هذا الحقل ثمرًا جيِّدًا؛ لهذا السبب نرى أنَّ تلك المناطق عامرة بالسُّكَّان والدُّور»^(٩).

يتَّضح من خلال ما ذكره (بالبي) أنَّ الوضع الاقتصاديَّ لمدينة القرنه كان جيِّدًا، وثراءها بالأسماء والثَّربة الجيدة الصالحة للزراعة كان بارزاً، وهذا يعني أنَّ المنطقة كانت مصدِّرةً للأسماء والحبوب؛ لأنَّ ناتجهم كثيرٌ، ويفيُّض عن

الاستهلاك المحلي لسكان القرنة؛ إذ - كما هو معلوم - إنَّ هناك مناطق ومدناً كانت محيطةً بالقرنة، أو قريبة منها، كانت تتعامل معها تجارياً، وتبادل السلع والبضائع المختلفة، ويشير هذا الأمر إلى أنَّ مدينة القرنة كانت متفوّقة اقتصادياً على غيرها من المدن والمناطق، بحكم الطّبيعة التي كانت تتميز بها، ولاسيّما وجود الأهوار والأراضي الزراعيّة الخصبة، التي تُعدُّ من المقومات الأساسيّة لنجاح الزراعة في أيِّ مكانٍ في العالم.

وفي بداية القرن السّابع عشر، وتحديدًا في عام (١٦٠٥م)، دخل العراق الرّحالة البرتغاليّ (بيدرو تيجيرا)^(١٠)، الذي مرَّ بمدينة القرنة؛ إذ ذَكَرَ عَنْ مَوْقِعِهَا بِأَنَّهَا آخِرُ نَقْطَةٍ مِنْ بِلَادِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ، وَتَقَعُ عَلَى بُعْدِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ شِمَالِي مَدِينَةِ الْبَصْرَةِ، وَقَدْ وَصَفَ (تيجيرا) الْقُرْنَةَ بِالْقَوْلِ: «تَوْجَدُ فِيهَا قَلْعَةٌ لِلْأَتْرَاكِ، تُسَمَّى (الْقُرْنَةُ)، أَيُّ: النَّقْطَةِ، وَهِيَ تُشْرِفُ عَلَى الْقَنَاَتَيْنِ، وَهَنَا يَتَّحَدُ النَّهْرَانِ لِيَصْبَا مِيَاهُمَا بَيْنَ شَوَاطِئِ مَسْتَوِيَةٍ عَلَى كِلَا الصَّفَتَيْنِ، الَّتِي يَسِيرُ عَلَى السَّهُولِ الشِّمَالِيَّةِ أَوْ الْفَارِسِيَّةِ مِنْهَا الزَّعِيمُ الْعَرَبِيُّ (مَبَارَكُ بْنُ مَطَّلَبٍ)، الَّذِي يَخُوضُ - الْآنَ - حَرْبًا مَعَ السُّلْطَانِ التُّرْكِيِّ، مَدَّعِيًا بِأَحْقَاقِهِ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ وَأَرَاضِي الْبَصْرَةِ»^(١١).

أَمَّا عَنِ الْوَضْعِ الْاِقْتِصَادِيِّ وَالثَّرْوَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ، فَذَكَرَ (تيجيرا): «شَاهَدْنَا قِطْعًا وَأَسْرَابًا كَثِيرَةً، وَطُيُورَ أُورْ، وَبَطَّ وَدَجَاجٍ، وَبِهَائِمَ أُخْرَى، أَمَّا السُّكَّانُ، فَهَمْ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ يَتَوَاصِلُونَ فِيهَا بَيْنَهُمْ سَبَاحَةً عَلَى جُلُودٍ مَنْفُوخَةٍ (قَرَبٍ)، وَقَدْ جَاءَ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ إِلَى سَفِينَتِنَا لِبَيْعِ الدَّجَاجِ الْبَحْرِيِّ وَالْإِوزِ وَالْحَلِيبِ وَالزَّبْدَةِ وَالتَّمُورِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَطْعَمَةِ، وَكُلُّهَا بِأَسْعَارٍ زَهِيدَةٍ جَدًّا»^(١٢). وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَوَافُرِ الْمُنْتَجَاتِ الزَّرَاعِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الثَّرْوَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ بِمُخْتَلَفِ أَنْوَاعِهَا، الَّتِي كَانَتْ

تتميّز بها مناطق الأهوار؛ لتوافر المقوّمات الطّبيعيّة لتزايدها.

أمّا الرّحالة الآخر الذي زار العراق ومرّ بمدينة القُرنة، فهو الإيطاليّ (الأب سبستيان)^(١٣)، وذلك في عام (١٦٥٦م)، وعند وصوله إليها وصفها بالآتي: «القُرنة يلتقي فيها دجلة بالفرات بعد أن يُخلّفا بحيرات -أهواراً- واسعة على طريقيهما، تُدفع فيها ضريبة المكوس عن البضائع التي تحملها القوارب، وعندما اتّجه القبطان إلى المكان الذي تُدفع فيه الضّريبة، هبّت رياحٌ قويّةٌ مزّقت الشّراع من أعلاه إلى أسفله، ودفعتنا بعيداً، فجاء رجالُ الكمرِك إلى هناك ليستوفوا الرّسوم، ولم يُلقوا نظرة على أمتعتنا، فقد اعتبرونا دراويش فرنجيّين، وهذه عادة الكمارك العثمانيّة في معاملتها لرجال الدّين».^(١٤)

ويُضيف (سبستيان)، قائلاً: «يُحيط بالقُرنة أسوار شديدةٌ باعتناء بالغ، لكنّها ليست ذات شأنٍ؛ لأنّها من طين، والقُرنة بلدة كبيرة على ما تظهر، وموقعها مهمٌّ؛ نظراً لكونها مشيّدّة أمام هذا النّهر الواسع العظيم، وإلى يسارها فرعٌ كبيرٌ من دجلة؛ إذ يلتقي هناك من جديد».^(١٥)

ويُعطي (سبستيان) انطباعاته عن السّكّان، فيقول: «إنّهم يؤدّون الصّلاة يومياً منذ الصّباح الباكر عند نهوضهم، ثمّ في منتصف النّهار، وفي المساء عند الغروب، وهم يُصلُّون بسجّاداتٍ وركعاتٍ وانحناءاتٍ متكرّرة، ولم يتأخّروا عن موعد أداء الصّلاة، فكأنّوا ينزلون عن الخيل ويتركون كلّ عملٍ آخر من أجل القيام بالصّلاة، وللمسلمين أدعيةٌ كثيرةٌ وأوراُدٌ يردّدونها دائماً، ونحن في المركب، يطلبون من الله السّفر الميمون الموفّق».^(١٦)

وهنا نودّ أن نبيّن أنّ مهنة الرّحالة أو أعمالهم يكون لها تأثير كبير على انطباعاتهم

ومشاهداتهم؛ إذ يركّز كثيراً على الجانب الذي يمتنّيه؛ ولذا، لاحظنا (سبستيان) يتحدث بهذه الطريقة عن السُّكَّان، ولم يُغفل الجانب الدِّيني؛ لكونه رجلَ دين. وفي الوقت نفسه، تزامنت زيارة (سبستيان) مع رحلة (فنشنسو)^(١٧) إلى العراق؛ فيقول: «وفي اليوم الخامس من أيلول (١٦٥٦م)، وصلنا إلى المنصورية، حيث يلتقي دجلة بالفرات، فيكوّنان نهراً واحداً يُسمّى (شطّ العرب)، وتجري مياه دجلة في جهة ومياه الفرات من الجهة الأخرى من هذا الشطّ»، وأضاف: «هنالك في البقعة الواقعة عند ملتقى النهرين قلعتان قريبتان من ضفاف الفرات، لهما مظهر القوّة والحصانة؛ لكثرة ما فيهما من الأبراج العالية والجدران العديدة فوق الأسوار، فهما والحالة هذه تصلحان لمقاومة هجمات البدو؛ نظراً لافتقارهم إلى المدافع والأسلحة النارية، لكنّهما لن تقفان [كذا] أمام الأسلحة الحديثة»^(١٨). ومن الرّحالة الآخرين الذين أعطوا تفاصيل كثيرة عن القرن في القرن السابع عشر، هو الفرنسيّ (تافرنيه)^(١٩) عام (١٦٧٦م)، الذي قال عنها: «ويقرنُ الفرات بدجلة عند هذه المدينة الأخيرة، التي فيها ثلاث قلاع، الأولى في ملتقى النهرين، وهي أحصنها، فيها يُقيم ابن أمير البصرة الذي يحكمها، والثانية في جانب كلدية، والثالثة في جانب بلاد العرب، ومع أنّه يُطالب هناك بالرّسوم الجمركيّة بتمامها، فتُدفع، فإنّهم لا يُفتشون أيّ شخص، ويصل مدّ البحر إلى هذا المكان»^(٢٠).

وعن ثروات هذه المدينة، قال (تافرنيه): «إنّ هذه الأراضي من أحسن ما يمتلكه السُّلطان؛ لاشتغالها على مراعي واسعة، ومروجٍ نضيرة، يُربّى فيها عدد كبير من الحيوانات، خاصّة الأفراس والجواميس، ومدة حمل الجاموس اثنا

عشر شهراً، وهي تدّر حلياً وافراً جداً، حتّى أنّ بعضها يدّر اثنين وعشرين بنتاً - البنت يساوي ثمن الغالون - في اليوم، وتُستخلص منه مقادير وافية من الدهن»^(٢١).

وقد بيّن (تافرنيه) في رحلته مقدار الضرائب التي تُستوفي في القرنه؛ إذ يقول: «يُدفع عن كلّ رأس جاموس - ذكراً كان أم أنثى - قرش وربع قرش في السنة، وعلى كلّ فرس يُدفع قرشان، وعلى كلّ شاة عشر سوات - السّونقد فرنسيّ يساوي ٢٠ / ١ من الفرنك الفرنسيّ، أي: ما يُعادل خمس سنتيمات»^(٢٢). فضلاً عن ذلك، فإنّ (تافرنيه) بيّن أموراً آخر بالقول: «إنّه لا يُمكن المرور من قلعة القرنه - المزوّدة بمدفع - دون إذن، والتقينا بابن أمير البصرة، الذي كان حاكم القلعة، وهنا يُسجّل حساب الكمارك، ومع أنّ رجال الكمارك يُمعنون في تحرّي السفن، فإنّهم كثير و اللّطف، فلا يفتشون أيّ شخص، وعند قيامهم بهذا الواجب لا يهتمون بالتفتيش عن البضائع المخبّأة بين ألواح السفينة، أو المغطّاة بالخطب والعيدان، ولموظّفي الكمر ك مثقّب طويل يجسّون به جوانب السفينة لاكتشاف ما قد يكون فيها من بضاعة مخبّأة. إنّ البضاعة تُسجّل في القرنه، ولكنّ رسوم البصرة تُدفع دائماً في البصرة بحسب القائمة المعطاة من قلعة القرنه»^(٢٣). وقد تحدّث (تافرنيه) عن الصّابئة، الذين أطلق عليهم نصارى القديس يوحنا، وقال: بأنّهم كثيرون في البصرة والقرى المجاورة لها، وأنّهم لا يسكنون في المناطق التي لا يجري فيها نهر»^(٢٤).

- مدينةُ القُرنة كما وصفها الرَّحالةُ الأُجانبُ في القرنِ الثَّامنِ عشر -

لم يقتصرِ قَدَمُ مدينةِ القُرنة على ذكرها من قبل الرَّحالةِ الذين مرُّوا بها خلال تلك القرون، بل إنَّ بعض الخرائط التَّاريخيَّة التي رُسمت خلال القرن الثَّامن عشر قد ظهرت فيها مدينة القُرنة، ومن تلك الخرائط الخريطة التي نشرها الجغرافيُّ الهولنديُّ (إسحق تيريون) في سنة (١٧٣٢م) (تُنظر الخريطة في نهاية البحث)^(٢٥).

وكان من أبرز الرَّحالةِ الأُجانبِ الذين زاروا العراق وكتبوا معلومات تفصيليَّة عن مدينة البصرة عام (١٧٦٥م)، الألمانيُّ (كارستن نيبور)^(٢٦)، الذي مرَّ بمدينة القُرنة، ووصفها بالقول: «تقع القُرنة في الزَّاوية التي يتَّصل فيها الفرات بدجلة، وهي مبنيةٌ بشكلٍ مُزِرٍ تماماً، إلَّا إنَّ لها من جهة البرِّ سوراً مضاعفاً مشيداً بطابوق الجدران المجفَّف في الشَّمس فقط، واستناداً إلى المعلومات التي توفَّرت لديَّ في البصرة، فإنَّ هذه المظاهر جميعاً ليست بقديمة جدًّا، وقد شيَّدها الباشوان.. (عليَّ وحسين)، اللذين اتَّخذا من هذا الموقع قلعةً للحدود ضدَّ الأتراك والفرس. وهناك في الوقت الحاضر خمس (أورطات)، أو أفواج، من الانكشارية، لكلِّ منهم قدرهم (قازان)، وبالرَّغم من أنَّ القُرنة تتمتَّع بموقعٍ ممتاز، فليس فيها أيُّ تجارة تُذكر، وفي الوقت نفسه، يجبُ على كافَّة السَّفن المارَّة من هناك أن تتوقَّف فيها لأداء الرِّسم الكمركيِّ للانكشاريَّة»^(٢٧)، وأضاف (نيبور) في وصفه: «لم أوفق إلى تعيين خطِّ عرض هذه القلعة، وقد جلبتُ رسالة توصية لضابط الانكشاريَّة، وهو ذو رتبة عالية، ويقيم هناك، وقد عاملني بمجاملةٍ فائقةٍ، وطلب منِّي تناول الطَّعام معه، الأمر الذي لم أتمكَّن من رفضه»^(٢٨).

وبعد (نيبور) حلَّ الرحالة الإيطاليّ (سيستيني) في مدينة القرنه، أثناء رحلته من إسطنبول إلى البصرة عام (١٧٨١م)؛ إذ قال: «نحو الساعة الرابعة من (٢٩) أيلول، عبرنا نقطة بأرض بين النهرين -أي: القرنه-، فألقينا عليها التّحية برشقات من بنادقنا، لكي يعلموا بأنّ قاربنا هو قارب البريد، وأنّنا [لا] نحمل بضائع تجارية، وبمعنى آخر: إنّنا لا نخضع لدفع ضريبة المرور»، وأضاف في وصفه لموقعها ومناخها ومنتجاتها: «تقع هذه المدينة -أي: القرنه- على بُعد خمسة عشر ميلاً من البصرة، ولهذه المدينة وما يُجاورها منظرٌ لطيفٌ من هذه الزّاوية، أكثر ما من جهة نهر دجلة، ورغم جمال المنطقة، فإنّني لا أرى فيها جنة عدن؛ إذ كلّ ما هناك عددٌ من النّخيل وأشجار التّوت، وكانت ضفاف النّهر من الجهتين عامرة بالنّخيل قبل نشوب الحروب بين العثمانيين والفرس، لكنّ تلك الحروب قضت على معظمها»^(٢٩).

فضلاً عن ذلك، فإنّ (سيستيني) أعطى وصفاً عن منتجات ونباتات مدينة القرنه؛ إذ ذكّر: «يكثر هنا القصب، ويُتاجر النّاس به، فيصنعون منه الحُصران (البواري)، التي تُباع في أسواق البصرة، وتُستعمل للتّسعيف، كما أنّ خيام بعض أعراب الصّحراء مصنوعة من هذه الحُصران -أيضاً-، ويصنعون منها -أيضاً- قوارب طويلة تحمل نفراً واحداً، أمّا القصبه المتينة، فتُستعمل كمجذاف. نهر الفرات -هنا- عريضٌ ومهيّبٌ، وتكثر فيه عصافير الماء، وخاصّة مالك الحزين...»^(٣٠).

وفي نهاية القرن الثّامن عشر زار القرنه الرحالة البريطانيّ (تايلر)^(٣١)؛ إذ يقول: «إنّ أوّل ما يُصادفُ المسافر بعد مغادرته البصرة بطريق النّهر هو القرنه،

حيث يلتقي النهران دجلة والفرات، وتقعُ القرنة على بعد أربعين ميلاً إلى شمال البصرة، وللحكومة في تلك المنطقة أسطول من السفن، تضعه هناك للمحافظة على الأرض والتجارة النهرية، وهذه المدينة ثلاث حصون، وأوها مقام على أرض بارزة في النهر، والثاني مواجهة لأرض كلديّة، والأخير يقعُ باتجاه بلاد العرب، ويستغرق السفر من البصرة إلى القرنة (١٢ - ١٤) ساعة^(٣٢).

ومن الرّحالة الآخرين الذين قدموا إلى العراق، ومروا بمدينة القرنة عام (١٧٩٧م)، البريطانيّ (جاكسون)^(٣٣)، الذي قال: إنّ القرنة هي ملتقى نهر دجلة والفرات، كما أنّه وصف ما شاهده بالقول: «كانت إحدى السفن الحربيّة تمخرُ على مقربةٍ من الوسط بين النهرين، وهي سفينة حراسة تقوم بمطاردة السفن الأخرى التي تنهّرب من دفع الرّسوم المترتبة عليها، ومنعها من المرور، فالنهران باتحادهما هنا معاً يؤلّفان مجرىً مائياً هائلاً عذّباً، ويُطلق السكّان على هذا المجرى من هذا المكان حتّى الخليج العربي اسم (شطّ العرب)، ولم يعد للمدّ أدنى تأثير على المياه في القرنة، إلّا في الأيام التي فيها القمر بدرّاً، أو محاقّاً، وحتّى في تلك الأيام لا ترتفع المياه إلّا قليلاً، أمّا التّيّار، فلن يتحوّل»^(٣٤).

فضلاً عن ذلك، فقد تحدّث عنها (جاكسون): «هي قريةٌ صغيرةٌ محاطةٌ بسورٍ طينيّ تضمّ سكّنة قلائل، لا يزيد عددهم كثيراً، والواقع أنّه يوجد بستان نخيل غير واسع يقع بين القرية والنهر، يؤلّف ظلاً مستحبّاً هناك»^(٣٥).

أمّا عن الصّرائب التي تُؤخذ في القرنة، فقد «كان ضبّاط الكمارك يتوقّعون أن يُحصّلوا على هديّة من دليلنا، ولكن، مادام لا يحمل أيّة بضاعة معه، فلم يدفع إليهم شيئاً ما»^(٣٦).

- مشاهدات الرّحالة الأجانب لمدينة القُرنة في القرن التاسع عشر -

وفي بداية القرن التّاسع عشر، كان أوّل رحّالة دخل الأراضي العراقيّة هو (أبو طالب خان)^(٣٧)، الذي قال عن القُرنة: «وفي الثّاني والعشرين من ذي القعدة عام (١٢١٨م)، الموافق السّادس عشر من آذار (١٨٠٤م)، دخلنا مدينة القُرنة، وعند جدرانها يلتقي الفرات ودجلة، ويكوّنان نهراً أعرض من نهر الكانج بضعتين، ويُسمّى شطّ العرب، أي: نهر العرب، ويصبّ في الخليج الفارسيّ»^(٣٨)، حسب ذكره.

وأكد الرّحالة الفرنسيّ (دوبريه)^(٣٩)، الذي زار العراق عام (١٨٠٩م)، ما ذكره الرّحالة الآخرون عن مدينة القُرنة، لاسيّما جغرافيتها، فقد قال عنها: «القُرنة هي المكان الذي يتّصل به نهر الفرات بنهر دجلة، وإنّ هذه المدينة كان يُطلَق عليها قديماً (دكبة) (Digba)، عند بليني، أو هي (أباميا) (Apamee) عند بطليموس، ونجدُ هناك إلى اليوم حصناً، وفيه قائد، يُعيّنه والي بغداد»^(٤٠)، وتحدّث دوبريه -أيضاً- عن أهمّيّتها التجاريّة بالقول: «إنّ المراكب التجاريّة القادمة من بغداد، تلك المراكب طويلة وعريضة وواسعة، وإنّها تحمل ألفي قنطار»^(٤١)، وتحتوي على غرفتين صغيرتين لكنّهما غير مريحتين، تلك المراكب بمدينة القُرنة»^(٤٢).

كذلك فقد زار القُرنة الرّحالة (المنشي البغداديّ)^(٤٣) عام (١٨٢٠م)، ووصف القُرنة بالقول: «هي حافّة شطّ بغداد من جهة، وعلى حافّة الفرات من الجهة الأخرى، وهناك يتّصل الفرات بدجلة، ويصيران نهراً واحداً، يُقال له: شطّ العرب، ومن القُرنة يوم واحد بالسّفن للوصول إلى البصرة»^(٤٤).

وكان (خورشيد باشا أفندي)^(٤٥) مِنَ الرَّحَّالَةِ الَّذِينَ زَارُوا الْعِرَاقَ، وَتَوَقَّفَ فِي مَدِينَةِ الْقُرْنَةِ، وَوَصَفَهَا بِالْقَوْلِ: «تَقَعُ قَصْبَةُ الْقُرْنَةِ شِمَالِ مَدِينَةِ الْبَصْرَةِ عَلَى مَسَافَةِ ثَمَانِ سَاعَاتٍ مِنْهَا، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قَرْيَةٍ تَقَعُ فِي مَكَانٍ يُشَبِّهُ الزَّوَايَةَ إِلَى يَسَارِ نَهْرِ الْفَرَاتِ، وَعَلَى يَمِينِ نَهْرِ دَجْلَةٍ، فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَلْتَقِي فِيهِ دَجْلَةُ بَنْهَرِ الْفَرَاتِ، وَمِنْ ثَمَّ فَهِيَ تَقَعُ بَيْنَ النَّهْرَيْنِ، وَتُعَدُّ بِمِثَابَةِ بَدَايَةِ الْقِطْعَةِ الْكَبْرَى الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا اسْمُ (الْجَزِيرَةِ)، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ (جَهَانَنَامَا)، وَسَائِرِ الْكُتُبِ التَّارِيخِيَّةِ الْأُخْرَى، إِنَّ قَلْعَةَ الْقُرْنَةِ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي تِلْكَ الْقَصْبَةِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَجُودِ بَعْضِ أَطْلَالِ تِلْكَ الْقَلْعَةِ فِي الْوَقْتِ الْحَالِي، فَإِنَّهُ لَا يُوجَدُ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ قَلْعَةٌ، وَبِالْقَرْيَةِ جَامِعٌ يُعَدُّ مِنَ الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ، وَعَدَدٌ مِنَ الْأَبْنِيَةِ الَّتِي بُنِيَتْ بِالطُّوبِ الْأَجْرَ مُؤَخَّرًا، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ أَكْوَاخٍ أَسْقَفُهَا مَصْنُوعَةٌ مِنَ الْخُوصِ»^(٤٦).

أَمَّا عَنْ الصَّرِيبةِ وَبَسَاتِينَ الْقُرْنَةِ، قَالَ: «يَذْهَبُ مَوْظَفُو الْبَصْرَةِ إِلَى قَصْبَةِ الْقُرْنَةِ لِاسْتِيفَاءِ الرِّسُومِ الْجُمْرَكِيَّةِ، وَدَائِمًا مَا تُوجَدُ سَفِينَةٌ مِنْ أُسْطُولِ الْبَصْرَةِ تَقْفُ هُنَاكَ لِضَمَانِ عَدَمِ هَرُوبِ التُّجَّارِ مِنْ دَفْعِ الرِّسُومِ الْجُمْرَكِيَّةِ، وَبِقَرْيَةِ الْقُرْنَةِ بَسَاتِينَ لِلنَّخِيلِ كَثِيرَةٌ جَدًّا، مِنْهَا مَا يَتَّبِعُ الْبَصْرَةَ، وَمِنْهَا مَا يَتَّبِعُ عَشِيرَةَ (مَنْتَفَك) التَّابِعَةَ لِلْبَصْرَةِ، وَمِنْ الْأَشْيَاءِ الْجَدِيدَةِ بِالذِّكْرِ فِي تِلْكَ الْمَقَاطِعَةِ، نَوْعٌ مِنَ الْجَبْنِ يَقُومُونَ بِتَشْكِيلِهِ مِثْلَ الصَّاجِ»^(٤٧).

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الرَّحَّالَةِ الْبَرِيطَانِيِّ (سُوَانْسَن كُوبِر)^(٤٨)، الَّذِي مَرَّ بِالْقُرْنَةِ عَامَ (١٨٩٣م)، فَقَدْ قَالَ فِي وَصْفِهَا: «عِنْدَ مُتَنَصِّفِ النَّهَارِ، وَصَلْنَا إِلَى الْقُرْنَةِ، حَيْثُ يَلْتَقِي أَخِيرًا دَجْلَةُ وَالْفَرَاتِ، بَعْدَ جَرِيَانِ طَوِيلٍ مِنْ بُحِيرَةِ وَا، لِجَرِيَا مَعًا فِي

نهر واسع كبير، ويصبّأ في البحر، حيث تقع قرية القرنه، وهي لا يمكن أن تكون سوى قرية في بقعة ضيقة من الأرض، وسط بساتين النخيل المثمرة. يُثير المكان شيئاً من المتعة بسبب الرواية المحليّة بأنّه يُمثّل موقع (جنة عدن)، من المؤكّد أنّه مكانٌ ساحرٌ، وهو يُضفي على نفسه هالة من الرومانسيّة، لم يكن ماء الفرات عندما يلتقي بدجلة مضطرباً كما كنتُ أراه دائماً؛ لأنّ مياهه تتبدّد قبل أميال قليلة من وصوله للقرنة في الأهوار، وتبعدُ القرنة حدود خمسين ميلاً شمال البصرة؛ حيثُ تطيرُ الغربان، وُضعف هذه المسافة من البحر كان يقف هناك -عندما مررنا- قارب مدفعيّة تركي^(٤٩).

مشاهدات الرحالة والمسؤولين الأجانب في بداية القرن العشرين

ومن الرحالة الآخرين الذين مرّوا بالعراق، وتوقّفوا في مدينة القرنه، الرحالة الدّانماركيّ (باركلي رونكير)^(٥٠)، الذي كانت مهمّته الأساسيّة الوصول إلى الجزيرة العربيّة؛ للتعرّف على الحركة الوهابيّة، وفي طريقه إلى نجد، وأثناء مروره في العراق، وخلال مسيرته في الطريق من بغداد إلى البصرة، وقبل وصوله إلى القرنه، قال: «كنا نرى القرويين يُطلّون علينا من أكواخ على شاطئ النّهر، مبنية من أعواد قصب، يسهل أن يتلعها الماء لو زاد ارتفاعه نصف متر فقط»، وأضاف -أيضاً-: «كانت كلاب القرويين تنبح عندما ترى السفينة التي بدورها لا تأبه لما يجري حولها، وتستمرّ في انسيابها، مُخلّفة وراءها أولئك النّاس مع كلابهم، وأعمدة الدّخان الأزرق تتصاعد من أكواخهم»^(٥١).

وأضاف (رونكير): «لقد مررنا على واحة القرنه الغنيّة بنخيلها الفاخرة،

ودخلنا مجرى شطّ العرب العريض، حيث اختلطت مياه نهر دجلة ذات اللون الأصفر الداكن مع مياه الفرات الزرقاء، كما اختلط -أيضاً- صوت المؤذّن مع تلاطم مياه النهر على جانبي السفينة، وتعلّت دعوات الحجاج العائدين من النّجف وكربلاء إلى العليّ القدير، بينما انحدر قرص الشّمس الأصفر نحو المغيب في نهاية ذلك اليوم من يناير (٢١)، عام (١٩١٢م)، مخلّفاً وراءه منظراً جميلاً رائعاً، أشعل الأفق ببهارٍ من النّار المتوهّجة، ارتفعت فوقها هامات أشجار النّخيل، كأعمدة سوداء تناطح السّماء، وبعد حلول الظّلام، وظهر الأنوار التي انتشرت على شواطئ النّهر، أرخيننا قلوبنا انتظاراً ليوم جديد يأخذنا إلى البصرة نهاية الرّحلة النّهريّة»^(٥٢).

الواقع أنّ وصف مدينة القرنه لم يقتصر على كتابات الرّحالة الذين مرّوا بها، بل إنّ هناك بعض المسؤولين الأجانب الذين تمّ تكليفهم بجمع معلومات عن مناطق الشّرق، يأتي في مقدّمهم البريطانيّ (لوريمر)^(٥٣)، الذي قال عن القرنه: «يقع قضاء القرنه على كلا ضفتي شطّ العرب مباشرة، أسفل المكان الذي يتكوّن فيه النّهر من التقاء نهري دجلة والفرات، ويوجد المركز الإداريّ للقضاء محصور [كذا] بين دجلة والفرات أعلى التقائهما»، وأضاف: «تعتبر قرية القرنه أهمّ مكان في القضاء، وهي -أيضاً- صغيرة الحجم، وأهمّ القبائل في القضاء هم: أهل الجزاير، وبنو مالك، وبنو منصور، ويُقدّر عدد سكّان القرنه بنحو (٣٠٠٠٠)، نسمة كلّهم تقريباً عربٌ شيعة»^(٥٤).

فضلاً عن ذلك، فإنّه أعطى وصفاً عن مناخ القرنه ومنتجاتها وعمل سكّانها؛ إذ قال: «القضاء رطب وغير صحّيّ، ولكنّ أرضه خصبة وحسنة الرّي، وتوجد

مساحات واسعة من النّخيل والأرز، وكميّات قليلة من القمح والشّعير، والحيوانات كثيرة خاصّة الجاموس، والإنتاج الوحيد هو الأعشاب (السّمار) - البردي - التي يُصنع منها الحصر، أمّا سكّانها، فإنّ معظمهم يعمل في المناطق المجاورة في زراعة القمح والشّعير والأرز، ويوجد في القُرنة مركز للجمارك والحجر الصّحّي، ومكتب للتّلفراف»^(٥٥).

الواقع أنّ جمع المعلومات عن هذه المناطق لم يقتصر على المسؤولين الذين تمّ تكليفهم بذلك، بل إنّ بعض المسؤولين - وبحكم عملهم في العراق - فإنّهم قدّموا معلومات تفصيليّة عن مدنه وقراه، وبجميع المجالات، ومنهم القنصل الرّوسيّ في البصرة (ألكسندر أداموف)^(٥٦)، الذي كتب عنها: «قضاء القُرنة عبارة عن مستنقع واسع يحوي مساحات صغيرة من اليابسة، يسكنها الأعراب، الذين يربّون الجاموس، ولا توجد فيه أماكن تستحقّ الذّكر، فيما عدا القُرنة نفسها. وهذه الأخيرة التي تقع على بعد (٧٠) فرسخاً^(٥٧) إلى الأعلى من البصرة، وعلى نفس البعد تقريباً من سوق الشّيوخ على الفرات، والعمارة على دجلة، تبدو كقرية كبيرة، لكنّها - رغم ذلك - شهدت في السّابق أوقاتاً أفضل»^(٥٨).

كما تحدّث (أداموف) عن تاريخها، قائلاً: «تأسّست القُرنة حسب المعلومات التي أوردها نيبور في بداية القرن الثّامن عشر، كحصن ضدّ الفرس؛ ولذا، فإنّها أحيطت بسور مزدوج، وترابط فيها باستمرار حامية لا يُستهان بها. وهكذا نرى أنّ الموقع الاستراتيجي للقُرنة قد جرى تقييمه منذ ذلك الوقت؛ ذلك أنّها تسيطر على وادي دجلة والفرات، فتكون بذلك خطّاً دفاعيّاً جديداً يُضاف إلى دلتا شطّ العرب، ولكنه يتميّز عنها في أنّ جناحه لا تُهدّده أيّة محمّرة، كما هي الحالة بالنّسبة

لحصن الفاو»^(٥٩).

فضلاً عن ذلك، فإنّ (أداموف) ذكر الخراب والدّمار الذي مرّت به القرنة خلال القرن التاسع عشر: «تخرّبت القرنة تماماً بحيث لم يجد فيه ولستيد في عام (١٨٣٦م) إلا أكواخاً من القصب لا يزيد عددها عن (٣٠-٤٠) كوخاً، يسكنها جميعاً أناس غرباء، هم بالدرجة الأولى الموظّفون الأتراك، ومنذ ذلك الوقت، أخذت القرنة تعودُ بعض الشيء إلى حالتها الأولى، إلى أن أصبح يسكنها حالياً ما بين (٢٠٠٠-٣٠٠٠) نسمة، كما قامت فيها إلى جانب أكواخ القصب، أو الصّراف، بنايات من الآجر، يشغلها القوناق، أي: مكتب القائم مقام، ومحطة التلغراف، ودائرة الكمارك، وغيرها من المؤسّسات العامّة»^(٦٠).

أمّا عن أهميّة القرنة، فذكر (أداموف): «وللقرنة إلى جانب موقعها الاستراتيجي الجيد أهميّة تجارية؛ وذلك بفضل صلاحية شطّ العرب لسير السفن البحريّة الكبيرة، حتّى نقطة التقاء دجلة والفرات؛ ولهذا، فبمجرّد أن تأسست القرنة، اتخذت دور المركز الذي تتجمّع فيه البضائع القادمة عن طريق الخليج، ومنه تتوزّع على المناطق المتاخمة لضفاف أعظم نهرين في مقدّمة آسيا، وذلك كما كان الحال تماماً في منتصف القرن السابع عشر، عندما أقام البرتغاليون هناك محطة تجارية لهم، ظلّت أطلالها قائمة حتّى بداية القرن السّابق»^(٦١). وقد وصف (أداموف) -أيضاً- الشّجرة المشهورة في القرنة، التي يُطلق عليها البعض بشجرة آدم^(٦٢)؛ إذ قال: «ولا يمكننا أن نصف القرنة وصفاً كاملاً دون أن نذكر الأسطورة التي تقول بأنّها تقع في الموضع الذي كانت تقوم به جنّة أجدادنا، ولتأكيد ذلك يقوم سكّان القرنة بإطلاع الرّحالة المحيّن للاستطلاع على (شجرة

إدراك الخير والشر)، وهي عبارة عن شجرة طلع عربيّة قديمة تقوم على الضّفة اليمنى لنهر دجلة، بعيداً بعض الشيء عن بساتين النّخيل المحليّة»^(٦٣).
وخلال الحرب العالميّة الأولى، تعرّض العراق إلى الاحتلال البريطاني؛ إذ دخلت جيوش المحتلّين المدن العراقيّة؛ ولذا، فإنّ بعضهم دَوّنَ معلومات قيّمة عن تلك المدن، وكانت كتابات (سيرل بورتر)^(٦٤) واحدة منها؛ إذ إنّ المعلومات التي وصف بها بورتر مدينة القُرنة كانت عبارة عن معلومات كان يُرسلها إلى أخته (دورا)، التي كان يُطلّعها على المناطق التي يصل إليها، ويصف أحوالها المختلفة وجوانبها المتنوّعة بدقّة متناهية.

يذكر (سيرل بورتر) عن القُرنة: «أتمها قرية صغيرة جدّاً، يُقال فيها شجرة آدم التي بالقرب منها جنة عدن التي طُرد منها آدم»، كذلك يُضيف بورتر في وصفه مدينة القُرنة، قائلاً: «المنطقة هنا أخاذاً فعلاً، لم تُستنزف من قبل البشر بعد، والأهوار تملأ الأرض كلّها، مساحات من الأرض المزروعة الخضراء، وثمّ مساحات ومساحات من ألق المياه والمستنقعات المائيّة التي تبدو مثل المرايا الملتعّة، ورُغم عُتمة الليل وطول الأمسيّ، إلّا إنّ السّير ليلاً يغمُرني بالنّشوة، فالنّجوم تزهو بأشعتها القويّة، وتجدينها تخفو وتتلأّأ بزهو، ثمّ ترنو إليّ، ومراقبتها تغمر الرّوح بالسّكينة والطّمأنينة، وتعادل ساعات من اليوجا، والأرض شاسعة، وتبدو واسعة جدّاً؛ لقلة البشر فيها؛ إذ لا أعتقد بأنّ نفوس هذه البلاد من الجنوب إلى الشّمال يتجاوز المليونين على أكثر تقدير»^(٦٥).

ويصف (بورتر) عمليّة صيد الأسماك، بالقول: «رأيت رجلاً في منتصف العمر، وبيده آلة تُشبه الشّوكة الكبيرة، ويغرزاها بسرعة مدهشة، ويُخرجها

وسمكة حيّة تلبط معلقة فيها، وتُسمّى هذه الآلة بـ(الفالة)، إنّها طريقة ذكيّة لصيد الأسماك». ويتّضح من وصف (بورتر) لعملية صيد الأسماك أنّ المنطقة كانت تمتاز بوجود كمّيات كبيرة من الثروة السمكيّة، التي قال عنها: «الأسماك تملأ هذا السطح المائيّ الهادئ البراق الجليل، وكذلك مختلف الطيور الجميلة الغريبة نهاراً. عندما لا أكون منشغلاً مع الفريق الهندسيّ، أبقى أراقب تلك المخلوقات التي تطفو على الماء وتلتقط عيشها، سمكة كانت أمّ عشباً بحريّاً أو دودة صغيرة، وتجدها لاهية عن كلّ ما يُحيط بها، وبما أنّ القوّات التركيّة قليلة العدة والعدد، فإنّ الحرب لم تستطع إخافة الطيور بعد، والمدافع نسبياً بعيدة عن المنطقة التي نحن فيها»^(٦٦).

ويصف (بورتر) السمك وطبخه بالقول: «السمك طعمه لذيذ جداً، وطريقة طبخه غريبة حقّاً؛ إذ إنّهم أولاً يقطّعون السمك من الظهر، أي: بالقرب من الهيكل العظميّ، ثمّ تفتح السمكة، وتبدو وكأنّها قطعة واحدة، ويُبقون على الجلد والرأس، ثمّ تُغرّز بعض العيدان الرقيقة نسبياً في الأرض بشكل قوسٍ، وتُشعل النار بالقرب من تلك العيدان، ولا أدري كيف لا تُحرق تلك العيدان؟! تُعلّق السمكة على تلك العيدان، وتحتها نار هادئة، وبعد فترة ليست بالقليلة، تُوضع السمكة مباشرة على النار.. اللحم اللذيذ إلى الأعلى، والجلد على العيدان المتجمّرة، رائحة الشواء تُركم الأنوف، وتفتح الشهية، وتمتدّ الأصابع لتنهش اللحم المشويّ، وبمهارّة يفصل اللحم عن الأشواك العظيمة، كنتُ أحاول جاهداً تقليدهم، فلم أفلح بابتلاع ولو لقمة واحدة، وقام دليلنا -الملاح إبراهيم- بفصل اللحم عن العظم، ووضعه على رغيف خبز، وقدمه لنا

نحن الضباط، وكانت وجبة لذيذة حقاً، إلا إن أكثر الضباط الهندوس امتنعوا عن الأكل، واكتفوا بالفجل والبصل الأخضر والخبز»^(٦٧).

كذلك، فإن (بورتر) يشير إلى اشتهار مدينة القرنه بإنتاج الرز، أو ما يُطلق عليه محلياً بزراعة (الشلب أو العنبر)؛ إذ يقول عنه: «الرز المحلي لا نظير لطعمه ورائحته العبقه، ويُزرع قرب الأهوار بين الناصريه والعمارة، وكل يوم تعمُر مائدتنا بهذا الرز الرائع»^(٦٨).

ومن الأوصاف السابقة لمدينة القرنه ومنتجاتها، يتضح جلياً أنها كانت تتميز بمواصفات طبيعيّة قد لا تتوافر في مدنٍ أخرى، فكانت الثروات الطبيعيّة لاسيّما الأسماك متوافرة بكثرة، بل إنها تُمثّل مصدر معيشة لسكانها، وأيضاً مصدر ثراء لها؛ ولكثرتها توجّه أهالي المنطقة إلى تصديرها وبيعها إلى المناطق الأخر التي لا تتواجد فيها، ويُعطينا بورتر -أيضاً- وصفاً دقيقاً لطريقة طبخ السمك، تلك الطريقة التي لا يزال -حتى الوقت الحاضر- يستخدمها البعض في شواء السمك، وهذا يدلّ على عبق الماضي المستمرّ حتى يومنا هذا.

وعند التطرّق إلى الجوانب الاجتماعيّة، نجد (سيرل بورتر) يصف لنا الملابس، وكيف كانت في مدينة القرنه، فيقول: «يطغى اللون الأسود على ملابس النساء، وبالكاد أرى ألواناً براقّة مثلما اعتادت عليه عيناى في الهند، والناس هنا من الجنسين يلبسون الملابس الطويلة التي تصل إلى الكاحل، وفوق منها ما يشبه المعطف، يُسمونها العباءة، ويرتديها الرجال والنساء، إلا إن الرجال يضعونها على أكتافهم، ويغطّون رؤوسهم بالعقال والغترة، أو يلفونها بالعمامة، ولكلّ مذهب طراز ولون معيّن من غطاء الرأس، تكشف طريقة تغطية الرأس عن

المنزلة الاجتماعية بتحديد نوعية العقال، فكل إنسان هنا يُفصح ويصرخ عالياً معلناً عن هويته وانتمائه الطائفي والاجتماعي، أما النساء، فيُعطَيْن رؤوسهنّ بالعباءة، ولكنّ النساء اللّواتي يعملن في الحقول، أو في الدُّوب، لا يعبان كثيراً لو انحسرت رؤوسهنّ، وانكشفت فتحة العباءة، ورأس المرأة ملفوف بطرحة من القماش الأسود، وتدلّ منها الشراشيب التي لا تستغني عنها وجوههنّ المملوءة بالوشم، وكذلك أكفهنّ»^(٦٩).

يتّضح من وصف (بورتر) للجانب الاجتماعي، ما كانت تتميز به المرأة العربية المسلمة من عفة وحياء، والتزام وعفوية، وهذا يمثّل درساً لما يمرُّ به المجتمع اليوم من غزو ثقافي وفكري، لاسيّما في الأزياء والملابس، وتقليدنا للغرب من دون وضع حدود معيّنة، وعدم الالتزام بالشريعة الإسلامية التي كان المجتمع على بساطته يلتزم بها.

أمّا بالنسبة إلى (لونكريك)^(٧٠)، فقد أورد ذكر القرنه في عدّة مواضع، منها في الجانب الجغرافي؛ إذ قال عنها: «وفيما فوق القرنه إلى صدر الغراف كان يُشاهد نهر عنتر والمنصورية وكوت معمر»، وكذلك في تحديده أراضي عربستان، التي عدّها بأنّها تُحكم من حاكم عربيّ؛ فيقول: «وكان حاكم هؤلاء والي الحويزة، وسليل بيت عربيّ قديم، تضاءلت أصوله في الأساطير، وكانت سطوته تمتدّ إلى القرنه والشطّ من الغرب»^(٧١).

وفيما يخصّ قلعة القرنه وتحصينها، ذكر (لونكريك): «وبعد أيام قلائل، مايس (١٦٢٥)، وصل إلى عليّ باشا من استنبول على طريق البادية الفرمان مع الخلعة والسيّف، وبذلك ثبتّ انتصاره وشهرته في حكومته، فأعيد بناء مراكز الدّفاع في

القُرنة، وهي المركز الطّبيعي لطليعة الجيش»^(٧٢)، كذلك تحدّث عن الضّريبة التي كانت تُؤخذ عند القُرنة، بالقول: «كانت تُجبى رسوم الكمر ك البريّة على الحدود، وفي القُرنة عن طريق النّهر، وكذلك في الميناء»^(٧٣).

ومن الأحداث السّياسيّة والمعارك التي تعرّضت لها القُرنة، الخلافات التي كانت بين الباشوات، لاسيّما أيام حكم (حسين باشا)، الذي استخدم القسوة والاضطهاد مع أعمامه، الذين طلبوا المساعدة من (مرتضى باشا) والي بغداد، وكان ذلك عام (١٦٥٣م)، وبعد أن جمع جيشاً وجاءت تلك القوّة للقضاء على (حسين باشا)، الذي كان يحكم في البصرة، استطاع ذلك الجيش تحقيق الانتصار؛ إذ سقطت القُرنة من دون أن تُضرب، وفرّ (حسين باشا) إلى عربستان، وتعرّضت القُرنة إلى الفوضى التي تعرّضت لها البصرة خلال ذلك العهد، الذي انغمرت فيه الأخيرة في جُحّة من الحزن والخوف، بعد أن فرحت باستقبال المنقذ، فقد وصف (لونكريك) ذلك، بالقول: «ثارت قبائل الجزائر، فهاجمت القُرنة، فعجل مرتضى بإرسال المدد إلى هناك من البصرة، وكانت المناوشات غير المنظّمة التي وقعت في الأهوار وبساتين النّخيل تدلّ على ثبات القبائل أكثر من ثبات جيش الباشا»^(٧٤).

كذلك شهدت القُرنة صراعاتٍ متعدّدة من أجل الاستحواذ عليها، ومنها: ما ذكره (لونكريك): «تبع ذلك تسابق في الاستيلاء على القُرنة؛ إذ سبق أن استولى عليها الانكشاريون، الذين أمدهم باشا بغداد على عجلٍ بسرّياتٍ من الجنود النّظاميّة، وبقطعات أكراد بجلان وتركمان البيات، فوصلت هذه القوّة إلى القُرنة، وأنقذت المعتصمين بها، الذين خاب المجهود العظيم لـ(يحيى) في محاولة زحزحتهم عن مواقعهم، فرجع شدّاذ جيش (يحيى)، وانتقم لحييته من سكّان البصرة البائسين»^(٧٥).

الختامة

يتّضح من خلال البحث النقاط الآتية:

١- إنّ مدينة القرنه هي مدينة تاريخية تعود لفراتٍ قديمة، وهذا ما أورده الرّحالة الأجانب، الذين مرّوا بها، وهذا يعود إلى أهميّة موقعها الجغرافي، الذي يلتقي فيه نهرا دجلة والفرات، اللّذين كان يسيرُ بهما الرّحالة في تنقّلاتهم إلى المدن الأخر.

٢- أعطى الرّحالة صورة واضحة لجميع المجالات: السّياسية، والاقتصاديّة، والدينيّة، عن مدينة القرنه، وكان لكلّ رّحالة صفةٌ مميّزة في كتاباته وتوصيفاته، ونظرة خاصّة إلى تلك المدينة، وربّما هذا يعود إلى الاهتمام، أو العمل، الذي كان يقومُ به الرّحالة أنفسهم، ومن ثمّ يكون لذلك الأمر تأثيرٌ في وصفه للمظاهر التي يشاهدها.

٣- اتّضح من خلال الدّراسة أنّ القرنه كانت مدينة مهمّة بالنّسبة إلى الدّولة العثمانيّة، التي قامت ببناء قلعةٍ فيها، لتُحافظ من خلالها على مصالحها في المنطقة، لاسيّما وأنّ القرنه تُسيطر على الطّرق النّهريّة التي تأتي من البصرة، والقادمة إلى مناطق العراق الأخر، ومن ثمّ جعلت فيها مركز كمرك لجباية الضّرائب عن السفن المارّة بها.

٤- تأثرُ القُرنة - حالها حال بقيّة المناطق والمدن العراقيّة الأخر - بالأحداث والتطوّرات والصّراعات السّياسيّة، التي كانت قائمة آنذاك، فضلاً عن التطوّرات الاقتصاديّة، والظّروف الصّحيّة والطّبيعيّة، التي مرّت بها البلاد في تلك القرون.

٥- أثبتت كتابات الرَّحالة عن مدينة القُرنة أنّها كانت منطقة غنيّة بفضل منتجاتها الزراعيّة والحيوانيّة، وهذا يُعطي انطباعاً عن الانتعاش الاقتصاديّ الذي كانت تتمتّع به المنطقة، والتنوّع في مصادر الدّخل، وعدم الاعتماد على حرفةٍ أو مهنةٍ واحدةٍ، على الرّغم من بساطة تلك الأعمال، إلّا إنّها كانت تُشكّل مواردَ معيشيّة كافية للسّكّان، بل وبعض الأحيان تدعوهم إلى تصدير الفائض من منتجاتهم إلى المناطق الأخر، لاسيّما المجاورة.

٦- امتازت القُرنة بفضل المقوّمات الطّبيعيّة التي امتلكتها - وحسب ما نقله الرَّحالة - بأنّها كانت منطقة سياحيّة، جذبت أنظار القادمين إلى البلاد واهتمامهم؛ إذ إنّهم انبهروا بما لاحظوه من جمال الطّبيعة الخلّابة، التي كانت عليها مدينةُ القُرنة.

٧- أسهمت تلك الكتابات التّاريخيّة التي قدّمها الرَّحالة والمسؤولين الأجانب في الحفاظ على الإرث الحضاريّ لهذه المناطق، واستذكار تاريخ تلك المدن، التي أخذت شهرةً كبيرةً؛ وذلك لأنّ أغلب أولئك الرَّحالة كتبوا مذكّراتهم بلغاتهم، ومن ثمّ تُرجمت تلك الرّحلات إلى عدّة لغات، الأمر الذي أدّى إلى اشتهاار تلك المُدن، وذيعان صيتها، وأصبح يهوى الولوج إليها كلّ من يسمعُ عن مميّزاتها وطبيعتها.

الخارطة التي نشرها الجغرافي الهولندي اسحق نيريون في سنة ١٧٣٢ من محفوظات الارشيف الهولندي والتي تظهر فيها مدينة القفرة وتم تأشيرها بالخط الاحمر من قبل الباحث.



المصدر: ب.ج. سلوت، نشأة الكويت، ترجمة مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، ٢٠٠٣، ص ١٧.

الهوامش

١- وهو قيصر ميرو لا مو فردريجي، إيطالي الجنسية، ولد عام (١٥٣٠م) في البندقية، عمل في شبابه بتجارة الجواهر، وامتدت رحلته ثمانية عشر عاماً (١٥٦٣-١٥٨١م)، طاف خلالها في الشرق مروراً بسورية والعراق والهند، حتى وصل إلى بورما، يبحث عن الأحجار الكريمة، وعندما عاد إلى بلاده جلب معه بضاعة كبيرة، وهناك اختلاف في سنة وفاته؛ إذ يُتوقع أنها بين عامي (١٦٠٠-١٦٠٢م). فردريجي، رحلة فردريجي إلى العراق (القرن السادس عشر)، ترجمة: بطرس حدّاد، مجلّة المورد، العدد (٤)، المجلّد (١٨)، ١٩٧٩م: ص ١٦٣.

٢- المصدر نفسه: ص ١٦٦-١٦٧.

٣- هو كاسبارو بالبي، ولد في مدينة البندقية الإيطالية عام (١٥٥٠م)، قدم إلى العراق في الربع الأخير من القرن السادس عشر، وهو في طريقه إلى الهند، فوصل العراق عام (١٥٨٠م)، وتعدّ هذه الرحلة من أهمّ الرحلات وأقدمها؛ لما فيها من معلومات تاريخية وجغرافية تخصّ العراق أولاً، ولقدمها ثانياً، وعمل مساعداً لقبطان في إحدى السفن المخصّصة لحماية كريت، وكانت البندقية في ذلك الوقت في أوج قوّتها. بالبي، رحلة بالبي إلى العراق، ترجمة: بطرس حدّاد: ص ٥.

٤- المصدر نفسه: ص ٨٩.

٥- الشاهي: عملة كانت تُستعمل في بلاد فارس أيام الدولة الصفوية، وأيضاً يتمّ تداولها في العراق. <http://www.1115.jeeran.com>

٦- بالبي، المصدر السابق: ص ٨٩.

٧- المصدر نفسه.

٨- المصدر نفسه.

٩- المصدر نفسه: ص ٩٠.

١٠- ولد في مدينة لشبونة البرتغالية، لكن تاريخ ولادته ووفاته ما يزالان غير مؤكدين، إلا إن أغلب المؤرخين يحدّدون ولادته بسنة (١٥٧٠م)، بدأ رحلاته في وقت مبكر من حياته، وهو في سن السادسة عشر، عندما قام بزيارة مدينة غوا الهندية، ثم انتقل بعد ذلك إلى ملقا في المدة (١٥٩٨-١٦٠٠م)، وأثناء ذلك زار بلاد فارس، وكتب عنها تفاصيل كثيرة، ثم عاد إلى ملقا، وبعدها انطلق متوجّهاً إلى الفلبين، وبعدها عاد إلى لشبونة، التي وصلها عام (١٦٠١م)، وقبل أن يغادر ملقا، كان قد أودع مبلغاً من المال لدى أحد رفاقه، وطلب منه إرساله إلى لشبونة بواسطة السفن البرتغالية، لكن المبلغ لم يصل، فقرّر تسيير السفر إلى الشرق مرة أخرى، وكان ذلك عام (١٦٠٣م)، فوصل إلى غوا، وتمكّن من استعادة أمواله، وفي طريق عودته مرّ بالعراق، وزار أغلب المدن التي كانت تقع على طريق الفرات. بيدرو تيخيرا، رحلة بيدرو تيخيرا من البصرة إلى حلب عبر الطريق البرّي (١٦٠٤-١٦٠٥)، ترجمة: أنيس عبد الخالق محمود: ص ٧-١١.

١١- المصدر نفسه: ص ٢٨-٢٩.

١٢- المصدر نفسه: ص ٣١.

١٣- وهو الأب جوزيه دي سانتا ماريا سبستيان، الكرملّي (١٦٢٣-١٦٨٩م)، إيطالي الأصل، زار العراق أربع مرّات خلال رحلاته إلى المناطق المختلفة، انخرط في سلك الرهبنة، وبعد ذلك انتدبته الكنيسة للذهاب في مهمّة رسميّة إلى الهند بصفة مفتش رسولي لدراسة أوضاع النصارى في الملبار، بعد أن أكمل مهمّته عاد إلى أوربة، وأصبح أسقفًا، ثم عاد إلى الشرق ثانية، ومرّ بالعراق، ولم تكن كتاباته استطلاعيّة، بل كانت مجموعة ذكريات اتّسمت بنظرة دينيّة، أو صوفيّة، للأمر، يُنظر: رحلات سبستيان إلى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة: بطرس حدّاد، مجلّة المورد، العدد (٣)، المجلّد (٩)، ١٩٨٠م: ص ١٦٧.

١٤- سبستيان، رحلات سبستيان إلى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة بطرس حدّاد:

ص ٤٦.

١٥- المصدر نفسه: ص ٤٧.

١٦- المصدر نفسه.

١٧- وهو الأب فنشيسو ماريا دي سانتا كاترينا دي سينا، إيطالي الجنسية، انخرط في سلك الرهبانية الكرمليّة، أرسل في مهمّة دينيّة عام (١٦٥٦م) إلى الهند الشرقيّة، وبعد أن

عاد إلى وطنه تسلّم بعض المهام الرسمية في الرهبنة، حتّى وفاته عام (١٦٧٩م)، وقد أكّد في رحلته أنّ في الشرق قوى غنيّة تجذب المشاعر. فنشئو، رحلة فنشئو إلى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة: بطرس حدّاد: ص ٧١.

١٨- المصدر نفسه: ص ٨٢.

١٩- وهو جان بابتيست تافرنيه (١٦٠٥-١٦٨٩م)، فرنسيّ الأصل، ولد في باريس، وكان والدّه من مشاهير الجغرافيين والنقّاشين، انهمك في الرحلات في سنّ مبكّرة من حياته، وهو في الخامسة من عمره، ثمّ توجه مع رهابين إلى الدولة العثمانية، وتنقّل في مدنها، ودخل بعد ذلك بلاد فارس، حتّى وصل إلى أصفهان، ثمّ رجع عن طريق بغداد، فحلب، والإسكندرونة، ثمّ مالطا، وإيطاليا، حتّى وصل باريس عام (١٦٣٣م)، وفي عام (١٦٣٨م)، قام برحلته الثانية التي استمرّت أربع سنوات، فسافر إلى حلب، وفارس، ثمّ الهند، وأعقبت هاتين الرحلتين أربع رحلات، حتّى أنّه خلال تنقّلاته وصل إلى جزيرة جاوة، ومرّ بطريق رأس الرجاء الصالح، واليابان، وفي عام (١٦٦٩م)، منحه لويس الرابع عشر لقب نبيل، وكانت أواخر سنوات حياته غامضة؛ إذ ترك باريس إلى سويسرا عام (١٦٨٧م)، وفي عام (١٦٨٩م)، عبّر إلى كوبنهاغن قاصداً بلاد فارس عن طريق روسيا، لكن وافاه الأجل خلال تلك الرحلة، وألّف خلال مسيرته وتنقّلاته عدداً ضخماً من المؤلّفات، وصف فيها المناطق والمدن التي مرّ بها. تافرنيه، رحلة الفرنسيّ تافرنيه إلى العراق في القرن السابع عشر (١٦٧٦م)، ترجمة: كوركيس عوّاد وبشير فرنسيس: ص ٩-١٠.

٢٠- المصدر نفسه: ص ٩١.

٢١- المصدر نفسه: ص ٩٢.

٢٢- المصدر نفسه: ص ٩٣.

٢٣- المصدر نفسه: ص ٩٤.

٢٤- المصدر نفسه: ص ١٠٠-١٠١.

٢٥- ب. ج. سلوت، نشأة الكويت، ترجمة: مركز البحوث والدراسات الكويتية:

ص ١٧.

٢٦- كارستن نيور، وهو ألمانيّ الأصل، دنماركيّ المولد والنشأة، وحينما قرّر فريدريك الخامس ملك الدنمارك إيفاد بعثة فنيّة للبحوث العلميّة في الشرق الأدنى وجنوبي جزيرة

العرب بصفة خاصة، دخل نيبور في خدمة الملك، والتحق بهيأة البعثة، وعندما وزَّعت أعمال البعثة، أُلقيت على عاتقه متابعة الأبحاث الجغرافية، وبعد أن تحرَّكت البعثة مكوَّنة من أربعة أشخاص، من ضمنهم نيبور عام (١٧٦٣م) من الإسكندرية، توفي رفاقه، ولم يبقَ إلا هو وحده، الذي أكمل رحلته، ووصل إلى البصرة عام (١٧٦٥م)، وفيها بدأ رحلته، التي وصل فيها إلى بغداد، ومرَّ بأغلب المدن والمناطق الواقعة على نهري دجلة والفرات. كارسن نيبور، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة سنة (١٧٦٥)، ترجمة: سعاد هادي العمري: ص ٥٤.

٢٧- المصدر نفسه: ص ٦٦.

٢٨- كارسن نيبور، رحلة نيبور الكاملة إلى العراق، ترجمة: سعاد هادي العمري، وآخرون: ص ١٠٦.

٢٩- سيسيني، رحلة من إسطنبول إلى البصرة سنة (١٧٨١)، ترجمة: بطرس حداد: ص ٩٠-٩١.

٣٠- المصدر نفسه.

٣١- وهو جون تايلر، بريطاني الأصل، عمل لحساب شركة الهند الشرقية البريطانية، التي أوفدته في مهم لها إلى الهند، فمرَّ بالعراق، ونشر أخبار رحلته، عاش في الهند حتى وفاته عام (١٨٠٨م)، تحدَّث في رحلاته عن أهميَّة الرِّحلات، وأقرب الطُّرق إلى الهند، وذكر أنَّ أغلب الرِّحالة الأوروبيين سلكوا طريق البحر، تطرَّق في كتابه إلى معلومات مفصَّلة عن العراق والمدن والبلدان التي مرَّ بها، وهو الوكيل السياسي البريطاني في بغداد، تولى هذه المهمة عام (١٨٢٢م)، وتبدَّل لقبه إلى قنصل، عام (١٨٤١م)، واستمرَّ في عمله حتى عام (١٨٤٣م)، قام بزيارة العديد من المدن العراقية للتعرف على أحوالها. رنا عبد الجبار حسين الزهيري، أiyالة بغداد في عهد الوالي علي رضا اللاط (١٨٣١-١٨٤٢م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٥م: ص ١٠٠.

٣٢- تايلر، رحلة تايلر إلى العراق، في كتاب رِحالة أوريون في العراق، تعريب: بطرس حداد: ص ٩٤.

٣٣- جاكسون: أحد موظفي شركة الهند الشرقية الإنكليزية دون مشاهداته في رحلته، وكان مصدراً وصفيّاً رائعاً، أعطى فيه صورة واضحة عن أوضاع العراق في عهد سليمان باشا

الكبير (١٧٨٠-١٨٠٢م)، ودور النشاط البريطاني فيه، وذكر ثورة الخزاعل، وحملة الشيخ ثويني العبد الله (١٧٩٦-١٧٩٧م) على الوهابيين، وأعطى - كذلك - أوصافاً دقيقة عن المدن التي مرّ بها، وكانت رحلته قد تُرجمت بعنوان: (مشاهدات بريطاني في العراق عام ١٧٩٧م). مؤيد أحمد خلف الفهد، السياسة العثمانية تجاه العشائر العراقية (١٧٥٠-١٨٦٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٢م: ص ٧.

٣٤- جاكسون، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة (١٧٩٧م)، ترجمة: خالد فاروق عمر: ص ٤٥.

٣٥- المصدر نفسه: ص ٤٦.

٣٦- المصدر نفسه: ص ٤٧.

٣٧- وهو أبو طالب بن محمد خان، وأصله تركي، لكن والده هاجر إلى الهند أولاً، ثم إلى البنغال، ثم توفي في مقصود آباد عام (١٧٦٨م)، ولد أبو طالب في لكنو عام (١٧٥١م)، والبعض يقول (١٧٥٣م)، هاجر مع عائلته إلى باننا، ثم إلى مقصود آباد، وكان عمره آنذاك (١٤) عاماً، وعمل في وظيفة استيفاء الضرائب مدّة من الزمن، ثم هاجر هو وعائلته إلى كلكتا عام (١٧٨٧م)، وكان أبو طالب بليغاً في اللغة الفارسية وآدابها، فقد ألف كتاباً في المختارات الشعرية الفارسية. سافر من كلكتا إلى أوربة، فزار إنكلترا وفرنسا والدولة العثمانية، ثم رجع إلى الهند عام (١٨٠٣م)، وخلال تواجده في الدولة العثمانية ادّعى أنّه من سلالة النبي محمد ﷺ، وهو علوي، ودلّت الأخبار في رحلته على أنّه كان شيعياً، وقد تنقّل في مدن الدولة العثمانية، وجاء إلى العراق عام (١٨٠٣م)، وزار المدن المقدسة النجف وكر بلاء والكاظمية، وأعطى معلومات كثيرة عن المدن التي مرّ فيها خلال رحلته. أبو طالب خان، رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوربة، ترجمة: مصطفى جواد: ص ١٦-١٨.

٣٨- المصدر نفسه: ص ٤٠٥.

٣٩- لا توجد معلومات عن تاريخ ولادته، وهو فرنسي الجنسية، كان مُولعاً باللغات الشرقية، وهي مصدر قوّته في رحلاته؛ إذ كان يستطيع التحدّث مع السكّان المحليين، ويبدو أنّ نظريته في رحلته كانت تجارية؛ لأنّه أعطى معلومات وتفاصيل كثيرة عن الأوزان والمكاييل والموادّ والسلع المتوافرة في كلّ بلد، والطرق المهمة، وقيمة النقود، كذلك تطرّق إلى الضرائب والمكوس، وما يثبت اهتمامه بالمعلومات التجارية، قوله: بأنّ هدف رحلته خدمة الجغرافية

والتجارة، بدأ رحلته من القسطنطينية عام (١٨٠٧م)، ثم إلى ديار بكر وماردين ونصيبين والموصل وبقية المدن العراقية، وتوجه بعد ذلك إلى بلاد فارس. عماد جاسم حسن، أهداف الرحالة الأجانب في رحلاتهم إلى المناطق الشرقية، صوت المعلم، (صحيفة).
٤٠- دوبريه، رحلة دوبريه إلى العراق (١٨٠٧-١٨٠٩م)، ترجمة: بطرس حداد: ص ١٤٤.

٤١- القنطار: وهي وحدة تستخدم لقياس الوزن، ومع أنها لم تكن دقيقة، وتتفاوت في كميتها بين الحين والآخر، إلا إنها كانت وسيلة لتحقيق الحد الأدنى في ضبط الكميات آنذاك، وتعادل ما يقرب من (١٤٣) كيلو غراماً. <http://ar.m.wikipedia.org>
٤٢- دوبريه، المصدر السابق: ص ١٤٥.

٤٣- وهو: محمد بن أحمد، الحسيني، إيراقي الأصل، وعمل موظفاً في المقيمية البريطانية ببغداد حتى عام (١٨٢٠م)، ودخل في مشادة مع الوالي داود باشا، فتم طرده من بغداد، فعاد إلى إيران، ثم جاء برحلته إلى العراق عن طريق الشمال، وبعد ذلك وصل إلى بغداد، ثم البصرة، بعد أن مر بمدينة القرنة. محمد بن أحمد، الحسيني، المنشي، البغدادي، رحلة المنشي البغدادي إلى العراق، ترجمة: عباس العزاوي: ص ٤-٥.
٤٤- المصدر نفسه: ص ١٤٨-١٤٩.

٤٥- وُلد محمد خورشيد عام (١٨١٣م)، التحق بالعمل في الحكومة كاتباً في قلم الكتابة بوزارة الخارجية، مثل الحكومة العثمانية في لجنة تثبيت الحدود بين الحكومتين العثمانية والفارسية، التي استغرق عملها أربعة أعوام (١٨٤٨-١٨٥٢م)، أعد تقريراً مفصلاً عن العراق عندما كلفه السلطان العثماني عبد المجيد بالذهاب إلى منطقة الحدود الإيرانية العراقية، وعُدّ تقريره دراسة ميدانية؛ إذ حوى معلومات قيمة عن المدن وطرقها التجارية، ومنتجاتها الزراعية والحيوانية، وكذلك تحدث عن الضرائب والعملات، وتطرق إلى الحرف التي يزاولها الأهالي، وطبيعة المجتمع وتقاليده ولباسه ومعتقداته الدينية، وأيضاً حوى تقريره معلومات جغرافية عن الأنهار والروافد والجبال والآثار القديمة، وفي عام (١٨٦٢م)، طُبِع هذا التقرير بشكل كتاب، عنوانه: (سياحة نامة حدود)، وعَرَبَه: الدكتور نوري عبد بخيت السامرائي عام (١٩٨٠م). أحمد حاشوش، المصدر السابق: ص ٢٠.
٤٦- خورشيد باشا، رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران، ترجمة: مصطفى زهران:

ص ١٠٢.

٤٧- المصدر نفسه: ص ١٠٣.

٤٨- لا تُوجد معلومات عن تاريخ ولادته، أو وفاته، سوى أنه قام برحلته عام (١٨٩٣م) من مصر، واتجه إلى سورية، وبعدها دخل الأراضي العراقية؛ فوصل إلى بغداد، ومرّ بعد ذلك بالحلّة وكربلاء والنّجف والبصرة، تضمّن كتابه وصفاً للأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة والتّاريخيّة للمناطق التي مرّ بها في ذلك، من دون أن يغفل عن ذكر القرى والقبائل والمجتمعات العربيّة البسيطة، والمواقع التّاريخيّة، والآثار المنتشرة في المناطق التي مرّ بها، كذلك النباتات والحيوانات، ووصفه أزياء السّكّان وعاداتهم، وأعطى إحصائيّات عن أعدادهم، والجماليات المتواجدة معهم. أ.ج. سوانسن كوبر، رحلة في البلاد العربيّة الخاضعة للأتراك من البحر المتوسّط إلى بومبي عن طريق مصر والشّام والعراق والخليج العربيّ، حتّى (١٨٩٣م)، ترجمة صادق عبد الرّكابي: ص ١١.

٤٩- المصدر نفسه: ص ٢٩٥.

٥٠- وهو الابن الوحيد لوالده عالم النّباتات الدّنماركيّ البروفيسور كريستيان رونكير، المولود عام (١٨٦٠م)، وكانت والدته ناقدة ومؤلّفة وشاعرة، نال باركلي تعليماً جيّداً، وسافر مع أبيه إلى تونس عام (١٩٠٩م)، ويبدو أن رحلته إلى الجزيرة العربيّة كانت جزءاً من خطّة الجمعية الفلكيّة الجغرافيّة في الدّنمارك لاستكمال المعلومات التي قدّمها نيبور في رحلته سابقاً. كانت بداية الرّحلة من استنبول عام (١٩١١م)؛ إذ إنه وصل إلى حلب، ثمّ إلى بغداد، ومنها انطلق عن طريق نهر دجلة ليصل إلى البصرة التي توجه منها إلى الكويت أولاً، ثمّ الدّهاب بواسطة رحلة بريّة بواسطة جمل إلى قلب الجزيرة العربيّة، وقدم خلال رحلته أوصافاً وانطباعات عديدة وبمختلف المجالات. باركلي رونكير، عبر الأراضي الوهابيّة على ظهر الجمل، ترجمة: محمّد الخريجي: ص ٣٥-٤٦.

٥١- المصدر نفسه: ص ٤٦.

٥٢- المصدر نفسه: ص ٤٨.

٥٣- وهو أحد موظّفي حكومة الهند البريطانيّة، أرسلته الحكومة البريطانيّة عام (١٩٠٤م) إلى منطقة الخليج العربيّ للتّحرّي عن معلومات مفصّلة عن المنطقة، فزار أغلب مّدن المنطقة، وكتب عنها، وكتب عن المّدن العراقيّة، وجاءت كتاباته بشكلٍ مسهبٍ في

الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ وبذلك، فإنه يُعدُّ أبرز مصدر وثائقي عن تاريخ الخليج العربي، اعتمد فيه كاتبه على سجلات حكومة الهند، وعلى المعلومات السرية التي وضعتها بكاملها تحت تصرّفه، وقد طُبِعَ قسمٌ منه عام (١٩٠٨م)، أما القسم الآخر، فقد طُبِعَ في عام (١٩١٥م)، وبقي وثيقة سرّية لا يجوز الاطلاع عليها حتّى عام (١٩٦٠م)؛ إذ أتت الحكومة البريطانية على نشره، ويتكوّن من قسمين: القسم التاريخي، والقسم الجغرافي، وقُسِّم الكتاب إلى أربعة عشر جزءاً، سبعة منها للقسم التاريخي، طُبِعَتْ في الدوحة عام (١٩٦٧م)، ومثلها للقسم الجغرافي، طُبِعَتْ في بيروت عام (١٩٧٠م)، أحمد حاشوش، المصدر السابق: ص ٩.

٥٤- ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج ٥، ترجمة: مكتب أمير قطر: ص ١٩١١.

٥٥- المصدر نفسه: ص ١٩١٢.

٥٦- وهو ديبلوماسي روسي، عمل في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قنصلاً لبلاده في البصرة، ألّف كتاباً ضخماً عن البصرة بعنوان (ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها)، وللكتاب قيمة علمية كبيرة، تكمن بكون مؤلفه قد عاصر بعض الأحداث، وأيضاً سجّل ملاحظاته بشكل مباشر، ولم يعتمد على النقل في تسجيل معلوماته، وكان مطلعاً على عددٍ كبيرٍ من المصادر والمراجع الروسية والفرنسية والألمانية والإنجليزية، التي تتعلّق بالمواضيع المختلفة التي عالجها في كتابه، ولم تقتصر معلوماته على جانبٍ معيّن، بل بكلّ الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والجغرافية، وأوضاع السكّان؛ ولذا فإنّ كتابه كان أشبه بالموسوعة التي تحدّثت عن ولاية البصرة والمناطق والمدن القريبة منها. ألكسندر أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة: هاشم صالح التكريتي: المقدمة.

٥٧- الفرسخ: وهو وحدة قياس المسافة، وأصل الكلمة فارسية، وتُجمِع أغلب المصادر على أنّ الفرسخ يُعادل ما بين أربعة إلى ستّة كيلومترات في النظام الدوليّ الحالي.

<http://ar.m.wikipedia.org>

٥٨- ألكسندر أداموف، المصدر السابق: ص ٥٨.

٥٩- المصدر نفسه: ص ٥٩.

٦٠- المصدر نفسه.

٦١- المصدر نفسه: ص ٦٠.

٦٢- شجرة آدم: وهي شجرة قديمة مشهورة عند أهلها باسم (البراهام)، يزعم الناس أنّها من زمن آدم أبي البشر، وتحت ظلّها الوارف تمّ أوّل لقاء له مع حواء، ويقول آخرون: إنّها تعود إلى حقبة السيّد المسيح، فتراهم يشدّون الحرق حولها، ويطلون بالحناء البناية المحيطة بها؛ أملاً في أن تُقضى حاجاتهم، وقد أصبحت مزاراً لبعض السّواح الأجانب، الذين يُهيلهم وقع الأسطورة وهبأة الشّجرة المهيّب، فيتبرّكون بها، زاعمين أنّها شجرة معرفة الخير والشرّ في أساطير الرّافدين القديمة، فإذا مرّ أحدهم بها، وقف إلى جانبها هنيئة، وشرب ما تيسّر من المرطبات، ثمّ انصرف. مدينة القُرنة (الكرنة) في البصرة، المساعد الشّخصي الرّقمي، على الموقع: <http://im28.gulfup.com/show/x359iaog1eiw408>.

٦٣- ألكسندر أداموف، المصدر السّابق: ص ٦٠.

٦٤- وهو بريطانيّ الأصل، ولد عام (١٨٩٥م)، اتّجه مع الحملة البريطانيّة على العراق خلال الحرب العالميّة الأولى، فقدّ كان ضابطاً في الهندسة العسكريّة البريطانيّة، أُعجب بحياة العراقيّين وطرق عيشهم وأكلهم، وتزوّج من سيّدتين عراقيّتين، وكانت كتاباته عبارة عن رسائل يبعث بها إلى شقيقته دورا. كانت وفاته في بغداد عام (١٩٦٧م)، ودُفن فيها. أمل بورتر، العراق ما بين الحربين العالميّتين من خلال رسائل سيرل بورتر، دار ميزوبو تاميا، بغداد، ٢٠٠٨م.

٦٥- المصدر نفسه: ص ٢٤-٢٦.

٦٦- المصدر نفسه: ص ٢٧.

٦٧- المصدر نفسه: ص ٣٧.

٦٨- المصدر نفسه: ص ٢٨.

٦٩- المصدر نفسه: ص ٤٤.

٧٠- وهو بريطانيّ الأصل، عمل في العراق بعدّة مناصب في القنصليّة البريطانيّة في بغداد أيام الدّولة العثمانيّة، قام بتأليف كتاب شامل لمسيرة العراق والأحداث التي مرّ بها على مدار أربعة قرون، فأعطى تفصيلات مهمّة عن المدن والأحداث والمعارك والشّخصيّات والعشائر، والصّراعات التي كانت قائمة خلال تلك المدّة، فضلاً عن الصّراع بين الدّولتين

العثمانية والصَّفَوِيَّة على العراق، وكان ذلك العمل الضَّخْم قد قام به بعد قيام النِّظام الملكيِّ في العراق عام (١٩٢١م). ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخياط: ص ١١-١٢.

٧١- المصدر نفسه: ص ١٣، ص ١٧.

٧٢- المصدر نفسه: ص ١٤٠.

٧٣- المصدر نفسه: ص ١٤١.

٧٤- المصدر نفسه: ص ١٤٨.

٧٥- المصدر نفسه.

المصادر والمراجع

- أولاً: الكتب العربية والمعرّبة

- ١- أبو طالب خان، رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوربة، ترجمة: مصطفى جواد، الوراق، بيروت، ٢٠٠٧م.
- ٢- أ.ج. سوانسن كوبر، رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك من البحر المتوسط إلى بومبي عن طريق مصر والشام والعراق والخليج العربي، حتى (١٨٩٣)، ترجمة: صادق عبد الرّكابي، الأهلية للنشر، عمان، ٢٠٠٤م.
- ٣- ألكسندر أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة: هاشم صالح التكريتي، دار الوراق للنشر، بيروت، ٢٠٠٩م.
- ٤- أمل بورتر، العراق ما بين الحربين العالميتين من خلال رسائل سيرل بورتر، دار ميزوبو تاميا، بغداد، ٢٠٠٨م.
- ٥- بالبي، رحلة بالبي إلى العراق، ترجمة: بطرس حدّاد، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠٥م.
- ٦- باركلي رونكير، عبر الأراضي الوهابية على ظهر الجمل، ترجمة: محمد الخريجي، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٣م.
- ٧- ب.ج. سلوت، نشأة الكويت، ترجمة: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ٢٠٠٣م.
- ٨- ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج ٥، ترجمة: مكتب أمير قطر، (د.ت).
- ٩- تافرنيه، رحلة الفرنسي تافرنيه إلى العراق في القرن السابع عشر (١٦٧٦)، ترجمة: كوركيس عواد وبشير فرنسيس، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٦م.
- ١٠- تايلر، رحلة تايلر إلى العراق، في كتاب: (رحالة أوروبيون في العراق)، تعريب: بطرس حدّاد، بيروت، ٢٠٠٧م.

- ١١ - جاكسون، مشاهدات بريطاني عن العراق سنة (١٧٩٧)، ترجمة: خالد فاروق عمر، الدار العربيّة للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٠م.
- ١٢ - خورشيد باشا، رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران، ترجمة: مصطفى زهران، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- ١٣ - دوبريه، رحلة دوبريه إلى العراق (١٨٠٧-١٨٠٩)، ترجمة: بطرس حدّاد، الوراق، بيروت، ٢٠١١م.
- ١٤ - سبستاني، رحلات سبستاني إلى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة: بطرس حدّاد، بغداد، ٢٠٠٤م.
- ١٥ - ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الحياط، المكتبة الحيدريّة، ط ٤، ١٤٢٥هـ.
- ١٦ - سيستيني، رحلة من إسطنبول إلى البصرة سنة (١٧٨١م)، ترجمة: بطرس حدّاد، المركز العلمي العراقي، بغداد.
- ١٧ - كارستن نيبور، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة سنة (١٧٦٥م)، ترجمة: سعاد هادي العمري، مطبعة دار المعرفة، بغداد، ١٩٥٥م.
- ١٨ - كارستن نيبور، رحلة نيبور الكاملة إلى العراق، ترجمة: سعاد هادي العمري، وآخرون، الوراق، بيروت، ٢٠١٢م.
- ١٩ - محمّد بن أحمد، الحسيني، المنشي البغدادي، رحلة المنشي البغدادي إلى العراق، ترجمة: عبّاس العزاوي، الوراق، بيروت، ٢٠٠٨م.

- ثانياً: الرسائل الجامعية

- ١ - أحمد حاشوش، سوق الشيوخ مركز إمارة المتفك (١٧٦١-١٨٦٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة ذي قار، ٢٠١٠م.
- ٢ - رنا عبد الجبار حسين الزّهيري، أيلة بغداد في عهد الوالي علي رضا اللاّظ (١٨٣١-١٨٤٢)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٥م.
- ٣ - مؤيد أحمد خلف النهدي، السياسة العثمانية تجاه العشائر العراقية (١٧٥٠-١٨٦٩)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٢م.

- ثالثاً: البحوث المنشورة

- ١- رحلات سبستيانى إلى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة: بطرس حدّاد، مجلّة المورد، العدد (٣)، المجلّد (٩)، ١٩٨٠ م.
- ٢- فردريجي، رحلة فردريجي إلى العراق (القرن السادس عشر)، ترجمة: بطرس حدّاد، مجلّة المورد، العدد (٤)، المجلّد (٨)، ١٩٧٩ م.
- ٣- فنشنسو، رحلة فنشنسو إلى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة: بطرس حدّاد، مجلّة المورد، العدد (٣)، المجلّد (٥)، ١٩٧٦ م.

- رابعاً: المواقع الإلكترونية

- مدينةُ القُرنة (الكرنة) في البصرة، المساعد الشّخصيّ الرّقميّ، على الموقع:
<http://im28.gulfup.com/show/x359iaog1eiw408>
<http://ar.m.wikipedia.org> -

نفطُ البصرة (١٩٣٨-٢٠١٣م)

Oil of Basrah

(1938- 2013)

أ.م.د. عبد الجبار عبود الحلفي

جامعة البصرة/ مركز دراسات البصرة والخليج العربي

Assistant proffssor Dr.Abdul Jabbar Abbood Al - Hilfi

Basrah and Arabian Gulf Studies Centre/University of Basrah

ملخص البحث

تُرَكِّز هذه الدراسة على معرفة الجذور التاريخية لاكتشاف واستثمار النفط في مدينة البصرة، التي تضم أكبر الحقول النفطية العراقية، وأكثرها عددًا؛ إذ يبلغ احتياطي البصرة من النفط نحو (٩٣) مليار برميل من مجموع احتياطات العراق النفطية البالغة (١٤٢) مليار برميل.

لقد كان أول امتياز منحه الحكومة لشركة نفط العراق لغرض استثمار نفط البصرة هو في عام (١٩٣٨م).

ويتناول البحث بالتفاصيل قصة تطور النفط في هذه المدينة، وأهميتها الاقتصادية، منذ عقود الامتيازات، ولغاية ٢٠١٣م. ولذلك تضمّن البحث المباحث الآتية:

١. مشهد تاريخي.
٢. اتفاقية نفط البصرة، وتطورات الموقف النفطي.
٣. الاستثمار الوطني المباشر، وموقع نفط البصرة.
٤. الحقول النفطية في البصرة والموانئ النفطية.

Abstract

The present paper focuses on oil discovery and investment in Basrah which contains the highest number of oilfields and also the biggest oil reservoirs. Basrah reserve crude oil amounts to 93 billion barrels out of the total Iraqi reserves that amount to 142 billion barrels. The first oil concession granted by the Iraqi government to Iraq Oil Company to invest in Basrah was in 1938.

The paper elaborates on the history of oil industry development in Basrah since 1938 up to 2013 highlighting Basrah economic importance. The paper covers the following sections:

1. Historical review
2. Basrah oil agreement and the developments of the oil situation.
3. National direct investment of oil in Basrah.
4. Oil fields in Basrah and Iraqi ports.

مقدمة

لقد استخدم السومريون - وهم سكان البصرة القدماء - (القار) لطلاء زوارقهم؛ لمنع تسرب الماء إلى داخلها، والمعروف أن القار الذي ينز من شقوق الأرض هو أحد الأدلة على وجود النفط.

ولقد كانت البصرة محط أنظار البريطانيين الذين احتلّوها في سنة (١٩١٤م)، وكانت لديهم معلومات عن وجود النفط بغزارة في هذه المدينة، التي كانت ولاية تابعة للعثمانيين، فاصطحبوا معهم جيولوجياً هندياً يدعى (باسيكو)، أخبر البريطانيين فيها بعد بوجود النفط في البصرة.

وفي عام (١٩٣٨م)، حصلت شركة نفط البصرة (BPC) على امتياز لمدة (٧٥) سنة في تنقيب واستكشاف واستخراج النفط ضمن أراضٍ شاسعة لولاية البصرة، التي تضم جنوب العراق بأكمله.

وكان أول الحقول المستكشفة هو حقل الزبير في سنة (١٩٤٧م)، ثم توالى الاستكشافات النفطية في هذه المدينة التي تطفو على حوضٍ نفطيٍّ هائلٍ.

ستتطرق في هذا البحث إلى إمكانات البصرة النفطية، وإسهاماتها في الصادرات النفطية العراقية وعوائد النفط، وتاريخ استكشاف النفط فيها، من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: مشهد تاريخي.

المبحث الثاني: اتفاقية نفط البصرة، وتطورات الموقف النفطي فيها.

المبحث الثالث: الاستثمار الوطني المباشر، وموقع نفط البصرة.

المبحث الرابع: الحقول النفطية في البصرة، والموانئ النفطية.

المبحث الأول

مشهد تاريخي

إنَّ النفطَ سلعةٌ استراتيجيةٌ قبل أن يكون سلعةً تجاريةً، فالدَّول التي تُسمَّى الآن بـ(المتقدِّمة)، تقدَّمتْ بصورةً دراماتيكيةً (Dramatically) بفضل استخدام النفط في مختلف المجالات، خاصَّة مجال النقل.

ولقد كانت الحرب العالميَّة الأولى هي النَّافذة التي فُتحت للغرب لرؤية هذه السِّلعة السَّحرية، التي نقلته إلى حضارة جديدة تزخر بالتقدُّم العملي والتكنولوجيا، وكانت بريطانيا العظمى -آنذاك- تعرف تماماً أنَّ (الرَّجل المريض)(الدَّولة العثمانيَّة)، التي تحتلُّ مساحات شاسعة من الدَّول العربيَّة، وتهيمن على ثرواتها، أضحتْ سبباً رئيساً من أسباب تخلف العالم الذي تحتلُّه، بل هي مركز التخلف؛ ولذلك تحالف الغربُ على إسقاطها.

وعند احتلال بريطانيا العراق في العام (١٩١٦م)، الذي كان -آنذاك- مجموعة ولاياتٍ تابعةٍ للدَّولة العثمانيَّة، اصطحبَ الجيشُ البريطانيُّ، وهو يجتاحُ الأراضي العراقيَّة ابتداءً من الفاو في العام (١٩١٦م)، بعثةً جيولوجيةً يترأسها الجيولوجيُّ الهنديُّ (باسيكو)، وكان يحملُ معه معدَّات استكشافيَّة بسيطة -آنذاك- تمكَّنه من الاستدلال على وجود النفط، خاصَّة إذا كان قريباً من سطح الأرض، وبعدما عسكر البريطانيُّون في البصرة، قام هذا الرَّجل بالتحريُّ عن النفط في صحراء الزَّبير؛ ولأنَّ هذه المنطقة زاخرة بالنفط مع وجود روائح تنبعثُ من باطن الأرض، أخبر (باسيكو) البريطانيِّين بوجود النفط في أراضي

ولاية البصرة، خاصّة في منطقة الزبير^(١).

وينبغي هنا الرجوع إلى تاريخ الامتيازات النفطية التي مُنحت للشركات الأجنبية من قبل الحكومة العراقية التي تشكّلت في العام (١٩٢١م)، أي: بعد الاحتلال بخمس سنوات؛ وذلك لغرض معرفة كيفية استثمار تلك الشركات لنفط العراق واستغلاله، ومنه نفط البصرة.

ففي سنة (١٩٢٥م)، مُنحت الحكومة العراقية بعد جدالٍ طويلٍ مع قوى معارضة في البرلمان، إجازة استغلال نفط العراق لشركة النفط التركية^(*) لمدة (٧٥) سنة، وقد تحوّلت هذه الشركة إلى شركة أخرى دُعيت باسم (شركة نفط العراق (Ipc))، التي تضمّ مصالح بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية، وهذه الشركات تمتلك حصصاً بنسبٍ متساوية في نفط العراق، مقدارها (٢٣،٧٥٪)، فضلاً عن نسبة (٥٪) لرجل النفط الأرمني (كولبنكيان)، والجدول رقم (١) يبيّن هذه الحصص.

وكانت الشركات تدفع للحكومة العراقية حصّةً معيّنة من النفط مع بضعة سنتات عن كلّ برميلٍ، وهي تتحكّم بالإنتاج والصادرات والأسعار، بوصفها شركات احتكارية.

لقد كان أوّل اكتشافٍ نفطيٍّ في العراق سنة (١٩٢٧م) في حقل كركوك العملاق (ذو احتياطيٍّ للنفط بمقدار ١٦ مليار)؛ إذ حُفرت أوّل بئرٍ في (بابا كركوك)، عندما تدفّق النفط الخام هناك، وصعد كعمودٍ ضخّمٍ من الزيت الأسود لعشرات الأمتار، فقتل اثنين من الجيولوجيين البريطانيين الذين تفاجأوا بالتدفّق الهائل، فكانا قربانين لنفط العراق!

وفي السنوات اللاحقة، بعدما تمكّنت شركة نفط العراق من إتمام بناء خطّ أنابيب النفط في كركوك إلى بانياس في الموانئ السوريّة، جرى تصدير أول شحنة من النفط العراقيّ سنة (١٩٣٤م)، وفي إطار نظام الامتيازات تتمتع الشركة الأجنبية بحقوق اختيار الأراضي العراقيّة للاستكشاف، وتحديد مستويات الإنتاج والصادرات والأسعار^(٢).

المبحث الثاني

اتفاقية نفط البصرة، وتطوّرات الموقف النفطيّ في البصرة

بدأت أولى خطوات استثمار نفط البصرة، التي كانت بمنزلة النافذة التي أطلّت منها الشركات على نفط هذه المدينة، التي تطفو على حوضٍ نفطيّ هائلٍ وعقدت الحكومة العراقيّة مع الشركة الجديدة (شركة نفط البصرة) (BPC)، والمتفرّعة من شركة نفط العراق، عقد امتيازٍ لمُدّة (٧٥) سنة، ولمساحةٍ قُدّرت بنحو (٥٤٪) من المساحة الكلّيّة للبصرة، بوصفها ولايةً تضمّ مدن ميسان والناصرية والديوانية والسماوة -آنذاك-، ومناطقٍ أُخرى في وسط وجنوب العراق؛ إذ كان يضمّ ثلاث ولايات فقط، هي: بغداد والبصرة والموصل، تابعة للدولة العثمانيّة، وبعد الاحتلال جرى التقسيم الإداري للمدن بعد سنوات طوالة، وبشروط الاتفاقيات السابقة نفسها، فيما يتعلّق بمدة الامتياز والضرائب، عدا بعض الاختلافات التي تكمن في مقدار الإيجار السنويّ، الذي حدّد بحدود (٢٠٠) ألف جنيه ذهباً عند بدء عمليّات التنقيب والاستكشاف^(٣).

الجدول رقم (١)

حصص الشركاء في شركة النفط التركية عام (١٩١٢م) (%)^(٤)

الشركة	النسبة المئوية
١- الشركة الإنكليزية الفارسية	٥٠٪
٢- الشركة الملكية الهولندية	٢٠٪
٣- المصرف الألماني	٢٠٪
٤- الأرمني كولبنكيان	٥٪

• تبقى نسبة (٥٪) للشركة التركية.

ولقد كان لقرار تأمين النفط الإيراني من قبل الجنرال (مصدق) في العام (١٩٥١م)، تأثيره المباشر على المنطقة بأسرها؛ إذ بدأت الحكومات العربية تضغط على الشركات الاحتكارية، فطالبت بعقد اتفاقيات مضاعفة الأرباح، بدلاً من اتفاقيات الامتياز، وأن الحكومة البريطانية -أيضاً- خشيت من اتخاذ العراق خطوة مماثلة لخطوة إيران تحت الضغط الشعبي، مع تصاعد المطالبات من داخل البرلمان العراقي بضرورة تأمين نفط العراق -آنذاك- أسوةً بالجاره إيران، فأبلغت الحكومة البريطانية الحكومة العراقية استعدادها لدخول مفاوضات جديدة لتعديل حصة العراق من أرباح النفط.

وفي الثالث من نيسان من العام (١٩٥١م)، وافقت (شركة نفط العراق) على تعديل معدل مورد العراق في الطن الواحد من النفط إلى مقدار لا يقل عن معدل

مورد النفط في الدول المجاورة، مثل: إيران، والسعودية، وأقر مجلس الوزراء العراقي في الرابع من نيسان (١٩٥١م)، الأسس التي تقوم عليها المفاوضات^(٥).

أ- الموقف النفطي قبل ثورة (١٤ / تموز / ١٩٥٨م)

وفي العام (١٩٥٢م) تمّ عقد اتفاقية مضاعفة الأرباح مع شركة نفط البصرة، وهي عبارة عن اقتسام أرباح استخراج النفط العراقي بين الشركة والحكومة العراقية، وقد كانت هناك تظاهرات في البصرة حدثت في بداية العام (١٩٥٢م)، مطالبة بتعديل اتفاقيات الامتياز، بحيث اضطرت شركة (BPC) إلى منح الحكومة ثلث صافي الأرباح، ثم جرى تعديله إلى (٥٠٪) من أرباح الشركة، تُدفع إلى الحكومة العراقية، وتمّ تعميم هذا الحق على شركتي نفط الموصل والعراق فيما بعد^(٥)، وتمكنت الحكومة - كذلك - من أن تحصل على مبلغ قدره (٢٠ ألف جنيه) ذهباً سنوياً من الشركة مقابل الإعفاء من الضرائب، مع أخذ حصّة من النفط الخام المستخرج من نفط البصرة، عينا أو نقداً، تساوي (١٢,٥٪) لكل سنة.

وحصلت الحكومة - كذلك - على تعهد من الشركة بأن تُنتج ما لا يقل عن (٨٠) مليون طنّ من النفط سنوياً، اعتباراً من (١ / كانون الثاني / ١٩٥٦م)، وتتعهد الشركة بأن حصّة الحكومة لن تقلّ عن (٢٠) مليون جنيه ذهباً سنوياً، خلال سنتي (١٩٥٣، ١٩٥٤م)، ولن تقلّ عن (٢٥) مليون جنيه ذهباً لسنة (١٩٥٥م)، وكل سنة تلي ذلك.

وصعدت الحكومة العراقية من مطالبها على شركة نفط البصرة نتيجة

للضغوط الشعبية، خاصة في العام (١٩٥٦م)، بعد تظاهرات أسهمت فيها النقابات العمالية والقوى الشعبية الأخرى، التي اجتاحت شوارع البصرة، خاصة في شارع (دينار)، فاتفقت مع الشركة على أن تؤسس مدارس تدريبية مهنية لتدريب وتأهيل العراقيين على صناعات النفط المختلفة، وأن تتعهد بالصرف من حصصها على خمسين طالباً عراقياً يدرسون في الجامعات البريطانية سنوياً، على أن لا يزيد عددهم عن (٢٥٠) طالباً في كل المدة^(٧).

ب- الموقف النفطي بعد ثورة (١٤/تمّوز/١٩٥٨م)

وكانت ثورة (١٤/تمّوز/١٩٥٨م) تعبيراً عن إرادة الشعب العراقي في الخلاص من الحكم الملكي الموالي لبريطانيا؛ ولذلك بادرت القيادة السياسية الجديدة للعراق إلى انتزاع حق العراق في استرجاع ثروته النفطية، والتصرف بما يحقق رفاهية الشعب، وتنويع مصادر الدخل والتقدم الاقتصادي، ولذلك فقد توترت العلاقة بين الحكومة الوطنية والشركات الاحتكارية.

وعلى الرغم من وجود مفاوضات بينهما، إلا إن هذه المفاوضات شابها الكثير من التعثر، وقامت الحكومة باتخاذ خطوات لدراسة الأحكام الخاصة بالاتفاقيات النفطية والمشكلات الناجمة عنها، خاصة إن الحكومة العراقية توافرت لديها معلومات عن ضخامة الاحتياطات النفطية في البصرة، ودعت الشركات لإجراء مفاوضات جديدة في سبيل فضّ المشاكل العالقة بينهما، وقد تضمّنت الآتي^(٨):

١- احتساب كلفة إنتاج النفط لضمان حقوق العراق.

- ٢- طريقة احتساب الأسعار التي تُحدّد بموجبها عوائد الحكومة العراقيّة.
- ٣- إلغاء الحسومات التي تأخذها الشركات.
- ٤- تعيين مدراء عراقيين في مجال إدارة الشركات في لندن، وإشراف الحكومة على النّفقات.
- ٥- التعريف التدريبيّ لوظائف الشركات.
- ٦- تخليّ الشركات عن المناطق غير المستغلّة.
- ٧- التنازل عن الغاز الطبيعيّ الذي تحرقه الشركات، خاصّة في حقول: الزّبير، والرّميلة، وكرّوك.
- ٨- منح الأفضليّة لنقلات النّفط العراقيّة في شحن النّفط الخام وتصديره.
- ٩- إسهام العراق في رأس مال الشركات بما لا يقلّ عن (٢٠٪).
- ١٠- زيادة حصّة العراق من عوائد النّفط.
- ١١- إزالة الحيف الذي لحق بالعراق نتيجة لعدم توازن أحكام الاتّفاقيّات. واستمرّت الشركات تُماطل وتراوح بما تمتلكه من تجارب في دولٍ أخرى، ومن الخبراء في المجال القانونيّ والمحاسبّي وغير ذلك، ولجأت الشركات خلال مدّة المفاوضات إلى خفض معدّلات الإنتاج، وكذلك الأسعار، في العام (١٩٦٠م)، بمنزلة أسلوب ضغط على الحكومة. وبعد فشل المفاوضات لجأت الحكومة العراقيّة في العام (١٩٦٢م) إلى إصدار قانون رقم (٨٠) لسنة (١٩٦٢م)، الذي تمّ بموجبه سحب (٩٩,٥٪) من الأراضي العراقيّة التي كانت خاضعة لعمليات الشركات النّفطيّة، على وفق اتّفاقيّات الامتياز؛ بسبب عدم قيام الشركات باستغلالها، وأبقت لها الحقول قيد الإنتاج، مثل: جنوب الرّميلة،

والزُّير، وكركوك، وعين زالة.

لقد تضمّنَ هذا الإجراء تأسيس شركة (النفط الوطنية العراقية)، الذي صدر في شباط (١٩٦٤ م)، والتي تُعدُّ بادرةً للاستثمار الوطني المباشر، وافتتحت كذلك فرعاً في البصرة؛ إذ باشرت بعمليات الإنتاج في حقل الرُّميلة^{(٩)(*)}، وكانت حقول محافظة ميسان تابعة لفرع الشركة في البصرة، وهي حقول: بزركان، أبو ثرب، والفكّة، وقامت الشركة بحفر عشرات الآبار في حقل الرُّميلة.

المبحث الثالث

الاستثمار الوطني المباشر، وموقع نفط البصرة

شرعت وزارة النفط بافتتاح فرع لشركة النفط الوطنية العراقية في البصرة بتاريخ (١٦/٦/١٩٦٩ م)، باسم: (المديرية العامة لشركة النفط الوطنية العراقية / فرع البصرة).

لقد كان الجيولوجيون العراقيون على قناعةٍ من أنّ احتياطي البصرة من النفط الخام يُعادل نحو (٧٠٪) من احتياطي العراق - آنذاك - وما زال كذلك^(١٠). ولغرض توسيع عمليات الشركة في البصرة وفي الأراضي المخصصة لها، عقدت الحكومة العراقية ممثلةً بشركة النفط الوطنية العراقية اتفاقاً مع مؤسسة (مثنو اكسبورت) السوفيتية في حزيران (١٩٦٩ م) لتزويد الشركة بالأجهزة والمعدات والخبرة الفنية اللازمة لعملياتها الحقلية، وكان من اللافت للنظر مشاهدة الخبراء الروس وهم يتجولون ويتسوقون في البصرة - آنذاك - خاصة

في مطلع السبعينيات من القرن الماضي.

وفي تموز (١٩٦٩م) وُضع الحجر الأساس لمشروع تطوير واستثمار حقل الرُميلة الشمالي، الذي يضمُّ نحو (١٠) مليارات برميل نفط من الاحتياطي المؤكّد، ومن النّفط الخفيف، وتقرّر أن تبدأ عمليّات الاستثمار الوطني في الحقول المذكورة؛ لكونه من الحقول العراقيّة العملاقة، وهو من الأراضي التي استعادتها الحكومة العراقيّة بموجب القانون (٨٠)(لسنة ١٩٦٢م)، التي لم تُستثمر من قبل شركة نفط البصرة المحدودة^(١١).

والمهمّ هنا، ذِكر أنّ من أهمّ بنود الاتفاق مع الشركة السّوفيّتيّة هو إدخال النّفط الخام بوصفه عنصراً أساساً يُمكن استعماله لتسديد معظم تكاليف المشاريع التي ينفّذها الجانب الآخر، ويضمّ الأجهزة والمعدّات التي يستوردها، ما يجعلها اتّفاقيّة مقايضة، لها مفعولٌ مزدوجٌ في تطوير الصّناعة النّفطيّة العراقيّة، وتطوير العلاقات الاقتصاديّة مع الجانب السّوفيّتي، وعملية التنمية؛ إذ جرى توقيع اتّفاقيّة للصّدقة بين العراق والاتّحاد السّوفيّتيّ -آنذاك-.

بعد ذلك، وبتاريخ (١٠ / ٢ / ١٩٧٠م)، وصلت ميناء البصرة أوّل حفّارة يمتلكها العراق للعمل في حقل الرُميلة الشمالي، بلغت كلفتها (٦٠٠,٠٠٠) دولار، ويصلّ العمق الذي تبلغه عند الحفر ستّة عشر ألف قدم^(١٢)؛ ولذلك كان لابدّ من توثيق هذا الحدث هنا في هذه الصّفحات.

وفي (١٥) تموز (١٩٧٠م) بدأت وللمرّة الأولى عمليّات الحفر في البئر الأولى في حقل الرُميلة الشمالي من قبل اتّفاقيّة موقعه بين شركة النّفط الوطنيّة العراقيّة في البصرة ومؤسّسة (كيمو كومبلكس) الهنغاريّة، وخلال عامٍ واحدٍ تمّ إنجاز

وإكمال (٤) آبار نفطية في هذا الحقل وإعدادها للإنتاج. وبعد ذلك، شرعت شركة النفط الوطنية العراقية في البصرة - وللمرة الأولى - بعمليات الحفر في بئر نفطي من قبل ملاك الشركة النفطي، وبأجهزتها ومعدّاتها، وكان ذلك حدثاً تاريخياً^(١٣).

ومن الجدير بالذكر هنا، أنّ الامتياز الذي منحتّه الحكومة العراقية لشركة نفط البصرة في العام (١٩٣٨ م) بلغت مساحته نحو (٢٤٦,٠٠٠) كيلومتراً مربعاً، استردّت منه شركة النفط الوطنية العراقية بموجب القانون (٨٠) لسنة (١٩٦١ م) نحو (٩٩,٥) من الأراضي الخاصّة للبصرة.

وفي العام (١٩٨٧ م)؛ ونتيجة لحروب النظام الدكتاتوريّ وعملياته التخريبية للاقتصاد العراقيّ، قرّر (مجلس قيادة الثورة المنحلّ) حلّ شركة النفط العراقية بكلّ تشكيلاتها، ودمجها بمركز وزارة النفط، واستحداث شركة نفط الشمال، ونفط الجنوب. وشرعت الاستكشافات النفطية بموجب قراره رقم (٢٧٦) للسيطرة على موارد النفط للمصالح الضيقة للنظام المباد، خاصّة وإنّ المنشآت النفطية قد تعرّضت للأضرار الفادحة أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وتراجع إنتاج النفط العراقيّ من (٣,٧) مليون برميل، إلى أقلّ من مليون برميل في الثمانينيات من القرن الماضي. ومن الجديد بالذكر هنا، أنّ حقبة التسعينيات شهدت تصاعداً لفعاليّات ونشاطات شركة النفط الوطنية العراقية في البصرة؛ إذ أنجزت مراحل استثمار حقل الرميّة الشمالي بمراحله الثلاث وصولاً إلى طاقة إنتاجية مقدارها (٤٢) مليون طنّ في السنة من النفط الخام، أي: نحو (٥٠٠) ألف برميل^(*).

تزامن ذلك مع التوسع في وتائر العمل؛ إذ بُدئ بالحفر وتوسيع المنشآت وتطوير البنى التحتية لمواقع الشركة، مقروناً ذلك بتوفير الخدمات والسكن والعناية الصحيّة للعاملين، واستحداث مركز التدريب النفطيّ. وفي السبعينيّات - أيضاً- صدر الحدث التّاريخيّ بتأميم عمليّات شركة نفط البصرة المملوكة من قبل مؤسّسة كولبنكيان. وفي العام (١٩٧٥م) أمّمت الحكومة حصص الشركات الفرنسيّة والبريطانيّة، وبذلك أصبحت جميع الحقول العراقيّة في البصرة تابعة لشركة النفط الوطنيّة العراقيّة آنذاك. وبذلك استكملت الحكومة تأميم كامل الثروة الوطنيّة بعد ما أمّمت حصّتي شركة نفط العراق والموصل في حزيران (١٩٧٢م) بعد مفاوضات شاقّة وطويلة مع الشركات الاحتكاريّة وحكوماتها، وكان لوقوف الاتحاد السوفيتي - آنذاك- مع الشعب العراقيّ أثرٌ ملموسٌ في إنجاح التأميم، بالرّغم من أنّ هذا الموقف كان أيديولوجيّاً؛ بسبب التنافر في الثوابت السياسيّة بين الغرب والاتحاد السوفيتيّ في أثناء الحرب الباردة بينهما. هذا ويتميّز نفط البصرة بالميّزات الآتية، ما جعله تحت أنظار الشركات الأجنبيّة والمستثمرين:

- ١- سهولة الاستخراج؛ لكونه قريباً من سطح التربة.
- ٢- نوعيّة جيّدة منخفضة الكبريت (٤٠-٣٠) API.
- ٣- تدفق ذاتيّ، خاصّة في الحقول البكر.
- ٤- عدم وجود تقعّرات في الطبّقات الصّخريّة الحاوية للنفط والغاز.
- ٥- غياب الحركات التكتونيّة التي تُعيق حركة الموائع.
- ٦- تكلفة زهيدة مقابل إنتاج البديل.

٧- احتياطات ضخمة، بدليل أن حقل الرُميلة وحده يُعدُّ الثالث بعد أكبر حقل في العالم^(١٤).

هذا، فضلاً عن وجود الغاز الطبيعي بوفرة في البصرة، خاصة الغاز المصاحب؛ إذ يُقدَّر الاحتياطي العراقي من الغاز الطبيعي المركز بنحو (١, ٣) تريليون متر مكعب، والمقرَّر في البصرة (٥, ١) تريليون متر مكعب، والغاز الحر في حقل السَّيِّبة الغازي، ويحتوي الحقل على (٤٠٠) مليار متر مكعب من الغاز الحر^(١٥)، وقد أُحيلَ على شركة نفط كويتية لتطويره واستثماره في العام (٢٠١٠م) ضمنَ جولات التراخيص الثانية.

وإن البصرة - كذلك - هي ميناء العراق النفطي؛ إذ إنَّ أكثر من (٨٠٪) من النفط العراقي يمرُّ عبر موانئها النفطية، خاصة ميناء البصرة، الذي استثمر في العام (١٩٧٦م)، فضلاً عن ميناء (خور العمية)، وقد جُهِزَ ميناء البصرة النفطي بأربع منصّات عائمة في العام (٢٠١٢-٢٠١٣م) طاقة المنصّة نحو (٩٠٠) ألف برميل مع وجود عدّادات إلكترونية متطورة.

وأصبحت شركة نفط الجنوب ذات مهامّ تضمُّ كلَّ الأراضي البالغة رقعتها الجغرافية نحو (١٨٣ كم^٢)، وتمتدُّ من الخليج العربيّ حتّى مدينة حديثة في الشمال الغربي، التي تضمُّ أكثر من (٦٧) موقعاً لإنتاج النفط وكبس الغاز ومحطّات حقن الماء، فضلاً عن محطّات ضخّ وتقوية، وتُديرُ الشركة أكثر من (١٣) حقلاً نفطياً، تضمُّ أكثر من (٨٦٠) بئراً إنتاجياً^(١٦). ويبيِّن الجدول رقم (٢) عوائد صادرات العراق من النفط، وصادرات البصرة منه. وبصورة موجزة يمكن القول: إنَّ البصرة مدينة العراق النفطية، وميناء العراق النفطي الوحيد، وهي

التي تُزوّد الموازنة العامة للدولة بنحو (٨٠٪) من العوائد المالية، وتضمُّ نحو (٢٧) ألف منتسبٍ، وهي تضمُّ (شركة نفط الجنوب)، الشركة الرابعة بعد أكبر شركة نفط في العالم.

وبالرغم من ذلك، فإنَّ البصرة تُعاني من الإهمال، وتردّي الخدمات، والتخلُّف الاقتصادي والصّحيّ، والتلوّث البيئيّ.

المبحث الرابع

الحقول النفطية في البصرة والموانئ النفطية

أ- الحقول النفطية في محافظة البصرة

١- حقل الرُّميلة الجنوبية: إنّ حقل الرُّميلة بشطريه الشّامي والجنوبيّ كان حقلاً متكاملاً حتّى سبعينيّات القرن الماضي، إلّا إنّ إنشاء طريق المرور السريع، شَطَرَ الحقل إلى نصفين: جنوبيّ، وشاميّ، فسُمّي الحقل القريب من الحدود الكويتيّة بالرُّميلة الجنوبيّة، والحقل الآخر الذي يقع على الجانب الشّاميّ من الطّريق شمال الرُّميلة (الرُّميلة الشّاميّة). والحقلُ بأكمله يضمُّ أربعة مكامن نفطيّة، وتُشير المصادر إلى أنّ الاحتياطيّ المؤكّد للرُّميلة الجنوبيّة نحو (٧) مليار برميل، وهو من النّوع الخفيف المتوسّط بكثافة (٣٠ - ٣٥) API. وقد اكتُشف الحقل في سنة (١٩٥٢م) من قبل شركة نفط البصرة.

٢- حقل الرُّميلة الشّاميّة: اكتُشف سنة (١٩٥٣م) من قبل شركة نفط

البصرة، ويضمُّ احتياطي مؤكَّد مقداره (١٠) مليار برميل، وجرى تطويره فيما بعد من قبل شركة النفط الوطنية العراقية.

وتُشير المصادرة في شركة الـ (BP) ونفط الجنوب إلى أنَّ الاحتياطيَّ الجيولوجيَّ للحقلين يصلُّ إلى نحو (٦٢) مليار برميل؛ ولذلك، فإنَّ حقل الرُّميلة يُعدُّ من أكبر الحقول العراقية من حيث النفط الموجود في المكان (Oil in place)، ويُنتج غالباً نحو (١, ٤) مليون برميل نهاية (٢٠١٣ م)، فهو الثاني بعد أكبر حقلٍ منتجٍ في العالم، ويُسهِّم في إنتاج (٤٠٪) من إنتاج النفط في مجمل الحقول العراقية (GDP). تبلغ مساحة الحقل (١٦٠٠ كم^٢).

٣- حقلُ مجنون: اكتُشف من قبل شركة بتروبراس (Petro-Bras) البرازيلية الحكومية سنة (١٩٧٦ م)، وقد تخلَّت الشركة عن تطويره بعد نشوب الحرب العراقية الإيرانية سنة (١٩٨٠ م)، وقامت شركة النفط الوطنية العراقية بتطوير الحقل، وأنتجت أول بئر نحو (٤) آلاف برميل، وسُمِّي الحقل بـ (مجنون)؛ نتيجةً لضخامة احتياطياته (٤٨) مليار برميل، وفقاً لبيانات شركة نفط الجنوب، وتُقدَّر مساحة الحقل بـ (٩٥٠ م^٢)، ويضمُّ (١٣) مكمنًا؛ ولذلك فهو من أكبر حقول النفط في العالم، ويُنتج حالياً نحو (١٥٠) ألف برميل، وبلغت تقديرات تطويره نحو ملياري دولار من شركة (شل)، وشركة (بتروناس).

ويتميّز الحقل بسرعة تدفق النفط عند الاستخراج (Flow)، والنوع الموجود من النفط في الحقل من النوع الخفيف المتوسط.

ويقع شمال مدينة البصرة في ناحية (النشوة)، وهو من الحقول الكبرى (virgin).

٤- حقلُ غربِ القرنة: يقع شمال البصرة إلى الغرب من مدينة القرنة، قامت شركة (لوك أويل) (Lukoil) الروسية باكتشافه سنة (١٩٧٢م)، إلا إنَّ الشركة تخلَّت عن تطويره بعد نشوب الحرب العراقية الإيرانية بمدة وجيزة. وبعد إعادة تقييم احتياطياته في العام (٢٠١٠م) تبين أنَّ الحقل يضمُّ نحو (٢٠) مليار برميل؛ ولذلك فهو من الحقول فوق العملاقة (Ultra Super Giant)، وهو يُضاهي حقل الغوار في السعودية بوصفه أكبر حقل في العالم من حيث الاحتياطي. ونفط الحقل من النوع الخفيف (٢٤) API. وقد جرى تطويره من قبل شركة نفط الجنوب في أواسط تسعينيات القرن الماضي، وأصبح يُنتج نحو (٢٥٠) ألف برميل سنة (٢٠٠٤-٢٠٠٥م)، ثمَّ إلى (٤٥٠) ألف برميل سنة (٢٠١٠م)، وقد أُحيل الحقل لتطويره بمرحلتيه الأولى والثانية على مجموعة شركات روسية وأمريكية وهولندية وبريطانية؛ لضخامة احتياطياته. وهو من الحقول البكر.

٥- حقلُ نهر ابن عمر: تعود تسمية الحقل إلى عبدالله بن عمر بن عبد العزيز، الذي سُمِّي النهر باسمه أيام الأمويين. اكتشفته شركة نفط البصرة (BPC) سنة (١٩٤٩م)، وتبلغ كثافة النَّفط فيه (٣٠-٣٥) API، ونفطه سهل الاستخراج؛ لقربه من سطح الأرض، مساحته (٢٠٠ كم^٢)، ويخترق شطَّ العرب.

٦- حقلُ اللّحيس: اكتشفته شركة النَّفط الوطنية العراقية (INOC) سنة (١٩٧٢م). يقع جنوب غرب البصرة، تبلغ احتياطياته المؤكّدة نحو (٤) مليار برميل، وهو من النوع الخفيف المتوسّط بدرجة (٣٢) API. جرى تطويره من قبل كوادر شركة نفط الجنوب، ويُنتج -حاليّاً- نحو (١٦٠) ألف برميل (٢٠١٣م).

٧- حقل الزبير: من الحقول العملاقة، ويقع جنوب غرب البصرة في أطراف قضاء الزبير. تبلغ احتياطياته أكثر من (٤) مليار برميل، ومساحته (٥٥٨ كم^٢). اكتُشف من قبل شركة نفط البصرة (BPC) سنة (١٩٤٨م)، وهو أول حقل تم اكتشافه في مدينة البصرة.

بلغ إنتاجه نحو (٣٠٠) ألف برميل (٢٠١٢م)، ونفطه من النوع الخفيف المتوسط بدرجة (٣٤) API، ويمتاز بخصامة الغاز الطبيعي المصاحب للنفط، وقد جرى تطويره من قبل كواردر شركة نفط الجنوب منذ السبعينيات، أُحِيلَ على مجموعة شركات إيطالية وأمريكية وكورية جنوبية لتطويره ضمن جولات التراخيص النفطية سنة (٢٠١٠م).

٨- حقل قبة صفوان: اكتُشف سنة (١٩٨٤م) من قبل شركة النفط الوطنية العراقية، ويقع جنوب مدينة البصرة على مقربة من الحدود العراقية الكويتية، تبلغ احتياطياته المؤكدة نحو (٢٠٠) مليون برميل. جرى تطويره من قبل شركة نفط الجنوب سنة (٢٠٠٨م)، يُنتج -حالياً- أكثر من (٥٠) ألف برميل بدرجة (٢٥) API.

٩- حقل الطوبة: اكتشفته شركة النفط الوطنية العراقية سنة (١٩٨٤م)، ويقع جنوب غرب البصرة، تبلغ احتياطياته نحو (١,٥) مليار برميل من النفط المؤكد. جرى تطويره من قبل شركة نفط الجنوب، يُنتج حالياً نحو (٣٠) ألف برميل (٢٠١٣م) من النوع المتوسط الخفيف (٢٨) API.

١٠- حقل صبة: يقع جنوب غرب البصرة، اكتشفته شركة النفط الوطنية العراقية في سنة (١٩٧٠م)، تبلغ احتياطياته المؤكدة نحو مليار برميل من النوع

الخفيف المتوسط، بدرجة كثافة (34) API .

١١- حقل السّية: اكتشفته شركة توتال (TOTAL) الفرنسية سنة (١٩٦١م). يقع جنوب البصرة، تمتدّ مكامنه إلى منطقة الفياضي في أبي الخصيب، وهو حقل غاز حرّ (Free-gas)، يحتوي على نحو (٤٠٠) مليار متر مكعب ضمن جولات التّراخيص النّفطيّة سنة (٢٠١٠م).

١٢- حقل أرطاوي: اكتشفته شركة نفط البصرة سنة (١٩٤٨م). يضمّ نحو مليار برميل من النّفط المؤكّد. تمّ تطوير أحد مكامنه (مكمن اليمامة) من قبل شركة نفط الجنوب سنة (٢٠٠٦م)، وتمّ حفر عدّة آبار في المكمن، يُنتج حالياً (٢٠١٣م) نحو (٤٥) ألف برميل، وقد تمّ نصب عازلات لغاز الرّطب والنّفط ووحدة استخلاص الكبريت من قبل كوادر الشّركة، وكذلك محطة عزل الغاز.

١٣- حقل السّندباد: من الحقول البكر، اكتشفته شركة (بتروبراس) سنة (١٩٧٤م)، وتركته بعد ذلك، يقع شرق مدينة البصرة، قريباً من الشّلامجة، ويحتوي على احتياطيّات تصل إلى (٢) مليار برميل، ثمّ تمّ تطويره من قبل شركة نفط الجنوب، ويُنتج حالياً نحو (١٦) ألف برميل من بئر واحدة، ويحتوي على كمّيات ضخمة من الغاز الطّبيعيّ.

١٤- حقل راجي: اكتشف سنة (١٩٥٠م) من قبل شركة نفط البصرة، وهو غير منتجٍ حالياً؛ لنضوب نفطه المؤكّد البالغ (٣٠٢) مليون برميل -آنذاك-.

١٥- حقل جريشان: اكتشفته شركة نفط البصرة سنة (١٩٥٩م)، ويضمّ نحو (٧٠) مليون برميل عند اكتشافه. غير منتجٍ حالياً؛ لنضوب نفطه المؤكّد. تبلغ كثافة النّفط فيه (32) API.

الجدول رقم (٢)

صادرات العراق من النفط الخام، ومنه صادرات البصرة (١٩٧٣-١٩٨٠ م)
(مليون دولار)

السنة	الصادرات الإجمالية	البصرة
١٩٧٣	٦,٤٨٣	٤,٨٠٠
١٩٧٤	١٢,٩٩٦	٩,٥٦٠
١٩٧٥	١٦,٠٩٥	١١,٧٠٠
١٩٧٦	١٩,٣٨٣	١٦,٢٥٠
١٩٧٧	٢٣,٣٢٦	٦٥٠,٩
١٩٧٨	٢٧,٧٠٢	١٠٠,٢٣
١٩٧٩	٣٩,٥٦٥	٢٠٥,٣٤
١٩٨٠	٤٧,٥٦٢	٣٠٠,٤١

المصدر:

(١) منظمة الأقطار العربية المصدرة للنفط، التقرير الإحصائي السنوي

٢٠٠١ م، أوابك، الكويت: ص ٢٠٣.

(٢) شركة النفط الوطنية العراقية/ فرع البصرة، التقارير المالية، أعداد مختلفة.

ب- الموانئ النفطية

تتفرّد محافظة البصرة بوجود الموانئ النفطية للعراق منذ أربعينيات القرن

الماضي، وهناك ميناءان رئيسان، هما^(١٧):

١- ميناء البصرة (البكر سابقاً)

بدأ العمل بإنشائه في العام (١٩٧٣ م) من قبل شركة (براون روث) (BR) بعقد

مع شركة النفط الوطنية العراقية، واكتمل العمل به، وأصبح جاهزاً في العام (١٩٧٥م)، وبطاقة تصديرية تبلغ (١, ٦) مليون (ب/ي)، وبأربعة أرصفة، ووصلت طاقته التصديرية في العام (٢٠١٣م) إلى (١, ٧٥٠) مليون (ب/ي). وقد تعرّض الميناء لأضرارٍ فادحةٍ نتيجةً للحروب التي خاضها النظام المباد، لكنّ شركة نفط الجنوب تمكّنت من تأهيله، وبطاقة فائضة، بكوادرها الهندسية بعد العام (٢٠٠٣م).

٢- ميناء العمية العميق

أنشئ سنة (١٩٥٩م) على عمق (٢٤م) في مياه الخليج العربي، بهيأة جزيرة صناعية مثبتة على ركائز مغمورة في المياه، وهو يبعد عن ميناء الفاو نحو (٤٠كم)، وقد دخل الخدمة سنة (١٩٦٢م)، تبلغ طاقته التصديرية نحو (١, ٦) مليون (ب/ي).

وبالإضافة إلى هذين الميناءين هناك:

٣- ميناء الفاو النطفي

أنجز في بداية الأربعينيات من القرن الماضي، بوصفه بناء تجارياً، وقد تمّ بناء الجزء الخاص بتصدير النفط من قبل شركة نفط البصرة آنذاك (BPC) بعد اكتشاف حقل الزبير سنة (١٩٤٨م)، وقد غادرت أوّل ناقلة نفط الميناء في: (١٩/١٢/١٩٥١م). يتكوّن الميناء من أربعة أرصفة لاستقبال الناقلات الصغيرة التي لا تزيد حولتها عن (٣٠) ألف طنّ، وقد توقّف العمل به منذ سنواتٍ لعدم صلاحيته للتحميل.

٤- منصّات التّحميل العائمة

بدأ العمل في الموانئ العائمة في البصرة بتاريخ: (٧/٣/٢٠١٣م)، وهناك أربع عوامات، تبلغ الطّاقة التصديريّة للعوامة الواحدة (٨٠٠) ألف (ب/ي)، وقد رست أوّل ناقلةٍ فيها على العوامة (SPM2)، وخلال أقلّ من شهرين جرى تصدير (٣٦٣) مليون برميل من النّفط من عوامتين للنّفط، وترسو على هذه العوامات النّاقلات العملاقة التي تُقدّر حمولتها بـ (٢ مليون طنّ)، وبمعدّل ضخّ (٢٨) ألف برميل في السّاعة.

الهوامش

- ١ - ستيفن همسلي لونكريك: العراق الحديث (١٩٠٠-١٩٥٠م)، ترجمة: سليم طه التكريتي: ص ٣٤٣.
- (*) شركة النفط التركية، أُسِّسَتْ سنة (١٩١٢م) بفرمان من السلطان العثماني للبنك الألماني، برأس مال مقداره (٨٠ / ٠٠٠) ألف جنيه إسترليني؛ إذ أغرى الألمان العثمانيون ببناء سكة حديد بغداد - برلين.
- ٢ - Dog Harold Claes : The unibedstat and Iraq : makink sense of the oil Factor middle East Policg vol X11 No 4 Winter 2005 washington DC US. pp. 48
- ٣ - خالد مطر مشاري، مستقبل الدولة الرعية في العراق، رسالة ماجستير: ص ٥٥.
- ٤ - المصدر: جال دولوناي. جان ميشيل شارلي، الجانب الشخصي من البترول، ترجمة: محمد سميح السيد (ط ١)، القاهرة، ١٩٨٧م: ص (٢١).
- ٥ - وداد جابر غازي، تأميم النفط الإيراني وتداعياته على العلاقات الدولية (١٩٥١-١٩٥٣م)، الجامعة المستنصرية، مركز المستنصرية للدراسات الوطنية والدولية: ص ٣، بحث على الرابط: www.iasi.net/iasi.
- ٦ - د. محمد أزهري السناك، البترول العراقي بين السيطرة الأجنبية والسيادة الوطنية: ص ٦٣.
- ٧ - د. عبد الأمير الأنباري، اتفاقيات النفط وتطورها في الشرق الأوسط، دورة أساسيات صناعة النفط والغاز، أوابك، الكويت، ١٩٧٦م: ص ١٩-٢٠.
- ٨ - د. عبد الأمير الأنباري: مصدر سابق: ص ٢١.
- ٩ - د. عصام الجلبي، النفط وترسيم الحدود العراقية - الإيرانية، على الموقع: [Http://asharaqelarabi.org.uk/mu.sat\b-mushacat.3461.htm](http://asharaqelarabi.org.uk/mu.sat\b-mushacat.3461.htm)

- وكذلك المصدر: السياسة النفطية في (احتلال العراق وتداعياته عربياً وإقليمياً ودولياً)، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- (*) بدأت شركة النفط الوطنية عملياتها النفطية في البصرة في حقل الرميثة في العام (١٩٦٨م)؛ وذلك لسهولة استخراج النفط من هذا الحقل فوق العملاق؛ إذ وجدت أنه أكبر حقل للنفط في العراق -آنذاك- وهو أول استثمار وطني مباشر في العراق، وفي البصرة.
- ١٠ - للمزيد من التفاصيل، يُمكن الرجوع إلى: د. عباس النصراوي، الاقتصاد العراقي، (النفط، التنمية، الحروب، التدمير، الآفاق) (١٩٥٠-٢٠١٠م)، (أطروحة دكتوراه) بالإنكليزية، ترجمة: محمد سعيد عبد العزيز، دار الكنوز، بيروت، ١٩٩٥م.
- ١١ - شركة نفط الجنوب، تقرير: قسم العلاقات العامة، شعبة الإعلام، بدون ترقيم.
- ١٢ - المصدر السابق نفسه.
- ١٣ - شركة نفط الجنوب/ أرشيف الشركة/ قسم العلاقات العامة/ الإعلام.
- (*) هذه طاقة إنتاجية، وليس إنتاجاً (الباحث).
- ١٤ - BP. The Rumaila story . Alghader Co. for Printing and Publishing – Basrah 2012.
- ١٥ - نفط الجنوب، دراسة خاصة في نفط الجنوب، دائرة المكامن وتطوير الحقول، حقل السنية، ٢٠٠٠م.
- ١٦ - شركة نفط الجنوب (كراس)، قسم العلاقات العامة، شعبة الإعلام (٢٠١٢م).
- ١٧ - مجلة نفطنا، العدد (٥٦)، السنة التاسعة، أيلول (٢٠١٣م)، شركة نفط الجنوب، موانئ التصدير والاقتصاد العراقي: ص ٣٠-٣١.

المصادر

- ١- ستيفن همسلي لونكريك: العراق الحديث (١٩٠٠-١٩٥٠م)، ترجمة: سليم طه التكريتي، منشورات دار الفجر، بغداد، ١٩٨٨م.
- ٢- نفط الجنوب، دراسة خاصة في نفط الجنوب، دائرة المكامن وتطوير الحقول، حقل السّبية ٢٠٠٠م.
- ٣- شركة نفط الجنوب (كرّاس)، قسم العلاقات العامة، شعبة الإعلام (٢٠١٢م).
- ٤- خالد مطر مشاري، مستقبل الدولة الرّيعية في العراق، رسالة ماجستير، مكتبة الإدارة والاقتصاد، جامعة البصرة، ٢٠٠٨م.
- ٥- وداد جابر غازي، تأمين النّفط الإيرانيّ وتداعياته على العلاقات الدّولية (١٩٥١-١٩٥٣م)، الجامعة المستنصرية، مركز المستنصرية للدراسات الوطنية والدّولية.
- ٦- د. محمّد أزهري السّالك، البترول العراقيّ بين السّيطرة الأجنبيّة والسّيادة الوطنيّة، جامعة الموصل، ١٩٨٠م.
- ٧- د. عبد الأمير الأنباري، اتفاقيّات النّفط وتطوّرها في الشّرق الأوسط، دورة أساسيات صناعة النّفط والغاز، أوابك، الكويت، ١٩٧٦م.
- ٨- د. عباس النّصراوي، الاقتصاد العراقيّ، (النّفط، التنمية، الحروب، التدمير، الآفاق) (١٩٥٠-٢٠١٠م)، (أطروحة دكتوراه) بالإنكليزيّة، ترجمة: محمّد سعيد عبد العزيز، دار الكنوز، بيروت، ١٩٩٥م.
- ٩- السّياسة النّفطيّة في (احتلال العراق وتداعياته عربيّاً وإقليميّاً ودوليّاً)، بحوث ومناقشات الدّعوة الفكرية، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت.
- ١٠- شركة نفط الجنوب، تقرير: قسم العلاقات العامة، شعبة الإعلام، بدون ترقيم.
- ١١- شركة نفط الجنوب / أرشيف الشركة / قسم العلاقات العامة / الإعلام.

المصادر الأجنبية

1- Dog Harold Claes : The unibedstat and Iraq : makink sense of the oil Factor middle East Policg vol X11 No 4 Winter 2005 washington DC US. pp. 48

2- BP. The Rumaila story . Alghader Co. for Printing and Publishing Basrah 2012.

مصادر عامة

Survey of economic and social Development In the Escwa – ١
Region 2010 – 2011. p7

٢- باسل محمد نوري وآخرون، تصنيف المخزون النفطي العراقي في شركة نفط الجنوب، دائرة الحقول، ١٩٩٢ م.

٣- ناجي مزهر عبد الرحمن وهادي عبد الأريج، الصناعة النفطية في العراق، مركز العراق للدراسات، بغداد، ٢٠٠٩ م.

٤- وزارة النفط، مديرية الحقول، بغداد.

المجلات

- مجلة نفطنا، العدد (٥٦)، السنة التاسعة، أيلول (٢٠١٣ م)، شركة نفط الجنوب، موانئ التصدير والاقتصاد العراقي.

مواقع إلكترونية

- د. عصام الجلبلي، النفط وترسيم الحدود العراقية - الإيرانية، على الموقع:
[Http://asharaqelarabi.org.uk/mu.sat\b-mushacat.3461.htm](http://asharaqelarabi.org.uk/mu.sat\b-mushacat.3461.htm)

المكتبات العامة في محافظة البصرة في الثمانينيات
(دراسة ميدانية)

General Libraries in Basrah Governorate During 1980s
(a Field Study)

أ.د. محمد عودة عليوي - أ.م.د. مجبل لازم مسلم المالكي
جامعة البصرة/ كلية الآداب/ قسم المعلومات وعلم المكتبات

Professor. Dr. Mohammad Aodàh Eliwee

Assistant proffssor Dr. Mogbel Lazem Muslim al-Malikee

Department of Information and Library Science / College of Arts /

University of Basrah

ملخص الدراسة

تتناول هذه الدراسة واقع المكتبات العامة من حيث الموقع والبنية والأثاث والموارد البشرية والمجموعة المكتبية، فضلاً عن الخدمات التي تُقدّمها للمجتمع. أمّا أدوات جمع المعلومات، فقد اشتملت على الاستبيان والمقابلة والملاحظة، فضلاً عن الوثائق ومصادر المعلومات المتعلقة بالموضوع، وقد توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج، ثمّ وضعت الأسس الكفيلة بتطوير هذه المكتبات وضمان نجاحها في تأدية رسالتها، وأخيراً، أوصت الدراسة بعدد من التوصيات التي تُسهم في النهوض بهذه المكتبات.

Abstract

This study deals with the reality of public libraries in the province of Basrah in terms of location, building, furniture, human resources and library collection, in addition to the services offered to the society.

The information-gathering tools included the questionnaire, interview and observation as well as documents and information sources on the related to the subject. The study has come with several results. It also seeks to set up the foundations for the development of these libraries and ensure success in the performance of their mission. Finally, the study puts forward a number of recommendations that contribute to the advancement of these libraries.

مقدمة

انطلاقاً من كون المكتبات العامة تمثل مركزاً للإشعاع الفكري والحضاري، ومظهراً من مظاهر رقي المجتمع وتقدمه وازدهاره؛ لذا أصبحت الحاجة ضرورية للاهتمام بتنمية هذا النوع من المكتبات، وتطويره وتحديثه، فهو يمثل جامعات شعبية مشتركة تنهل من زادها الفكري والثقافي شرائح المجتمع جميعاً، عبر ما توفره من مقتنيات بصنوف العلم والمعرفة المختلفة، وبمختلف أوعية المعلومات، وما تقدمه من معلومات جلية لجمهورها من القراء والباحثين؛ ونتيجة لهذه الأهمية، وللرسالة التي تؤدّيها المكتبة العامة في خدمة المجتمع لابد من تعميم هذا النوع من المكتبات لكي يشمل كلّ مدينة وناحية وقرية ضمن إطار الأهداف العامة لهذه المكتبات، ولكون مدينة البصرة تمثل منذ أقدم العصور مركزاً مرموقاً من مراكز العلم والثقافة، ولاهتمامها المتزايد بنشر المعرفة وتشجيع العلماء والباحثين وتعزيز دور الكتاب ومكانة المكتبة وترصين الثقافة العربية وتوسيع منافذها، فقد استمرّ هذا العطاء المتواصل لهذه المدينة عبر المراكز الثقافية والتربوية، ومن ضمنها المكتبات بجميع أنواعها، وإيماناً بالدور الذي تؤدّيه المكتبة العامة في هذه المحافظة، فقد جاءت هذه الدراسة من أجل تسليط الأضواء على واقع هذه المكتبات؛ بغية تطويرها بما يكفل تحقيق أهدافها بنجاح ولتأصيل القيمة العلمية والحضارية لهذه المدينة؛ كي تكون امتداداً لماضي الأمة العربية العريق.

أهداف الدراسة

تسعى الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- ١- تسليط الضوء على واقع المكتبات العامة في محافظة البصرة وتبيان فاعلية خدماتها وغنى مجاميعها، وأهميّة ذلك في خدمة جمهور المستفيدين.
- ٢- معرفة مدى التعاون والتنسيق بين المكتبة المركزية العامة والمكتبات الفرعية من ناحية، وبين المكتبات الفرعية نفسها من ناحية أخرى في المجالات الفنية والإدارية والاجتماعية.
- ٣- التعرف على مدى استخدام الجمهور للمكتبة العامة، ونوعية المستفيدين، وانعكاسات ذلك على الخدمات المكتبية.
- ٤- كيفية تنظيم المجموعات المكتبية والنظم المستخدمة فيها؛ توفيراً لجهود المستفيدين ووقتهم.
- ٥- وضع الأسس الكفيلة بتطوير المكتبة العامة ونجاحها في ممارسة دورها بوصفها مؤسسة ثقافية واجتماعية وحضارية.

حدود الدراسة

١ - الحدود الزمانية:

اقتصرت الدراسة على الفترة الزمنية لعام (١٩٨٨ م).

٢ - الحدود المكانية:

شملت الدراسة المكتبات العامة في محافظة البصرة، التي يبلغ عددها ثمان مكتبات من ضمنها المكتبة المركزية العامة، واستثنت الدراسة المكتبة العامة في

قضاء الفاو؛ لكونها مغلقة لظروف الحرب القائمة في تلك الفترة.

أدوات الدراسة

تمّ الاعتماد في هذه الدراسة على الأدوات والوسائل الآتية:

١- استبيان مقدّم إلى أمناء المكتبات المشمولة بالدراسة.

٢- المقابلات الشخصية مع موظفي المكتبة.

٣- الإحصائيات المكتبية.

٤- الملاحظات.

٥- المطبوعات ذات العلاقة بالموضوع.

ماهية المكتبة العامة وأهدافها

المكتبة العامة هي المؤسسة الثقافية والتعليمية التي تحفظ التراث الإنساني والحضاري، وتعمل على تنظيمه بالشكل الذي يحقق الاستفادة منه بأيسر الطرق وأسرعها، وتقديمه للمستفيدين على اختلاف مستوياتهم العلمية والثقافية، وإنّها تمثل مظهراً حضارياً وديمقراطياً؛ لكونها تقدّم خدماتها مجاناً لجميع شرائح المجتمع، مع غرض النظر عن التمييز بين دين أو جنس أو طبقة معينة، وكلّ ذلك يُعطيها الأولوية في التثقيف والتوعية الجماهيرية وخدمات البحث الحرّ والتثقيف الذاتي لجميع المواطنين؛ لغرض مواصلة التعليم ومتابعة تطورات العلم والمعرفة، ولا بدّ من أن تتوافر في هذا النوع من المكتبات الشروط الآتية^(١):

١- أن تخدم المواطنين جميعاً دون تمييز، وتقدّم خدماتها مجاناً.

٢- أن تنشأ وفقاً لقانون خاصّ.

٣- أن تستخدم نظام الرفوف المفتوحة؛ لإتاحة الفرصة للقارئ للتعرف على المطبوعات والحصول على المعلومات.

٤- أن تُعير مقتنياتها للاطلاع الخارجي لتعم فائدتها الجميع.
أما أهداف المكتبة العامة، فيمكن إيجازها بما يأتي^(٢):

١- غرض تعليمي، من خلال تشجيع أفراد المجتمع صغاراً وكباراً للحصول على المعلومات ومتابعة البرامج التعليمية والثقافية التي تُعلن عنها المكتبة، وتمكين الطلبة من الحصول على المصادر والمراجع التي تُعينهم في كتابة البحوث والتقارير.

٢- غرض ثقافي يتعلّق بالأمور الثقافية العامة لجميع المعارف والعلوم؛ لإغناء وتطوير مدارك المواطنين وقابليتهم، ما يزيد من تفاعلهم مع الحياة، وإدراكهم للمشكلات المحلية والعالمية.

٣- غرض نفعي يُسهم في تزويد القراء بالمهارات والخبرات اللازمة التي تعينهم على تطوير أداء العمل ورفع المستوى المهني، كالمجموعات التي تخصّ الحِرَف والمِهَن والصناعات.

٤- استثمار أوقات الفراغ، أي: تشجيع الانتفاع المجدي بأوقات الفراغ لما يُمكن أن يُدرّ فائدة تُسهم في تطوير الفرد، بدلاً من تبديد الوقت في وسائل اللّهُو غير المفيدة، من خلال رفع المستوى الفني والتذوّق الجمالي، وإشباع حاجات الفرد وتحقيق رغباته.

٥- تعزيز الروابط الاجتماعية بين المواطنين من خلال إقامة الندوات والمحاضرات، وعرض الأفلام، وتبادل الآراء، وحلّ المشكلات الجماعية

والفردية، ما يؤدي إلى تعميق وتوطيد أواصر العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع.

٦- حفظ تراث المجتمع عبر الاحتفاظ بالسجلات والوثائق والأدلة والإحصائيات المختلفة الخاصة ببيئة ذلك المجتمع وموروثه الثقافي. ولكي تسهم المكتبة إسهاماً فعالاً في تحقيق مثل هذه الأهداف، لابد لها من أن تُعزّز دورها ومكانتها بين أفراد المجتمع بوصفها وسيلة من وسائل الاتصال، ما يؤدي إلى التفاعل والاندماج مع المجتمع، ومن ثمّ كسبه عبر برامجها التثقيفية والتعليمية ونشاطاتها الأخرى، المتمثلة بإقامة المعارض والندوات والمهرجانات والاحتفالات، إضافة إلى تنسيق نشاطاتها مع المؤسسات الثقافية والاجتماعية والتعليمية، وتسهيل مهمة تقديم خدماتها عبر تنظيم مجاميعها وإعداد الفهارس والأعمال الببليوغرافية بمختلف أنواعها؛ لكي تكون قوة إيجابية تُجسّد حقيقة أهدافها التي وُجدت من أجلها.

نبذة تاريخية عن المكتبات العامة في محافظة البصرة

تُعدّ المكتبة العامة في محافظة البصرة أكبر وأقدم مكتبة حكومية شكّلت النواة الأولى للمكتبات منذ تأسيسها عام (١٩٣٦م)، وكانت تُعرف -آنذاك- بمكتبة المعارف، وفي عام (١٩٥٧م) شغلت البناية الكائنة قرب الإدارة المحلية -طريق شارع (الموفق) حالياً، وسمّيت بـ(مكتبة اللواء المركزية)، وقد منحت الإدارة المحلية درجة مدير للسيد (محيي الدين الرفاعي)، الذي عدّ أول مدير للمكتبات في المحافظة، وفي عام (١٩٦٨م) سُمّيت بالمكتبة المركزية العامة.

وقد انتقلت المكتبة عام (١٩٨٣م) إلى بنايتها الجديدة الكائنة في شارع فلسطين، التي أنجزتها الإدارة المحلية في المحافظة بكلفة تقدّر بـ (٢٥٠) ألف دينار؛ ولغرض تطوير المكتبات ونشر الوعي الثقافي بين المواطنين على نطاق واسع بادرت الإدارة المحلية في المحافظة إلى تأسيس سبع مكتبات فرعية في الأضية والنواحي التابعة للمحافظة، فضلاً عن المكتبة المركزية العامة، وفي ما يلي البيانات الخاصة بكل منها^(٣):

ت	اسم المكتبة	سنة التأسيس	العنوان والموقع
١	مكتبة قضاء القرنة العامة	١٩٦٢م	مركز القضاء
٢	المكتبة العامة في قضاء أبي الخصيب	١٩٦٣م	مركز القضاء باب السليان
٣	مكتبة المعقل العامة	١٩٦٧م	المعقل
٤	مكتبة قضاء الزبير العامة	١٩٦٩م	مركز القضاء
٥	المكتبة العامة في الجمهورية	١٩٧٤م	مركز القضاء - قرب حيّ الزهراء
٦	المكتبة العامة في قضاء شط العرب	١٩٧٦م	مركز القضاء - قرب دائرة البريد - شط العرب
٧	مكتبة قضاء المدينة العامة	١٩٨٠م	مركز القضاء - قرب البلدية

أمّا من حيث الجهات المسؤولة عن المكتبات التابعة للإدارة المحلية، ووفقاً لنظام المكتبات العامة رقم (٤٠) لسنة (١٩٧٤م)، فإنّ وزارة الإعلام هي

المسؤولة عن الإشراف الإعلامي والثقافي والفني، وتكون وزارة الداخلية مسؤولة عن مباني المكتبات العامة وتجهيزها بالأثاث واللوازم، وكل ما يتعلق بالشؤون الإدارية والمالية، بما في ذلك رواتب العاملين في المكتبات ونفقات النشاط المكتبي.

أما فيما يتعلق بالهيكل الإداري والتنظيمي للمكتبات العامة الذي يحدد سلطاتها ومسؤولياتها وطريقة تنظيمها الداخلي ومصادر تمويلها وتفويض الصلاحيات والمسؤوليات، فيمكن ملاحظة ذلك تفصيلاً في الملحق رقم (٢) المرافق في نهاية الدراسة.

أسس نجاح المكتبات العامة في تأدية رسالتها

١- الموقع والبنية

لكي تؤدي المكتبات العامة خدمات فعالة لجمهورها، ولكي تكون مركز إشعاع ثقافي تعم فائدته الجميع، لابد من الاهتمام المتميز باختيار الموقع المناسب الذي لا يقل أهمية عن البنية نفسها؛ لذا لابد من مراعاة الأمور التالية عند اختيار الموقع:

أ- أن يكون المبنى في مكان يتوسط المدينة، وقريباً من الأسواق الكبيرة والأماكن التي يتردد عليها الأفراد بكثرة، إضافة إلى قربه من التجمعات السكنية والمراكز الثقافية، مع مراعاة هدوء المنطقة وسهولة الوصول إليها من قبل أكثرية السكان.

ب- ترك مساحة مناسبة شاغرة لاحتياجات توسع المكتبة في المستقبل.

ج- توفير مساحة تخصّص لموقف السيّارات الموظّفين والرّواد.

أمّا فيما يخصّ بناية المكتبة من حيث سعتها وتصميمها، فيُفترض أن يكون هناك تعاون وتنسيق بين أمين المكتبة والمهندس المعماريّ، أو أن يتمّ تشكيل لجنة تضمّ بعض الخبراء والمتخصّصين من المكتبيّين والمهندسين لغرض وضع التّصاميم والتّخطيط اللازم لمبنى المكتبة، آخذين بالنّظر العلاقات والتّقارب بين أقسام المكتبة من حيث الوظائف والخدمات والإجراءات المكتبيّة المختلفة، إضافة الى العناصر الأساسيّة في البناية المتمثّلة بما يأتي:

١- المدخل: ويُفضّل أن يكون واسعاً قدر الإمكان؛ لتسهيل حركة رواد المكتبة من حيث استخدام الفهارس والسّلام وإعارة الكتب وطلب المعلومات. ويشتمل المدخل على مكتب الاستعلامات، ودورات المياه، ثمّ يؤدّي إلى أقسام الإعارة والمراجع وبعض الأدوات التي تُستخدم من قبل رواد المكتبة، كالفهارس، وعارضات المطبوعات، والأدوات الكثيرة الاستعمال.

٢- العلاقة بين الأقسام: يُؤخذ بالنّظر قرب بعض الأقسام وبُعدها عن بعضها بحكم طبيعة العمل المكتبيّ، مثل: تجاور قسم التزويد مع قسم الفهرسة والتّصنيف؛ لكون أعمالهما مكملّة الواحد للآخر، وكذلك قرب قسم الإعارة من قسم خدمات المراجع والمعلومات؛ بحكم علاقتها المباشرة مع المستفيدين، وهكذا بالنّسبة إلى بقيّة الأقسام.

٣- غرف الموظّفين: ينبغي أن تكون الغرف المخصّصة للموظّفين والعاملين متناسبة مع متطلّبات أعمالهم، وعلاقة ذلك بطبيعة العمل بالأقسام الأخرى، فبعض هذه الغرف تحتاج إلى أن تكون مستقلّة أو منعزلة، وبعضها الآخر تحتاج

أن تكون على اتصال مباشر بالمستفيدين.

ويتفاوت توزيع أعداد موظفي المكتبة في قاعات العمل أو غرفه على وفق طبيعة الأعمال الإدارية والفنية، وكذلك على وفق حجم المكتبة ونوعية الخدمات التي تؤديها.

٤- قاعات المطالعة: ويكون اختيارها وتصميمها بما يتناسب مع حجم المكتبة وحاجة روادها وعددهم، وينبغي أن تتوافر فيها المستلزمات الصحيّة، وشروط الراحة والهدوء، كالإنارة الطبيعيّة والاصطناعيّة، والتهوية، والتدفئة والتبريد كافّة، وغير ذلك.

٥- قاعات خاصّة بخدمات الأطفال: وتستوجب أن يكون شكلها وتنظيمها وتأثيرها متناسباً مع أذواق الأطفال ورغباتهم وأعمارهم.

٦- قاعات أخرى: قد تحتاج المكتبة الحديثة المتطورة إلى قاعات إضافية تُجسّد فيها نشاطها الفني والثقافي والاجتماعي من خلال البرامج وعروض الأفلام الثقافية والعلمية والمحاضرات، إضافة إلى قاعات الأجهزة والمعدّات، كأجهزة التصوير والاستنساخ، وأجهزة التّجليد، وأجهزة المصغّرات الفلمية.

ويمكن القول: إنّ تصميم مباني المكتبات العامّة واختيار مواقعها وساحاتها، يجب أن يكون معتمداً على دراسة مسحية لواقع المنطقة وطبيعة المجتمع المحيط بها، وظروفه التعليميّة والاقتصاديّة، ومدى كثافته وتركزه، إضافة إلى التعرّف على طبيعة أعماله ومهنه وموروثه الثقافي والحضاري؛ ولذلك يختلف تصميم بناية المكتبات القرويّة عن تصميم مباني المكتبات الفرعيّة والمكتبات العامّة المركزيّة من حيث السّعة وتنوّع الأقسام وتوفير المساحات الشّاغرة لتوقّعات

التوسّع في المستقبل.

٢- القوى العاملة

يعتمد نجاح الخدمات المكتبية اعتماداً أساسياً على مستوى العاملين في المكتبات ونوعيتهم، ومؤهلاتهم العلمية والمهنية، ومدى وعيهم وحبهم طبيعة العمل المكتبي، ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ حجم العاملين وطبيعتهم في المكتبة تتأثّر بعدّة عوامل، منها:

١- حجم المجتمع الذي تخدمه المكتبة.

٢- نوعية المستفيدين الفعليين في خدمات المكتبة وأعدادهم.

٣- طبيعة المجموعة المكتبية وحجم ومقدار النمو السنوي لها.

٤- برامج المكتبة العامة ونشاطاتها الثقافية والتربوية والاجتماعية، مثل: برامج العلاقات العامة، وخدمات المكتبة المتنقلة، والمحاضرات، والندوات.. وغير ذلك.

ولهذا لا بدّ من أن تأخذ المكتبة بالنظر العوامل المذكورة أعلاه بتوفير العاملين في المكتبة وتجهيزهم، من المتخصصين وغير المتخصصين، على وفق نوعية الأعمال في الأقسام أو الشُعَب في المكتبة وطبيعتها، ويمكن تقسيم العاملين في المكتبات على ثلاث فئات:

١- العاملون الفنيون: وهم الذين يقومون بممارسة الأعمال الفنية، كالفهرسة والتصنيف، وطلب الكتب، وإرشاد القراء، والمفروض أن يكونوا من ذوي الاختصاص في حقل المكتبات والمعلومات.

٢- الإداريون: وتتركز طبيعة أعمالهم على تنظيم إدارة المكتبة والتخطيط لها، وتوزيع الأعمال، وتفويض الصلاحيات والمسؤوليات، وحفظ الأوراق، وتنسيق الأعمال بين الأقسام المختلفة، ومراقبة أداء الأعمال ومتابعته، والتخطيط للميزانية، ويُعد أمين المكتبة المسؤول الإداري الأول عن نجاح إدارة المكتبة.

٣- العاملون غير الفنيين: وهم من يمارس الأعمال الكتابية الروتينية، أو المساعدة في بعض الأعمال الخدمية، كمناولة الكتب، وإعارتها، واسترجاعها، وتنظيم الكتب على الرفوف، وتشغيل المكائن، وغيرها من الأعمال التي لا تحتاج إلى دراية فنية أو إعداد مهني.

أما بالنسبة لأعداد العاملين في المكتبة العامة، فيتحدد إما تبعاً لعدد سكان المنطقة، أو تبعاً لعدد الكتب المعارة سنوياً، فقد يُخصّص لكل (٢٥٠٠ - ٣٠٠٠) شخص في المنطقة شخصٌ متخصص وآخر غير متخصص كحد أدنى، وبصورة عامة يجب أن لا تقل نسبة المتخصصين إلى غير المتخصصين عن (٣٣٪)، كما يمكن تعيين متخصص واحد لخدمات الأطفال لكل (١٠,٠٠٠) طفل^(٥).

وقد يكون تحديد عدد العاملين تبعاً للكتب المعارة سنوياً، فقد يتم تخصيص موظف واحد على سبيل المثال لكل (١٥,٠٠٠ - ٢٥,٠٠٠) كتاب معار سنوياً^(٦)، والرأي الأخير يمثل الأساس الأكثر دقة والأقرب إلى الموضوعية، بملاحظة أن عدد مستخدمي المكتبة الفعلي يبدو واضحاً من خلال عدد الكتب المعارة سنوياً، في حين قد لا يمثل العدد الكلي لسكان المنطقة عدد مستخدمي المكتبة الفعلي.

مؤهلات العاملين في المكتبات العامة

ينبغي أن يتوافر للمكتبة العامة الكادر المكتبي المتخصص والمؤهل الذي

يُسهم في تنظيمها على أسس علمية، بما يتناسب مع آخر التطورات في ميدان مهنة المكتبات، إضافة إلى تقديم أفضل الخدمات إلى جمهور المستفيدين؛ إذ لا يُمكن للمكتبة دون وجود هذين الكادرين أن تحقق رسالتها وتقدم خدماتها بشكل متكامل، ولا بدّ من التركيز في هذا الخصوص على مؤهلات المشرف على المكتبات العامة ومواصفاته، ومدير المكتبة العامة وأمينها^(٧).

أ- المشرف على المكتبات العامة: ينبغي أن يكون هنالك مشرف على المكتبات العامة في كلّ محافظة، وتوجد فيه المواصفات والمؤهلات الآتية:

١- حاصل على شهادة جامعية أولية مع شهادة الماجستير في علم المكتبات والمعلومات.

٢- له خبرة في العمل المكتبي لا تقلّ عن خمس سنوات.

٣- أن يجيد لغة أوروبية أو أكثر إضافة إلى اللغة العربية.

٤- أن يكون عضواً في أية جمعية للمكتبات والمعلومات.

٥- يمتلك ثقافة عالية وشخصية اجتماعية جذابة.

ب- أمّا أمين المكتبة العامة، فلا بدّ أن تتوافر فيه الشروط والمؤهلات الآتية:

١- شهادة جامعية أولية مع شهادة اختصاص في علم المكتبات والمعلومات لا تقلّ عن الدبلوم العالي.

٢- خبرة وممارسة في العمل المكتبي لا تقلّ عن ثلاث سنوات.

٣- إلمام بلغة أوروبية أو أكثر.

٤- أن يكون عضواً في أية جمعية للمكتبات والمعلومات.

٥- أن يكون ذا شخصية جذابة ومتفتحة.

ونظراً إلى أن أكثر العاملين في مكتباتنا العامة هم دون المستوى المطلوب من حيث التأهيل الفني والمهني، فينبغي أن تعدّ برامج تدريبية لغرض تطوير الكادر، ومنها:

- ١- تعريف الموظّفين الجدد بإدارة المكتبة وأقسامها.
- ٢- إعداد دليل المكتبة (Library Guide)؛ لغرض تعريف الموظّفين بالمكتبة، وطبيعة العمل في الأقسام المختلفة، وساعات الدوام، والنظام المتّبع فيها.
- ٣- التّدريب أثناء الخدمة، أو فتح دورات مكتبيّة؛ لغرض رفع كفاءة العاملين وتطوير قدراتهم في مجال العمل المكتبيّ.
- ٤- حضور الاجتماعات والندوات والمؤتمرات الوطنية والعالمية؛ لغرض الاطلاع على أحدث التطوّرات الحاصلة في مجال المكتبات، إضافة إلى تبادل الآراء والخبرات لتطوير العمل المكتبيّ.
- ٥- اجتماعات الموظّفين الدّورية التي يتمّ فيها مناقشة المشاكل الخاصّة بالعمل وكيفية تجاوزها.
- ٦- إتاحة الفرصة للعاملين بمنحهم الإجازات الدّراسية والزّمالات والبعثات لإكمال دراساتهم في مجال المكتبات والمعلومات.
- ٧- الكتابة في مجال المكتبات والمعلومات، وتسهيل مهمّة نشر البحوث في المجلّات الرّصينة والمتخصّصة.
- ٨- التّريقات والمكافآت التي تُعدّ من الدّوافع والمحفّزات الأساسيّة لتشجيع العاملين على الإبداع والإقبال على مهنة المكتبات.

٣- مجاميع المكتبة العامة

من الأسس المهمة التي تُبنى عليها المكتبة العامة هي المجموعة المكتبية، التي يتحدد حجمها ونوعيتها اعتماداً على طبيعة المجتمع ورغباته وحاجاته الأساسية، كما تتأثر هذه المجموعة بميزانية المكتبة، ومدى قربها أو بعدها عن المكتبات الأخرى، فضلاً عن أهمية توفير هذه المجموعة بما يتناسب وأهداف المكتبة العامة وفلسفتها في خدمة المجتمع الذي تتعامل معه.

وبما أن المكتبة العامة تخدم شرائح اجتماعية مختلفة وغير متجانسة؛ لذا ينبغي أن تكون مجاميعها المكتبية متنوعة، وتُشبع رغبات الجمهور، وتُرضي أذواقه المختلفة، ويمكن أن نُجمل هذه المجاميع بما يأتي:

أ- الكتب المرجعية: وهذه المجموعة لا غنى لأي مكتبة عامة عنها؛ نظراً إلى حاجة المستفيدين إليها بشكل مستمر، من حيث الاستشارة وتقصي الحقائق والمعلومات السريعة، وتتمثل هذه المراجع الأساسية بالمعاجم اللغوية، والموسوعات المختلفة، والبليوغرافيات، والأدلة، والأطالس، والتقاويم، وغيرها من كتب المراجع.

ب- مجموعة الكتب الثقافية والترويحية: وتتمثل في الكتب التي تُسهم في رفع مستوى الفرد الثقافي وتوسيع مداركه، وتفتح ذهنه على تجارب المجتمعات ومشكلاتها، وترفده بالمعلومات التي تساعد على بناء شخصيته، وتجعله أكثر نضجاً وتطوراً؛ لكي يكون مواطناً يُسهم في تطوير مجتمعه، وقد لا تقتصر هذه المجموعة على الكتب فحسب، وإنما تتعداها إلى مصادر المعلومات الأخرى، وبخاصة الدوريات العلمية والأدبية والاجتماعية، إضافة إلى ذلك المطبوعات

التي تُنمّي الهوايات المختلفة، كالرياضة والرّسم والحياكة والتّطريز وفنّ الطبخ، وغيرها.

ج- مجموعة كتب الأطفال: وغرضها الأساس توسيع مدارك الطّفل وتنمية مواهبه ومساعدته في إثراء معلوماته بما يدور حوله والعالم المحيط به. وينبغي اختيار هذه المجموعة بدقّة متناهية لغرض بناء الأطفال بناء سليماً؛ لأنّهم جيل المستقبل وثروة البلد القوميّة، وينبغي أن تتضمّن سياسة الاختيار العناصر الآتية:

١- اختيار أحسن الكتب والموادّ الثّقافيّة التي تناسب تطلّعات الأطفال وتُشبع حاجات القراءة لديهم.

٢- تنوع مجموعات كتب الأطفال بمختلف الموضوعات العلميّة والأدبيّة، بما ينمّي لديهم الهوايات الفاضلة.

٣- اختيار المطبوعات المكتوبة بأسلوب جيّد وواضح وسهل، دون نقص أو تشويه للحقائق العلميّة.

٤- لا بدّ من مراعاة العمر والإدراك العقليّ والمواهب والخلفيّات المختلفة للأطفال، وأن تُراعى في عمليّة الاختيار الجوانب التّربويّة.

٥- تكرار الكتب والموضوعات التي يكثر الطّلب عليها، مع مراعاة عدم الانحياز لموضوع معيّن على آخر، أو مجموعة على حساب أخرى.

٦- ينبغي أن تؤخذ بالنّظر الجوانب الشّكليّة للكتاب، من حيث حجمه وحروف الكتابة ونوع الورق وتضمينه الوسائل الإيضاحيّة، كالصور الملوّنة الجذّابة، التي تعطي جانباً توضيحياً له علاقة بهادّة الكتاب أو محتواه.

د- مجموعة الكتب المهنية والحرفية: وينبغي على المكتبة توفيرها وتنميتها باستمرار؛ لغرض إطلاع المستفيدين على أحدث المعلومات في مجال تطوير الحرف والمهن المختلفة؛ من أجل إكسابهم الخبرات والمهارات الأساسية التي تُنمّي الإنتاج وتزيده، وتطوّر قدرات الأفراد، للإسهام في عملية البناء والتنمية، كلّ من موقعه، ومن أمثلة هذه المجموعة: المطبوعات التي تخصّ الحرف الزراعيّة والصنّاعيّة والتّجاريّة، وغيرها.

هـ- الموادّ السّميّة والبصريّة: لا يخفى أنّ الموادّ السّميّة والبصريّة تمثّل جانباً جوهريّاً في عمليّة التّعليم وخدمة المستفيدين؛ إذ إنّها تشكّل (٨٨٪) من اكتساب المعرفة البشريّة^(٨)، وتساعد في حفظ المعلومات في الذاكرة لفترة أطول، فضلاً عمّا تميّز به من عناصر الشّويق وإثارة الانتباه وشدّ المستفيدين إلى المتابعة، ويبدو هذا واضحاً عبر عرض الأفلام والشّرائح والصّور وأجهزة العرض (فوق الرّاسيّة)، وكذلك التّسجيلات الصّوتيّة واستخدام التّلفزيون التّربويّ المغلق، في إعداد البرامج العلميّة والتّعليميّة التي تُسهم في تعزيز المعلومات لجمهور المكتبة وتوضيحها.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ توفير هذه المجاميع يتطلّب تحقيق حالة التّوازن في المجموعة المكتبيّة، ويراعى في ذلك انتقاء أحسن الطّبّعات للكتب والمراجع الأساسيّة وأفضلها، وتعتمد عمليّة اختيار هذه المجاميع على تشكيل لجنة خاصّة تأخذ على عاتقها تقييم الكتب والموادّ المكتبيّة الأخر، ومن ثمّ اختيار ما يتناسب مع أغراض المكتبة العامّة وأهدافها، ويكون توزيع نسب المجموعة المكتبيّة على عدد السّكّان، بتقدير الكثير من الخبراء على الوجه الآتي^(٩):

ت	عدد السكان	عدد الكتب لكل شخص	المجموع الكلي للكتب
١	٦٠٠٠-١٠,٠٠٠	٣	٢٥,٠٠٠
٢	١٠,٠٠٠-٣٥,٠٠٠	٢,٥	٧٠,٠٠٠
٣	٣٥,٠٠٠-١٠٠,٠٠٠	٢	١٧٥,٠٠٠
٤	١٠٠,٠٠٠-٢٠٠,٠٠٠	١,٧٥	٣٠٠,٠٠٠
٥	٢٠٠,٠٠٠-١,٠٠٠,٠٠٠	١,٥	١,٠٠٠,٠٠٠
٦	أكثر من مليون	١	—

٤- العلاقات العامة

تمثل العلاقات العامة محوراً أساسياً في عملية كسب الجمهور والتعريف بسياسة المكتبة وبرامجها وأنشطتها المختلفة، والالتحام بالمجتمع وتعريفه بالمعنى الاجتماعي للمكتبة من خلال الاتصالات الفعّالة، ومحاولة خلق جوٍّ من الصداقة والتعاون بين المكتبة والمجتمع المحيط بها، بما يحقق رسالة المكتبة في كسب جمهور إضافي يضاف إلى رصيدها الأساس، ولكي تؤدّي العلاقات العامة دورها البارز والمتميز، لا بدّ من أن تبدأ بالمكتبة وشخصية المكتبيين أنفسهم عبر مراعاتهم ما

يأتي^(١٠):

أ- التعامل اللطيف والمؤدّب مع المستفيدين، سواء عن طريق الاتصال الشخصي المباشر أم الاتصال بالهاتف؛ إذ إنّ ذلك يؤثّر في كسب الجمهور وإقباله على المكتبة.

ب- ضرورة أن لا يطول انتظار المستفيد، وأن تقدّم له الخدمة بأسرع وقت، وفي حالة ضرورة انتظاره فيجب دعوته للجلوس، أو إشعاره بشكلٍ لطيفٍ بذلك.

ج- يجب تجنبّ العلاقات المفرطة مع المستفيدين؛ لتفادي وقوع بعض المشاكل، أو إمّا قد تُحسّس المستفيدين الآخرين بأنّهم أقلّ أهميّة.

د- التّواصل وتقديم الخدمات لعامة النّاس عن طريق المراسلات أو الهاتف، وضرورة أن تحظى بالانتباه والأهميّة نفسها، مثلما يُعامل المستفيد بصورة شخصيّة ومباشرة داخل المكتبة.

وهذا الإيمان المكتبيّ بحاجة إلى قوى بشريّة مثقّفة وواعية مؤهّلة تستطيع كسب الجمهور والتّعامل معهم بروح إيجابيّة تبتّ في نفوسهم الرّاحة، وتجعل منهم رواداً دائمين للمكتبة.

وبرامج العلاقات العامة لن تتحقّق أو لن تنجح إلّا إذا توافرت لدينا المعرفة الكاملة لمكتباتنا بكلّ تفاصيلها، كالمجموعات والميزانيّة والموظّفين ونواحي النّقص ونواحي الامتياز والمبنى، إضافة إلى الدّراسة المسحيّة لطبيعة المجتمع من حيث تعدّد فئاته وحصر ميوله ورغباته، وإنّ أيّ نقصٍ في المكتبة أو المجتمع سيؤدّي إلى خللٍ في برامج العلاقات العامة^(١١)، وانطلاقاً من هذه الأهميّة في

تعزيز دور المكتبة بالمجتمع، لا بدَّ من أن يكون هناك قسم خاص يتولَّى مهمّة تنفيذ برامج العلاقات العامّة، تتوافر فيه مقوّمات نجاحه الأساسيّة من حيث الموظفين والوسائل الإعلاميّة والدّعائيّة الكفيلة بتشجيع الجمهور لاستخدام المكتبة، من خلال توزيع النّشرات والكتيّبات، وإلقاء المحاضرات والندوات، وعرض الأفلام التثقيفيّة والتّرويحيّة، وإقامة المعارض، والاستعانة بأصدقاء المكتبة للتّعريف بالمكتبة، وجمع التبرّعات والهدايا، ونشر الوعي المكتبي بين المواطنين.

هـ- الخدمات المكتبيّة

إنَّ أهميّة المكتبة لا تكمن في مدى ما تضمّه من كتب وموادّ مكتبيّة أُخر، وإنّما بمقدار ما تقدّمه من خدمات متميّزة للمجتمع، وقد أشار ملف (ديوي Dewey) إلى أن مفهوم الخدمة المكتبيّة هو (أحسن قُراء، لأكبر عددٍ، بأقلّ التكاليف)^(١٢)، وتختلف طبيعة ونوعية هذه الخدمات على وفق نوعيّة المكتبة وأهدافها وسياستها وطبيعة المجتمع الذي تخدمه، ولكي تؤدّي المكتبة العامّة دورها الناجح في تحقيق الخدمة المثلى لمجتمعها، لا بدَّ من توافر الخدمات الآتية:

أ- خدمات الإعارة

وتُعَدُّ من الخدمات الأساسيّة التي يتمّ بموجبها تزويد المستفيد بما يحتاجه من مطبوعات، وتوفير المستلزمات الأساسيّة كافّة، التي تُسهم في إتاحة الفرصة له لاختيار ما يناسبه، وبما أن المكتبة العامّة تمثّل مظهرًا شعبيًّا عامًّا، فلا بدَّ من أن تكون خدماتها متاحة للجميع وبدون مقابل من حيث منح المستفيد الحرية

في الاطلاع على محتوياتها واستخدام رفوفها على أن تُراعى في ذلك القواعد والأنظمة المتبعة في إعارة المواد المكتبية واستخدامها.

وتتجسد فلسفة الخدمة المكتبية في هذا المجال في تحقيق أقصى منفعة للمستفيد؛ لأنَّ غاية المكتبة الأساسية هي خدمته ومنفعته، أمَّا الكتاب، فهو وسيلة لتحقيق هدف المكتبة، وأهميته لا تعني مجرد توفيره في مخازن المكتبة، وإنما في مدى استخدامه الحقيقي.

وبناء على ذلك، يجب أن تكون خدمات الإعارة منسجمة مع هذه الغاية، مع الأخذ بالنظر تقليص الإجراءات الروتينية الخاصة بإعارة المواد المكتبية، كأن تكون مدة إعارة المطبوعات لأكثر من أسبوع ولأكثر من كتاب واحد، وإلغاء التأمينات التي تُستوفى من المستفيد مقابل إعارة الكتب، والاكتفاء بهوية خاصة بالمكتبة يتم تزويد المستفيد بها، على وفق ضوابط معينة وأصولية لضمان إدراج المعلومات الصحيحة والمتكاملة عن المستفيد، كعنوان سكنه، وعنوان عمله، ورقم هويته الشخصية، ورقم الهاتف، وبعض المعلومات التي تُسهل عملية الاتصال به عند الحاجة.

ب- خدمات المراجع

وتُعدّ من الخدمات الجوهرية التي ينبغي على المكتبة العامة الاهتمام بها؛ لكونها تمثل مرآة تعكس الاتصال والتعامل مع جمهور المستفيدين بشكل مباشر، كما هو الحال في خدمات الإعارة، ومن الضروري أن يكون هناك قسم خاص بهذه الخدمة في المكتبة العامة، يُشرف على إدارته موظف متخصص وله خبرة تجعله قادراً على تنفيذ عمله بمهارة ونجاح، وتمثل أعمال هذا القسم ووظائفه

بما يأتي^(١٣):

١- الإشراف

ويتمثل بالتنظيم المناسب للإمكانات المرجعية، واختيار كتب المراجع، إضافة إلى دراسة رواد المكتبة من أجل أن يكون قادراً على استدراجهم لمعرفة ما يدور في أذهانهم من أسئلة واستفسارات، ثم تقديم المساعدة اللازمة لهم في ضوء تهيئة المعلومات، أو أية حقائق علمية محدّدة.

٢- التوجيه والإرشاد

يمكن لأخصائي المراجع أن يؤدي دوراً متميّزاً في توجيه المستفيدين وإرشادهم، وتسهيل مهمّتهم في البحث واستخدام المكتبة، وذلك عبر إعداد قوائم المطالعات والقراءات الموجهة، وتعليم المستفيدين كيفية استخدام فهارس المكتبة أو استخدام كتب المراجع، على أن هذه الخدمة لا تقتصر على ذلك فحسب، وإنما تعتمد على عناصر أخرى، منها: فهم حالة المستفيد، ومستواه التعليمي، وهواياته، وطموحه الدراسي، وتقدير مستوى الكتاب المقترح له، وإدراك الدوافع الاجتماعية والنفسية التي تقوم عليها رغبة الكبار في التعليم^(١٤). ولكي يحالف النجاح مثل هذه الخدمة، لا بدّ من وجود شخص مؤهل يتميّز بصفات معيّنة، كاللباقة، والقدرة على الاتصال بالآخرين، والإلمام بسيكولوجية المستفيدين، فضلاً عن معرفته التامة بالكتب المرجعية ومصادر المعلومات الأخر.

٣- التعليم

مهمّة المكتبة العامّة في هذا الجانب هي تزويد المستفيدين بالخبرات والمهارات التي تجعلهم قادرين على اكتشاف مصادر المعلومات واستخدامها، وقد يتم ذلك

بصورة فردية أو جماعية اعتماداً على ما يتوافر في المكتبة من موظفين وما لديها من إمكانات ووسائل متاحة تتعلق بعملية التعليم.

٤- الإعلام

ويتعلق بالإجابة عن أسئلة المستفيدين واستفساراتهم عبر دراستها وتحليلها؛ لغرض تقديم الإجابات الصحيحة بصورة سريعة، بما يرضي رغبة المستفيدين وحاجاتهم.

٥- إعداد البليوغرافيات (قوائم المؤلفات)

يمكن إعداد مثل هذه القوائم بما يتناسب مع متطلبات المستفيدين من المكتبة العامة، وقد تكون هذه البليوغرافيات مختارة، أو عامة، أو موضوعية، أو معرفية... أو غير ذلك.

ج- محو الأمية وتعليم الكبار

تعدّ خدمات محو الأمية وتعليم الكبار من الخدمات الجديدة التي تبلورت بعد الحرب العالمية الثانية، فقد شعرت بعض المجتمعات بتخلّفها عن الركب الحضاري، وأحسّت بخطر الأمية، وبخاصّة في بلدان العالم الثالث؛ ولذا نهضت المكتبات العامة بأداء هذه الرسالة الحضارية التي تركز فلسفتها على ميدان تعليم الكبار على الأسس الآتية^(١٥):

١- إن الكبار الذين فاتتهم فرص الدراسة الأكاديمية في مرحلة معينة يمكن تعليمهم وإكسابهم المهارات الجديدة، بعكس الفكرة الشائعة أن تعليم الكبار عملية صعبة للغاية.

٢- في عصر ثورة المعلومات والتطوّر العلمي والتقني، لابدّ للكبار أن

لا يقفوا عند حدٍّ معيّن أو مستوى تعليمي ثابت، بل يجب أن يُطوِّروا أنفسهم باستمرار من خلال التّعليم ومتابعة تطوُّرات العلم والمعرفة.

٣- نظراً إلى كون المكتبة العامّة تمثّل مركزاً إعلامياً وثقافياً واجتماعياً، فلا يجوز إهمال هذه الشّريحة الاجتماعيّة من خدماتها في التّعليم.

أمّا فيما يتعلّق بخدمات محو الأميّة التي تقدّمها المكتبة العامّة، فتبدأ مع المتعلّمين الذين اكتسبوا بعض المهارات في القراءة والكتابة من مدارس محو الأميّة ومراكزها؛ ولكي تنجح المكتبة في الإسهام في محو الأميّة وتعليم الكبار، لا بدّ من دراسة مسحيّة شاملة لطبيعة المجتمع ومعرفة مستوياته التّعليميّة ونسبة الأميّين فيه، من أجل تهيئة الإمكانات الماديّة والبشريّة التي تحقّق نجاح هذه العمليّة، أمّا الخطوات الأساسيّة في تعليم الكبار، فتتمثّل بما يأتي^(١٦):

١- اختيار مجموعة الكتب التي تناسب المستويات التّعليميّة وبخاصّة المطبوعات المبسّطة والمصوّرة.

٢- تنظيم مجموعة الكتب من حيث ترتيبها وعرضها على رفوف مفتوحة لجعلها في متناول أيدي المستفيدين؛ لغرض الاطّلاع عليها واستعارتها.

٣- تدريب المكتبيّين لإكسابهم الخبرات اللاّزمة لتعليم الكبار، من خلال فتح دورات تدريبيّة للعاملين في مجال تعليم الكبار، وهذه الدّورات تتضمّن موضوعات عديدة، منها علم النّفس الاجتماعيّ، ومبادئ تعليم الكبار، والوسائل السّمعية والبصريّة، والعلاقات العامّة، فضلاً عن قيادة الجماعات، والخطابة، وغيرها ويقوم بالإشراف على هذه الدّورات التّدريبيّة متخصصون من معاهد تعليميّة وتربويّة.

٤- وضع البرامج التعليمية وتنفيذها عبر المحاضرات والندوات وحلقات البحث والمناقشة والتسجيلات الصوتية، فضلاً عن عرض الأفلام وإقامة المعارض، ويمكن للمكتبة عبر تنفيذ هذه البرامج أن تحقق تعاوناً إيجابياً مع المجتمع والمؤسسات الثقافية والاجتماعية ذات العلاقة بمحو الأمية وتعليم الكبار، الأمر الذي يزيد من فاعلية خدمات المكتبة العامة ونجاح برامجها التعليمية.

د- خدمات الأطفال

لكي تحقق المكتبة نجاحاً في كسب جمهور الأطفال، لابد من توفير الخدمات الأساسية لهذه الفئة من المجتمع؛ وذلك من خلال إنشاء قسم خاص بالأطفال، مع تهيئة المستلزمات البشرية والمادية كافة، بما يتناسب وطبيعة عمل القسم. ومن مقومات نجاح خدمات الأطفال في المكتبة العامة، وجود المكتبيين المتخصصين الذين لهم خبرة ودراية بعلم نفس الطفل وأدب الأطفال، ومعرفة الميول القرائية لهم، إضافة إلى تهيئة الأثاث المناسب مع المجموعة المكتبية الفنية من كتب ومجلات ومواد سمعية وبصرية.

ولا تقتصر خدمات هذا الجانب على إعارة الكتب فحسب، وإنما تشمل نشاطات وفعاليات أخرى مشوقة، بحيث تستقطب وتجذب العدد الأكبر منهم إلى المكتبة، ومن هذه النشاطات أو البرامج ساعات رواية القصة، والأنشيد والتسجيلات، وعرض الصور، وممارسة الرسم والألعاب المسلية، ومناقشة بعض الكتب، وممارسة الهوايات المختلفة.

هـ- خدمات المكتبات المتنقلة

تُعدّ خدمات المكتبات المتنقلة امتداداً لخدمات المكتبات العامة، وقد تطوّرت هذه الخدمات في السنوات الأخيرة، وبخاصّة في الدّول المتقدّمة كالولايات المتّحدة وبريطانيا، بعد أن أحسّت مكتباتها بضرورة نشر وتوسيع خدماتها إلى المواطنين في المناطق النائية والأرياف، والذين لم تسمح لهم الفرصة بارتياح المكتبات العامة باستمرار.

وترجع بدايات استخدام المكتبات المتنقلة إلى بداية القرن العشرين، إذ كانت عبارة عن عربات تجرّها الخيول لنقل الكتب ووسائل المعرفة الأخرى إلى المناطق النائية، تطوّرت بعدها هذه الخدمات إلى أن ظهرت على صورتها الحالية من حيث التنظيم، سواء فيما يخصّ تطوّر السيّارات الخاصّة بنقل الكتب، أم زيادة مجاميع الكتب التي تحتويها، و-أيضاً- التطوّر الحاصل في طرق المواصلات ووسائل الاتصال ومحطّات وقوف سيّارات الكتب، وبالنظر إلى محدوديّة سعة هذه السيّارات، فقد اقتصرّت مجاميعها على الكتب الثقافيّة العامّة، واستثنت من ذلك قدر الإمكان كتب المراجع وكتب الأطفال، إلّا في الحالات التي يتمّ طلبها من عددٍ من المواطنين^(١٧)؛ والسبب في ذلك على ما يبدو، هو أن كتب المراجع تتميز بعدد أجزاءها وكبر حجمها، أمّا كتب الأطفال، فيمكن توفيرها في المكتبات المدرسيّة في تلك المناطق.

ومن الأمور التي شجّعت المكتبات العامّة للقيام بهذه الخدمات تطوّر طرق المواصلات، وتطوّر مواصفات بناء سيّارات الكتب نحو الأحسن، فضلاً عن إقبال المواطنين للإفادة من هذه الخدمات، ولاسيّما في الدّول التي تخلّصت من مشكلة الأميّة؛ ولهذا فإنّ فقدان بعض هذه الأمور سيجعل مهمّة المكتبات

المتنقلة مهمة عسيرة، ولا تحقق الغرض الذي وجدت من أجله. وتتميز المكتبة المتنقلة بالرغم من صغر حجمها بإمكانيتها في مجال سدّ بعض حاجات المناطق التي تمرُّ بها أو تقف عندها، سواء من حيث تزويدهم بالكتب، أم إرشادهم وتوجيههم، أم إجابتها عن بعض الأسئلة. ويُفضّل دراسة المجتمع الذي تخدمه المكتبة المتنقلة قبل الشروع بزيارته؛ من أجل التعرّف على مستوياته الثقافية وأحواله الاجتماعية والاقتصادية، وعدد المدارس والمؤسسات الموجودة، وعدد السكّان والمهن والحرف السائدة فيه، وهذا ما يسهّل عملية اختيار الكتب المناسبة وأعدادها، واختيار المواقع الصحيحة لوقوف سيارة الكتب، ولا تقتصر خدمة المكتبة المتنقلة على إعارة الكتب فقط، وإنما يصحبها في بعض الأحيان عرض الأفلام الثقافية والعلمية، وإقامة الندوات والمحاضرات، وينبغي أن يعلن لسكّان المنطقة مكان وصول المكتبة المتنقلة ووقته، كما ينبغي أن تكون الإجراءات المتبعة في عملية إعارة الكتب سهلة وسريعة وبعيدة عن الرّتابة.

ز- المواد السمعية والبصرية

من الخدمات التي ينبغي أن تقدّمها المكتبة العامة، هي توفير المواد السمعية والبصرية التي تعتمد في تقديم المعلومات على حاسي السمع والبصر، كالأفلام والشرائح والتسجيلات والصور والخرائط والمجسّمات... وتأتي أهميّة هذه المواد من كونها تتميز بما يأتي^(١٨):

١- الإسهام في الاحتفاظ بالمعلومات لدى الذاكرة البشرية لفترة أطول قياساً بمصادر المعلومات الأخر.

٢- تهيئة معلومات لا يمكن لغيرها من مصادر المعلومات توفيرها، كالأصوات البشرية، وأصوات الحيوانات، وبعض الظواهر الطبيعيّة، كالطر والرياح، وغيرها.

٣- مساعدة المكفوفين في التّعليم لاعتمادهم على حاسة السّمع.

٤- الإسهام في مجال التّرفيه واستغلال أوقات الفراغ، كخدمات عرض الأفلام، وغيرها.

٥- امتيازها بعنصر التّشويق وجعل عمليّة التّعليم عمليّة ممتعة، وتحفّز المتعلّمين على المتابعة.

٦- الإسهام في التغلّب على مشكلة الفروق الفرديّة في التّعليم من خلال إعادة سماع المادّة المراد تعلّمها لعدّة مرّات.

ولكون المكتبات العامّة تخدم شرائح مختلفة من البشر وذات مستويات متفاوتة، وتفرّد جانباً من خدماتها إلى الأمور الترفيهية الفعلية، فمن الصّوريّ تهيئة هذه الموادّ للمستفيدين منها من أجل جذب المواطنين واستقطابهم، وجعل المكتبة مركزاً ثقافياً وعلمياً مشعاً، وبديلاً لكثير من الأماكن التي يهدر أطفالنا وشبابنا أوقات فراغهم فيها.

ح- خدمات الفئات الخاصّة

لكي تكون خدمات المكتبة العامّة شاملة وتغطّي احتياجات شرائح المجتمع كافّة، لابدّ لها من أن تُفرد جزءاً من خدماتها إلى فئات المكفوفين والصّم والبكم، والمعاقين جسدياً، وكذا تقديم الخدمات إلى المرضى ونزلاء المستشفيات والمسجونين.

ومن الاتجاهات الحديثة في خدمات المكتبات العامة هي زيارة المقعدين والأحياء الفقيرة والمعوّلة، وعلى المكتبة أن تبني علاقات مثمرة مع هذه الفئات، وتعمل على تهيئة مستلزمات الخدمة المكتبيّة لها؛ عبر توفير المجموعات المكتبيّة المناسبة، والموادّ السّميّة والبصريّة، من أفلام وتسجيلات ومجسّمات، وكذا الآلات والمعدّات التي تستخدم من قبل هذه الفئات.

تحليلُ نتائج الدّراسة

فيما يلي عرض وتحليل للنتائج التي تمّ التوصل إليها عبر الاستبيان الموزّع على المكتبات العامة في المحافظة، والبالغ عددها ثمان مكتبات، فقد غطّى الاستبيان كلّ ما يتعلّق بواقع هذه المكتبات وعناصرها الأساسيّة، وكذا الخدمات التي تقدّمها للمستفيدين، وقد تمّ تفريغ المعلومات الواردة في الاستبيان في (٨) ثمان جداول مثّلت مواقع المكتبات ومجاميعها، والقوى العاملة، والخدمات المكتبيّة، وما يتعلّق بالمستفيدين ومشاكلهم، وقد كانت المقابلات الشّخصيّة، والإحصائيّات المكتبيّة، والزّيارات الميدانيّة، والملاحظات، والمطبوعات ذات العلاقة بالموضوع، وسائل آخر مهمّة في جمع المعلومات فضلاً عن الاستبيان المذكور.

١- الموقع والبنية والأثاث

عند القيام بالمسح الميدانيّ لمجموع المكتبات التي تناولتها الدّراسة من حيث الموقع والبنية والأثاث وتحليل المعلومات التي تمّ الحصول عليها، تبين ما يأتي:

أ- تمتاز جميع المكتبات بالموقع المناسب الذي يسهّل الوصول إليه من قبل

أفراد المجتمع المحلي الذي تخدمه المكتبة، فضلاً عن وقوع أغلب هذه المكتبات في مناطق بعيدة عن الصّخب والضّوضاء.

ب- في ما يخصّ المساحة الكليّة لكلّ من هذه المكتبات يمكن القول بأنّها مساحات مناسبة إلّا إنّ القسم المستغلّ منها فعلاً يمثّل ما يقرب من نصف هذه المساحة أو أقلّ، الأمر الذي يُقلّل من توسيع دائرة خدماتها وأنشطتها المعدّة لخدمة جمهور المستفيدين، فعلى سبيل المثال ليست هناك قاعات خاصّة بالأطفال أو قاعات للنشاطات المكتبيّة، كالندوات والمحاضرات، وعرض الموادّ السّميّة والبصريّة، وانعدام القاعات الخاصّة بالمراجع والدوريات.

ج- تضمّ كلّ مكتبة قاعتين للمطالعة، إحداهما للذكور، والأخرى للإناث، إلّا إنّ مستلزماتها من حيث الشّروط الصحيّة والراحة النّفسيّة غير متوافرة، فعلى سبيل المثال انعدام التبريد والتدفئة والإنارة الجيدة والسّتائر ومفروشات أرضيّة القاعات.

د- عدم كفاية خزانات الكتب (الرّفوف) في جميع المكتبات العامّة في المحافظة باستثناء المكتبة العامّة المركزيّة - حيث تتراوح أعداد هذه الخزانات ما بين (٢٨-٤٥) خزانة، الأمر الذي أدّى إلى اكتظاظ الرّفوف بالكتب من ناحية، وعدم كفايتها للتوسّع المستقبلي وإضافة مجاميع جديدة من ناحية أخرى.

هـ- عدم كفاية المناضد الخاصّة بالمطالعة والكراسي، فضلاً عن أنّ أغلبها غير مريح وبحاجة إلى تجديد.

و- عدم توافر أجهزة التّصوير والاستنساخ في جميع المكتبات.

* يُنظر الجدول رقم (١)

جدول رقم (١) يبيّن الموقع والمساحة والأثاث

اسم المكتبة	الموقع	المساحة	عدد قاعات المطالعة	هل موقع المكتبة ملائم؟	عدد الدوايب
المكتبة المركزية العامة	العشّار	١٦٩٤ م ^٢	٢	نعم	٢٣٥
مكتبة قضاء القرنة العامة	مركز القضاء	٤٢٣،٤٠ م ^٢	٢	نعم	٤٢
المكتبة العامة في قضاء أبي الخصب	مركز القضاء	٣٣٣،٤٥ م ^٢	٢	نعم	٣٢
مكتبة قضاء الزبير العامة	مركز القضاء	٤٤٩،٧٠ م ^٢	٢	نعم	٣٨
المكتبة العامة في قضاء شط العرب	مركز القضاء	٤٢٠،٧٣ م ^٢	٢	نعم	٣٦
مكتبة قضاء المدينة العامة	مركز القضاء	٣٥٤،٠٥ م ^٢	٢	نعم	٢٨
المكتبة العامة في الجمهورية	حيّ الزهراء	٨٠٥ م ^٢	٢	نعم	٤٥
المكتبة العامة في المعقل	المعقل	٦٠٠ م ^٢ تقريباً	٢	نعم	٣٢

هل عدد الدواليب كاف؟	عدد المناضد	هل عدد المناضد كاف؟	عدد الكراسي	هل عدد الكراسي كاف؟	هل يتوافر جهاز تصوير؟
نعم	٣٤	لا	١٢٠	لا	لا
لا	١٥	لا	٩٥	لا	لا
لا	١٠	لا	٦٣	لا	لا
لا	٢٤	لا	١١٣	لا	لا
لا	١٣	لا	٥٦	لا	لا
لا	٨	لا	٢٨	لا	لا
لا	٢٩	لا	١٦٠	لا	لا
لا	١٨	لا	١٠٦	لا	لا

نستخلص ممّا تقدّم: أنّ أغلب المكتبات العامة تعاني من النقص في الأثاث كماً ونوعاً؛ ما يستدعي تهنيئته بما يتفق وحاجة هذه المكتبات، يُضاف إلى ذلك ضرورة الاهتمام بتوسيع بعض بناياتها، كتوسيع مخازن الكتب وقاعات المطالعة، وبناء قاعات أخرى خاصّة بالأطفال، وأخرى لإلقاء المحاضرات والندوات؛ لكي تستطيع هذه المكتبات ممارسة دورها بالشكل السليم.

٢- المجموعة المكتبية

بعد عملية تصنيف البيانات وتحليلها إضافة إلى المعلومات التي تمّ جمعها من خلال المقابلات الشخصية والمشاهدات والملاحظات بخصوص مجاميع المكتبات العامة في البصرة، يمكن ملاحظة ما يأتي:

أ- لقد تبين بشكل واضح ضعف حجم مجموعة الكتب العربية لجميع المكتبات العامة في المحافظة، وهذا بحدّ ذاته لا يسدّ حاجة المجتمع الذي تخدمه هذه المكتبات؛ إذ تراوح مجاميع هذه المكتبات بين (٣١٨٧) إلى (٩٨٠١) باستثناء المكتبة المركزية العامة، ومكتبة المعقل التابعة لمؤسسة الموانئ العراقية. (يُنظر جدول رقم (٢)).

ب- لوحظ أنّ هناك تقارب في أعداد مجاميع الكتب لبعض المكتبات، مثل: مكتبة القرنة، وشطّ العرب، وأبي الخصيب؛ إذ تُمثّل مجاميع هذه المكتبات الحدّ الأعلى ما بين (٩٨٠١-٩١٩٤) في حين تتقارب أعداد مجموعات مكتبات الجمهوريّة وشطّ العرب والمدينة، وتمثّل هذه المكتبات الحدّ الأدنى ما بين (٣١٨٧-٥٢٣٨)، ويمكن أن تُعزى أسباب هذا التّفافوت إلى عدم تحقيق حالة

التوازن في تزويد هذه المكتبات بالمطبوعات، إضافة إلى ضعف التعاون والتنسيق بين هذه المكتبات والمكتبة المركزية العامة، وضعف المتابعة من قبل أمناء المكتبات في تنمية المجموعات المكتبية.

جدول رقم (٢) يمثل المجموعة المكتبية للمكتبات المشمولة بالدراسة

عدد الصف	عدد الدوريات		عدد الكتب		اسم المكتبة
	الأجنبية	العربية	الأجنبية	العربية	
٢	—	٢٠	٧١٠٧	٣٦٧٤٤	المكتبة المركزية العامة
٣	—	١٤	٢٧٥	٩٨٠١	مكتبة قضاء القرنة العامة
٣	—	١٢	٢١٢	٩٧٧٧	المكتبة العامة في قضاء أبي الخصب
٢	—	١٠	٢٠١	٩١٩٤	مكتبة قضاء الزبير العامة
٤	—	١٢	٣٢٠	٤٧٩١	المكتبة العامة في قضاء شط العرب
٣	—	١٦	١٢٥	٣١٨٧	مكتبة قضاء المدينة العامة
٢	—	١٣	٢٨١	٥٢٣٨	المكتبة العامة في الجمهورية
٢	—	١٥	٢٠١٢	١٣١٤٧	المكتبة العامة في المعقل

عدد الأطروحات	عدد كتب الأطفال	هل كتب المراجع العربية كافية؟	هل كتب المراجع الأجنبية كافية؟	هل توجد مواد سمعية وبصرية؟
—	٧٩١	نعم	لا	لا
—	٤٠٠	لا	لا	لا
—	٥٢٥	لا	لا	لا
٣	٣٧٩	نعم	لا	لا
—	١٦٣	لا	لا	لا
—	٣١٧	لا	لا	لا
—	٥٠٤	لا	لا	لا
—	—	لا	لا	لا

ج- تعاني المكتبة المركزية العامة من ضعف مجاميعها بالرغم من أنها أول مكتبة عامة أُسست في المحافظة سنة (١٩٣٦م)، فضلاً عن كونها الجهة المسؤولة عن التشكيل المكتبي في المحافظة، الأمر الذي يستدعي بذل أقصى الجهود لغرض تنمية مجموعاتها المكتبية بالشكل الذي يؤدي إلى تحقيق أهدافها وسدّ حاجة المستفيدين منها.

د- بالرغم من أن مكتبة المعقل التابعة لمؤسسة الموانئ العراقية تضم أكبر مجموعة مكتبية بين مكاتب المحافظة الأخر باستثناء المكتبة المركزية، إلا إنها لا تسدّ حاجة مجتمعها، وهي بحاجة مستمرة إلى تنمية مجاميعها على وفق المعايير الخاصة بالمكتبات العامة، التي سيرد ذكرها لاحقاً.

هـ- تعاني جميع المكتبات العامة في المحافظة من النقص الواضح في مجاميع الكتب الأجنبية؛ إذ تراوحت أعداد هذه الكتب ما بين (٢٠١ - ٧١٠٧).

(يُنظر جدول رقم (٢)).

و- تتراوح أعداد الدوريات العربية في هذه المكتبات ما بين (١٠-٢٠) عنواناً، تزوّد بها هذه المكتبات من خلال الاشتراك والإهداء والتبادل، وإنّ أغلب هذه الدوريات غير متكاملة في أعدادها؛ ما يستدعي زيادة الاهتمام بها ومتابعتها باستمرار؛ كونها تمثّل رافداً أساسياً من روافد الثقافة والإعلام.

أمّا الصحف، فمقتصرة على الصحف العراقية.

ز- تفتقر جميع هذه المكتبات إلى مصدر أساس من مصادر المعلومات، هو الرسائل والأطروحات الجامعية.

ح- افتقار هذه المكتبات إلى مجاميع غنيّة ومتميّزة من كتب الأطفال؛ إذ

تتراوح ما بين (١٦٣-٧٩٨١)، لاسيما أن بعض هذه الكتب مكررة بأكثر من نسخة، الأمر الذي لا يتناسب مع تحقيق خدمة فعلية لجمهور الأطفال.

ط- اتضح أن الكتب (المراجع) غير كافية في جميع المكتبات باستثناء المكتبة المركزية العامة، والمكتبة العامة في قضاء الزبير؛ لاحتوائهما على المراجع الأساسية، كالموسوعات والمعاجم اللغوية والبلوغرافيات والأطالس، أما كتب المراجع الأجنبية، فهي قليلة جداً وغير كافية في جميع هذه المكتبات.

ي- ليس هناك مادة سمعية وبصرية في جميع المكتبات العامة في المحافظة، إلا بشكل محدود، بالرغم من أن المكتبات العامة هي المعنية بتهيئة مثل هذه الوسائل؛ لكونها تساعد في عملية التعلم، وتعزيز برامج المكتبة، ونشر الوعي المكتبي والثقافي، وكذا تميزها بعنصري الإثارة والتشويق.

ويتضح مما تقدم وبشكل عام، ضعف مجاميع المكتبات العامة في المحافظة، إضافة إلى عدم تحقيق التوازن في تزويد هذه المكتبات بالمطبوعات مركزياً، أما الأسباب التي أدت إلى هذا الضعف، فيمكن إجمالها بما يأتي:

١- إنعدام الموظفين المؤهلين القادرين على متابعة الإنتاج الفكري بمختلف فروع، من خلال الاطلاع على الوسائل المساعدة في عملية الاختيار.

٢- ضالة التخصصات المالية المحددة للمكتبات العامة.

٣- ضعف دور أمناء المكتبات في عملية شراء الكتب؛ لانعدام الصلاحيات التي تخوّلهم بذلك، وكذا انعدام السلفة الدورية التي يمكن من خلالها اقتناء المطبوعات الحديثة.

٤- ضعف عملية التبادل والإهداء، وخصوصاً بالنسبة إلى المكتبات العامة

الفرعية؛ لانعدام نشاط فيها، أو لعدم توافر قسم خاص بذلك.

٣- القوى العاملة

من خلال إحصائيات عام (١٩٨٧م)، التي تم الحصول عليها من التقارير السنوية للمكتبات المشمولة بالدراسة، ومن خلال تحليل المعلومات الواردة في الاستبيان، يمكن تدوين الملاحظات التالية: (يُنظر: الجدول رقم (٣))

أ- لا يوجد متخصصون في علم المكتبات في جميع مكتبات المحافظة.

ب- النسبة الكبرى من العاملين في المكتبات هم دون المستوى الابتدائي.

ج- قلة العاملين المشتركين في دورات مكتبية؛ إذ ظهر أن (٧) سبعة فقط من العاملين في جميع هذه المكتبات قد شاركوا في مثل هذه الدورات.

ويدو في النتيجة النهائية أن مجموع العاملين في هذه المكتبات لا يسد الحاجة الفعلية؛ لكون أكثرهم دون المستوى المطلوب من حيث المؤهلات التعليمية والمهنية في مجال المكتبات والمعلومات، ما أدى إلى انعكاس ذلك على مستوى الخدمة المكتبية.

٤- خدمات المكتبات العامة في المحافظة

يُمكن تقسيم الخدمات التي تقدّمها المكتبات العامة على قسمين، هما:

خدمات القراء، والخدمات الفنية، وتتمثل خدمات القراء بإعارة المواد المكتبية، وخدمات المراجع والأطفال، والمواد السمعية والبصرية، أما الخدمات الفنية، فتشمل الإجراءات والأعمال الفنية كافة داخل المكتبة، بعيداً عن رواد المكتبة ومستخدميها، وفيما يلي تحليل كامل لواقع هذه الخدمات.

جدول رقم (٣) يُبين إعداد القوى العاملة ومؤهلاتها والمشاركة في الدورات المكتبية

اسم المكتبة	للعاملين	العدد الكلي	الشهادة	دبلوم	معهد المعلمين أو ما يعادلها	إعدادية	متوسطة	ابتدائية	دون الابتدائية	الكلي	دورات مكتبة	المشاركون في
المكتبة المركزية العامة	١٦	١	-	٢	٤	١	٢	٢	٢	٤		
مكتبة قضاء القرنة العامة	١٤	١	-	٣	-	٣	٣	٤	٤	-		
المكتبة العامة في قضاء أبي الخصيب	٧	-	-	١	-	-	٥	١	١	-		
مكتبة قضاء الزبير العامة	١٥	١	-	-	٢	٢	٣	٧	١			
المكتبة العامة في قضاء شط العرب	١٠	-	-	١	-	-	٤	٥	١			

مكتبة قضاء المدينة العامة	١٠	-	-	١	-	-	٤	٥	-
المكتبة العامة في الجمهورية	٩	-	-	-	-	١	٣	٦	-
المكتبة العامة في المعقل	٣	-	-	-	٣	-	-	-	١

أ- خدمات القراء

اتّضح من خلال تحليل الاستبيانات الموزعة على هذه المكتبات، وكذا المقابلات الشخصية والملاحظات التي تتعلّق بخدمات القراء ما يأتي:

(يُنظر: جدول رقم (٤، ٥))

- ١- إنّ المكتبات جميعاً تستخدم نظام الرفوف المغلقة.
- ٢- تقدّم المكتبات جميعاً خدمات الإعارة الداخليّة والخارجيّة باستثناء مكتبة المعقل التي تقتصر خدماتها على الإعارة الداخليّة فقط.
- ٣- تستخدم بعض المكتبات نظام السّجل وأخرى الاستثمارات في إعارتها الخارجيّة، بينما تستخدم جميع المكتبات في إعارتها الداخليّة نظام الاستثمار الخاصّة بذلك. (يُنظر: نماذج استمارات الإعارة الخارجيّة والداخليّة رقم ٢، ١).
- ٤- تعتمد جميع المكتبات في إعارتها الخارجيّة على هوية المستفيد مع تأمينات نقدية باستثناء المكتبة المركزيّة العامّة والمكتبة العامّة في قضاء (الزّبير)؛ إذ اعتمدت

الأولى على الطريقة (المقيّدة والحرّة)، فتُعيّر موادّها المكتبيّة على وفق هويّة المستفيد مع التّأمينات النّقدية في حالة عدم معرفة المستفيد (المقيّدة)، وتقتصر على هويّته فقط في حالة معرفته (حرّة)، أمّا المكتبة الثّانية، فقد اعتمدت في إعارتها الخارجيّة على هوية المستفيد أو أية وثيقة رسميّة أخرى، كهويّة الأحوال المدنيّة أو شهادة الجنسيّة العراقيّة.

٥- اقتصرت مدّة الإعارة على أسبوعٍ واحدٍ في جميع المكتبات، أمّا فيما يتعلّق بإجراءات فقدان الكتاب، فتتمثّل بدفع ضعف سعر الكتاب، أو تزويد المكتبة بنسخه طبق الأصل أو أحدث، وفي حالة تأخير الكتب، تقوم المكتبة بالاتصال بالمستعيرين على وفق عناوينهم الثّابتة، أو مراكز أعمالهم، علماً أنّ الغالبية العظمى من المستعيرين هم من طلبة المدارس الموجودة في المنطقة.

٦- اقتصرت خدمة المراجع في جميع هذه المكتبات على توفير بعض الكتب المرجعيّة الأساسيّة، كالمعاجم، والموسوعات، والببليوغرافيات، وليس هناك ما يُشير أو يدلُّ على وجود نشاط أو خدمة مرجعيّة تتعلّق بالإجابة على أسئلة المستفيدين واستفساراتهم، أو تعليمهم كيفيّة استخدام كتب المراجع، ويُضاف إلى ذلك عدم كفاية مجموعات الكتب المراجع في أغلب هذه المكتبات، مع انعدام أقسام خاصّة بالمراجع.

٧- ليس هناك أيّ نشاط يتعلّق بخدمات المكتبات المتنقّلة (السّيّارة)، أو خدمات محو الأميّة وتعليم الكبار، أو خدمات الفئات الخاصّة، من المعاقين والمكفوفين والمرضى ونزلاء المستشفيات، يُضاف إلى ذلك فقدان الخدمات الخاصّة بالموادّ السّمعيّة والبصريّة، سواء من حيث توفير الموادّ والأجهزة الخاصّة

بذلك، أم بالتعاون مع المؤسسات والمراكز التعليمية التي تتوافر لديها هذه المواد. ٨- أمّا فيما يتعلّق بخدمات الأطفال، فقد اتّضح أنّ جميع هذه المكتبات تفتقر إلى وجود قسم خاصّ بهذه الشريحة المهمّة، التي تمثّل جيل المستقبل، وكذا إلى اهتمام إدارات المكتبات بإعداد البرامج المشوّقة التي من شأنها كسب جمهور الأطفال وحثّهم على ارتياد المكتبة، مثل الألعاب المسليّة، وساعات رواية القصّة، وعرض الأفلام، وإقامة المهرجانات والاحتفالات والنشاطات الأخر المحبّبة للأطفال، وقد اقتصرّت نشاطات بعض المكتبات في هذا المجال على إقامة معارض الكتب.

وقد انفردت المكتبة المركزيّة العامّة بإقامة بعض النشاطات، مثل: إقامة ندوة مع عرض بعض الأفلام بالتعاون مع مديرية الإعلام الداخليّ في المحافظة، يُضاف إلى ذلك أنّ بعض المكتبات العامّة تقوم بإجراءات بسيطة حول تعليم الأطفال كيفيّة استخدام المكتبة، كالفهارس والاطلاع على ترتيب الكتب والتّعليمات المكتبيّة، وذلك من خلال بعض الزيارات الجماعيّة التي تنظّمها بعض المدارس إلى المكتبة.

جدول رقم (٤) يبيّن نُظْمُ الإعارة الخارجيّة والدّاخليّة وإجراءات فقدان الكتب

اسم المكتبة	هل تستخدم المكتبة نظام الرّفوف المفتوحة أو المغلقة؟	هل تتبع المكتبة نظام السّجل أو البطاقة أو الاستمارة في الإعارة الخارجيّة؟	هل تُعتمد المكتبة في الإعارة الخارجيّة على			مدة الإعارة الخارجيّة	إجراءات		
			هوية المستفيد	التأميمات النقدية	هوية مع التأميمات		غرامة ضعف السّعر	سعر الكتاب فقط	نسخة طبق الأصل
المكتبة المركزيّة العامّة	المغلقة	السّجل	نعم	-	نعم	أسبوع	نعم	-	نعم
مكتبة قضاء القرنة العامّة	المغلقة	السّجل	-	-	نعم	أسبوع	نعم	-	نعم
المكتبة العامّة في قضاء أبي الخصيب	المغلقة	السّجل	-	-	نعم	أسبوع	نعم	-	نعم
مكتبة قضاء الزبير العامّة	المغلقة	السّجل	نعم	-	-	أسبوع	نعم	-	نعم
المكتبة العامّة في قضاء شطّ العرب	المغلقة	السّجل	-	-	نعم	أسبوع	نعم	-	نعم
مكتبة قضاء المدينة العامّة	المغلقة	السّجل	-	-	نعم	أسبوع	نعم	-	نعم
المكتبة العامّة في الجمهوريّة	المغلقة	السّجل	-	-	نعم	أسبوع	نعم	-	نعم
المكتبة العامّة في المعقل	المغلقة	لا توجد إعارة خارجيّة					-	نعم	نعم

جدول رقم (٥) يُبين أنواع الخدمات المكتبية

خدمات المراجع					اسم المكتبة
هل يوجد موظف متخصص بالمراجع؟	هل تم تعليم المستفيدين كيفية استخدام كتب المراجع؟	هل كتب المراجع الأجنبية كافية؟	هل كتب المراجع العربية كافية؟	هل يوجد قسم خاص بالمراجع؟	
لا	لا	لا	نعم	لا	المكتبة المركزية العامة
لا	لا	لا	لا	لا	مكتبة قضاء القرنة العامة
لا	لا	لا	لا	لا	المكتبة العامة في قضاء أبي الخصب
لا	لا	لا	نعم	لا	مكتبة قضاء الزبير العامة
لا	لا	لا	لا	لا	المكتبة العامة في قضاء شط العرب
لا	لا	لا	لا	لا	مكتبة قضاء المدينة العامة
لا	لا	لا	نعم	لا	المكتبة العامة في الجمهورية
لا	لا	لا	نعم	لا	المكتبة العامة في المعقل

هل تقدم المكتبة خدمات؟					
المكتبات المتنقلة	محو الأمية وتعليم الكبار	المواد السمعية والبصرية	الفئات الخاصة	الأطفال	أخرى
لا	تقدم	المكتبة	مثل هذه	الخدمات	
=	=	=	=	=	
=	=	=	=	=	
=	=	=	=	=	
=	=	=	=	=	
=	=	=	=	=	
=	=	=	=	=	
=	=	=	=	=	

ب- الخدمات الفنية

تتمثل الخدمات الفنية في عملية طلب المواد المكتبية وتسليمها وإعدادها ووضعها في خدمة القارئ، وإنَّ أيَّ خللٍ أو تأخير في إنجاز أعمال الخدمات الفنية من تزويد وفهرسة وتصنيف وتنظيم وإدانة الفهارس، سيؤثر على خدمات القراء، ما يستوجب تهيئة المستلزمات الأساسية كافة، من قوى بشرية مؤهلة لإدارة هذه الأعمال وتنظيمها والإشراف عليها، وكذا توفير الأدوات الخاصة بإنجاز مثل هذه الخدمات.

ومما يلاحظ على الخدمات الفنية في المكتبات العامة في محافظة البصرة، أنَّها تفتقر إلى المستلزمات الأساسية لإنجاز الخدمات الفنية من خلال النقاط الآتية: (يُنظر جدول رقم (٦))

١- ضعف دور أمين المكتبة في عملية الاختيار، واقتصار ذلك على التزويد المركزي دون الأخذ بالنظر بنقاط القوة والضعف في المجموعة المكتبية، فضلاً عن عدم مراعاة حاجات المستفيدين ورغباتهم، وتلبية مقترحاتهم.

٢- باستثناء المكتبة المركزية العامة التي تقوم بنشاط ضيق في مجال التبادل والإهداء، فإنَّ جميع المكتبات المتبقية تفتقر إلى هذا النشاط الفعال الذي يسهم في بناء المجموعة المكتبية وتنميتها.

٣- انعدام قسم خاص بتجليد الكتب وصيانتها في جميع المكتبات المشمولة بالدراسة، ما يستوجب إرسال الكتب التي تحتاج إلى تجليد وترميم خارج نطاق المكتبة، ما يؤدي إلى حرمان القراء من بعض هذه الكتب؛ نظراً إلى تأخير إعادتها إلى المكتبة، فضلاً عن ارتفاع تكاليف التجليد، ما يرهق ميزانية المكتبة.

٤- تتّبع جميع المكتبات في المحافظة نظام تصنيف (ديوي) العشري المعدّل (البسط والمقام)، وهذا النّظام قد يناسب المكتبات الصّغيرة، إلّا أنّه لا يتناسب مع حاجات المجموعة المكتبيّة الكبيرة؛ لكونه يباعد بين الكتب ذات الموضوعات المتشابهة، فضلاً عن كونه نظاماً تقليدياً من الممكن تطويره أو تجاوزه باستخدام أنظمة التّصنيف الحديثة.

٥- إنعدام الأدوات والكتب المساعدة في عمليّتي الفهرسة والتّصنيف، تصنيف (ديوي) العشريّ بأجزائه الثلاثة، وقوائم رؤوس الموضوعات، وقوائم المؤلّفين العرب، وجداول (cutter) للمؤلّفين الأجانب، والكتب الخاصّة بقواعد الفهرسة، كقواعد الفهرسة الإنجلوأمريكيّة (Anglo American Catalog Rules)، والتقنين الدّوليّ للوصف الببليوغرافيّ (ISBD).

International Standard for Bibliographical Description.

جدول رقم (٦) يُبين الخدمات الفنيّة لهذه المكتبات

هل يساهم المستفيد في عملية الاختيار؟	هل يتم تزويد المطبوعات مركزياً؟	دور أمين المكتبة في عملية الاختيار			اسم المكتبة
		لا علاقة له	متوسطة	جيدة	
نعم	نعم	-	-	نعم	المكتبة المركزية العامة
لا	نعم	نعم	-	-	مكتبة قضاء القرنة العامة
لا	نعم	نعم	-	-	المكتبة العامة في قضاء أبي الخصب
لا	نعم	نعم	-	-	مكتبة قضاء الزبير العامة
لا	نعم	نعم	-	-	المكتبة العامة في قضاء شط العرب
لا	نعم	نعم	-	-	مكتبة قضاء المدينة العامة
لا	نعم	نعم	-	-	المكتبة العامة في الجمهورية
لا	نعم	-	-	نعم	المكتبة العامة في المعقل

هل توجد أدوات مرجعية خاصة بالفهرسة والتصنيف؟	أنواع الفهارس			نظام التصنيف المتبع	هل يوجد قسم خاص بالتجليد؟	هل يوجد نشاط للتبادل والإهداء؟
	مواضيع	عناوين	مؤلفون			
لا يوجد	لا	نعم	نعم	نظام ديوي العشري المعدل (البسط والمقام)	لا	نعم
	لا	نعم	نعم		لا	لا
	لا	نعم	نعم		لا	لا
	لا	نعم	نعم		لا	لا
	لا	نعم	نعم		لا	لا
	لا	نعم	نعم		لا	لا
	لا	نعم	نعم		لا	لا
	لا	نعم	نعم		لا	لا

٦- أمّا بالنسبة إلى الفهارس، فإنّ جميع المكتبات تمتلك نوعين من الفهارس البطاقيّة، هما: فهرس خاصّ بالمؤلّفين، وآخر بالعناوين، وتفتقر إلى الأنواع الأخرى من الفهارس، كفهرس الموضوعات، أو فهرس الرّفوف، وقد لوحظ أنّ هذه الفهارس لم تُتبع في إعدادها وتنظيمها الأسس الصّحيحة؛ من حيث الأبعاد المستخدمة في البطاقات والوصف الببليوغرافيّ، مع اختلاط مداخل المؤلّفين والعناوين في بعض الأحيان، فضلاً عن كتابتها باليد، ما أدّى إلى اتّساخها وتشويه المعلومات الواردة فيها، كما تفتقر هذه الفهارس إلى العناية والاهتمام المستمرّين وعدم المتابعة.

ومن خلال ما تقدّم، يمكن إرجاع أسباب ضعف هذه الخدمات إلى انعدام قسمٍ خاصّ ومتكاملٍ للفهرسة والتصنيف يضمّ الموظّفين المؤهلين، والأدوات والكتب التي تساعد في إتمام هذه الخدمات وإنجازها بالشكل الذي يحقّق النفع التامّ للمستفيدين، من حيث الدقّة والسّرعة في الحصول على المعلومات، وكذا افتقار المكتبات إلى أقسام التّبادل والإهداء والتّجليد والأقسام الفنيّة الأخرى، ولا ننسى -أيضاً- عدم إعطاء أمين المكتبة الدور الذي يُمكن من خلاله الإسهام في تنمية مجاميع المكتبة؛ لكونه المسؤول المباشر عن إدارة وتنظيم المكتبة وإغناء مجموعاتها.

٥- نوعيّة المستفيدين ومشاكلهم

يُمكن تدوين الملاحظات التّالية عن المستفيدين من خدمات المكتبة العامّة في المحافظة، كما هو مبين في الجدولين (٧، ٨):

أ- أجابت المكتبات جميعاً بأنّ أعلى نسبة من المستفيدين منها هم من الطلبة في

الدرجة الأولى، تليها نسبة المعلمين والمدرّسين، في حين ليس هناك ما يشير إلى نسبة المستفيدين من شرائح المجتمع الأخر، وهذا يدلّ على ضعف دور المكتبة واتّصالها بالمجتمع، وافتقارها إلى الوسائل الإعلامية والخدمية، التي يمكن من خلالها كسب الجمهور وتشجيعه على زيارتها والإفادة من خدماتها وبرامجها المتنوعة.

ب- فيما يخصّ تعليم المستفيدين استخدام فهارس المكتبة، فقد أسهمت جميع هذه المكتبات بتقديم هذه الخدمة من خلال الجوّالات المكتبية وإلقاء المحاضرات، أو بصورة شخصية، ولكنها تفتقر إلى ما يدعم هذه المحاضرات ويعزّزها بالوسائل السمعية والبصرية، فضلاً عن أنّها غير مبرجة من قبل إدارات المكتبات، إلّا أنّه يمكن الإشارة إلى بعض الإسهامات القليلة كاستضافة المكتبة المركزية لأمين المكتبة المركزية لجامعة البصرة لإلقاء محاضرة حول استخدام المكتبة.

ج- لقد ظهر أنّ مبادرة إدارة المدارس بترتيب زيارات جماعية للمكتبات العامة في المحافظة، هي أكثر من مبادرات أمناء المكتبات بزيارة المدارس والتعرّف على احتياجات الطلبة وطبيعة المكتبات المدرسية واحتياجاتها؛ إذ يُحتّم ذلك بذل الجهود من قبل المكتبات العامة لتوسيع اتصالاتها ضمن إطار التنسيق والتعاون بينها وبين المكتبات المدرسية.

د- أمّا المشاكل التي يعاني منها المستفيد، فقد تبين أنّ قلة المصادر تشكّل النسبة الأعلى من إجابات المكتبات العامة في المحافظة، فضلاً عن ضيق المكان، وقد تبين من المعلومات الواردة في الاستبيان وبعض المقابلات الشخصية أنّ المستفيدين يعانون من مشكلاتٍ أخرى، منها: انعدام التدفئة والتبريد وأغطية الأرضيات.

جدول رقم (٧) المستفيدون من خدمات المكتبات العامة

اسم المكتبة	أعلى نسبة من المستفيدين	كيفية استخدام الفهارس؟	هل تمّ تعليم المستفيدين	نوع التعليم	هل قام أمين المكتبة بزيارة بعض المدارس؟	هل قامت بعض المدارس بزيارات جماعية للمكتبة؟	الملاحظات
المكتبة المركزية العامة	الطلبة	نعم	جولة	نعم	نعم	استضافة أمين المكتبة	المكتبة المركزية للجامعة لإلقاء محاضرة
مكتبة قضاء القرنة العامة	الطلبة	نعم	جولة	لا	نعم		
المكتبة العامة في قضاء أبي الخصيب	الطلبة	نعم	جولة	لا	نعم		
مكتبة قضاء الزبير العامة	الطلبة	نعم	جولة	نعم	نعم		
المكتبة العامة في قضاء شطّ العرب	الطلبة	نعم	جولة	نعم	نعم		
مكتبة قضاء المدينة العامة	الطلبة	نعم	جولة	لا	نعم		
المكتبة العامة في الجمهورية	الطلبة	نعم	جولة	لا	نعم		
المكتبة العامة في المعقل	الطلبة	نعم	جولة	لا	نعم		

جدول رقم (٨) المشكلات التي يعاني منها المستفيدون

اسم المكتبة	قلة المصادر	ضيق المكان	قصور في الخدمة	قواعد ونظم الإعارة	عدم ملائمة	بعد المكتبة	مشاكل أخرى
المكتبة المركزية العامة	نعم	/	/	/	/	/	انعدام التبريد - التدفئة
مكتبة قضاء القرنة العامة	نعم	/	/	/	/	/	انعدام التبريد - التدفئة
المكتبة العامة في قضاء أبي الخصيب	نعم	/	/	/	/	/	انعدام التبريد - التدفئة
مكتبة قضاء الزبير العامة	نعم	نعم	/	/	/	/	إشغال بعضاً من البناية من قبل قائممقامية قضاء أبي الخصيب
المكتبة العامة في قضاء شط العرب	نعم	/	/	/	/	/	عدم وجود التبريد - التدفئة
مكتبة قضاء المدينة العامة	نعم	/	/	/	/	/	انعدام التبريد - التدفئة
المكتبة العامة في الجمهورية	نعم	/	/	/	/	/	انعدام التبريد - التدفئة - فراش لأرضية القاعات
المكتبة العامة في المعقل	نعم	/	/	/	/	/	انعدام الماء - التبريد - التدفئة - فرش لأرضية قاعات المطالعة

التوصيات والمقترحات

ومن خلال ما سبق من البحث، يُمكن تقديم ما يلي من نقاط، بوصفها مقترحات وتوصيات:

١- البناية والأثاث

أ- أن تكون بناية المكتبة العامة مستقلة في حد ذاتها، ومخصصة لأغراض الخدمة المكتبية، ولا يجوز إشغالها من قبل أي مؤسسة أخرى، الأمر الذي يُربك الخدمة المكتبية ويقلل من فاعليتها (وهذا ما لوحظ في المكتبة العامة في قضاء الزبير).

ب- تحتاج المكتبات العامة إلى توفير الأثاث من حيث المواصفات التي تناسب مع حجم المكتبة وعدد روادها، وكذا تهيئة الشروط الصحية، كالتّهوية، والتدفئة والتبريد، والإنارة الجيدة، وفرش أرضية القاعات.

ج- ضرورة تخصيص قاعات للأطفال والنشاطات الفنية والاجتماعية، كالدورات والمحاضرات والمعارض، وكذا وجود قاعات أخرى للمواد السمعية والبصرية بعد توفير مستلزمات وشروط هذه الخدمات من حيث القوى البشرية والأجهزة والمعدات.

٢- المجموعة المكتبية

أ- العمل على تحقيق حالة التوازن في عملية تزويد المكتبات بالمطبوعات الثقافية من قبل اللجنة المحلية للمكتبات العامة، وضرورة متابعة ذلك، والاهتمام به من لدن المكتبة المركزية العامة.

ب- منح الصلاحيات لأمناء المكتبات وإشراكهم في عملية الاختيار، والاهتمام بمشاركة الجمهور في هذه العملية؛ لما له من أهمية في بناء المجموعة المكتبية، ويتم ذلك بتشكيل مجلس يمثل شرائح المجتمع، ويكون أعضاؤه من ذوي الاختصاصات المختلفة، كما يفضل أن يزود أمناء المكتبات العامة بسلفة نقدية دورية؛ لغرض تنمية مجاميع المكتبة من خلال الشراء المباشر للمطبوعات الحديثة.

ج- ينبغي الاهتمام بالنشاط الخاص بإهداء المطبوعات الثقافية وتبادلها مع المكتبات والمؤسسات الثقافية والإعلامية داخل العراق وخارجه، وأن تحظى المكتبات العامة بحصة مناسبة من إصدارات وزارة الثقافة والإعلام، وبصورة مستمرة؛ بغية تغذية هذه المكتبات ورفدها بمصادر المعلومات المختلفة.

د- ضرورة تزويد المكتبات العامة بالمواد المكتبية من غير الكتب، كالدوريات والصحف والمواد السمعية والبصرية، من أفلام وصور وخرائط وشرائح وكرات أرضية ومجسمات وتسجيلات، مع تهيئة مستلزماتها من أجهزة ومعدات.

هـ- رفع نسبة التخصيصات المالية لهذه المكتبات؛ لغرض قيامها بإنجاز مهامها وبناء مجموعاتها بشكل متكامل.

و- لا بد من تهيئة مجموعة متكاملة من كتب المراجع العربية والأجنبية

(الإنجليزية) الأساسية في كل مكتبة عامة، كالمعاجم اللغوية، والموسوعات، والأطالس، وكتب التراجم، وموجزات الحقائق، والكتب الإرشادية، والأدلة. ز- ضرورة الاهتمام بتنمية الكتب الخاصة برفع المستوى الوظيفي والمهني، كالكتب التي تخص الحرف والمهن والصناعات التي تواكب التطورات العلمية والتكنولوجية في الوقت الحاضر؛ لدعم مسيرة البناء والتنمية وتعزيزهما.

ح- تنمية مجاميع الكتب، وبخاصة الكتب الأجنبية العلمية التي تعزز المناهج الدراسية لمختلف المستويات التعليمية وتدعمها.

ط- متابعة الإنتاج الفكري من خلال الاستعانة بالأدوات البليوغرافية المساعدة في عملية الاختيار، كالبليوغرافيات بأشكالها المختلفة، وقوائم الناشرين، وكذا معارض الكتب؛ بغية رفد المكتبة بكل جديد ومفيد في مختلف الموضوعات.

ي- تنمية مجموعة مكتبة خاصة بالأطفال من كتب ومجلات وأفلام وتسجيلات صوتية وصور وألعاب مسلية، وإنشاء قسم خاص بهم يتولى مسؤولية إدارته والإشراف عليه مكتبيون مؤهلون، ولهم معرفة بعلم نفس الطفل وطرائق التربية ومناهجها.

ك- الاهتمام ببناء مجموعة مكتبة متميزة تضم كتب التراث العربي.

٣- القوى العاملة

أ- العمل على تعيين خريجي أقسام علم المكتبات من حملة شهادات الدبلوم أو البكالوريوس أو الدبلوم العالي من خريجي الجامعة المستنصرية وجامعة

البصرة؛ لغرض رفد المكتبات العامة بالقوى البشرية المؤهلة والقادرة على إدارة العمل المكتبي وتطويره.

ب- ضرورة الاهتمام بتطوير القوى العاملة في المكتبات العامة من خلال المشاركة في الدورات المكتبية التي تقام داخل المحافظة أو خارجها.

ج- ضرورة المحافظة على استقرار الموظفين العاملين في المكتبات العامة، وعدم تشجيع كل ما يَحْصُ نقل العاملين أو تنسيبهم في المكتبات إلى مؤسسات أخرى بعيدة عن ميدان التخصص في المهنة المكتبية.

٤- الخدمات المكتبية

أ- التأكيد على توصيات المؤتمرات المكتبية ومقرحاتها التي عُقدت داخل العراق، والخاصة بإيصال الخدمات المكتبية إلى المناطق النائية والأرياف من خلال المكتبات المتنقلة، وكذلك تقديم الخدمة المكتبية إلى المستشفيات والسجون.

ب- ضرورة الاهتمام بتحقيق اتصالات مثمرة وفعّالة مع الفئات الخاصة من المعاقين والمكفوفين والصُم والبكم، وتقديم الخدمات الخاصة بهم، من حيث توفير المطبوعات والمواد السمعية والبصرية، وكل ما يتعلق بمتطلبات هذه الخدمات.

ج- الاهتمام بخدمات الأطفال من خلال إعداد البرامج المشوقة التي تُسهم في كسب جمهور الأطفال، مع توفير مستلزمات هذه الخدمات.

د- تكثيف الجهود لتوفير خدمات المواد السمعية والبصرية في كل مكتبة عامة، وتتضمن عروض الأفلام والتسجيلات واستخدام التلفزيون والفيديو

والمواد الأخر المتعلقة بها.

هـ- لابدّ لمكتباتنا العامة من أن تأخذ على عاتقها تقديم الخدمة المرجعية للقراء والباحثين من خلال التوجّه لتدريب المكتبيين على كيفية استخدام كتب المراجع، بغية الردّ على أسئلة القراء واستفساراتهم التي تردّ إلى المكتبة عن طريق الهاتف أو البريد أو الاتصال المباشر.

و- ضرورة اعتماد المكتبات العامة على نظام تصنيف حديث كنظام (ديوي) العشريّ مثلاً؛ لكونه أكثر أنظمة التّصنيف ملائمة للمكتبة العربيّة؛ نظراً إلى التعديلات التي أُجريت عليه، وكذا ترجمته إلى العربيّة، وإمكان استيعابه لأكبر عددٍ من الكتب والموادّ المكتبيّة الأخر، ما يؤدّي إلى تنظيم المكتبة على أسس حديثة، والابتعاد عن النّظم التقليديّة المتّبعة في مكتباتنا العامة، والتي لا تتناسب مع التّطوّرات الحديثة في هذا المجال.

ز- توحيد نظم الفهرسة والتّصنيف، واعتماد قوائم رؤوس موضوعات موحّدة في جميع المكتبات العامة، فضلاً عن الاهتمام في تنظيم وترتيب الفهارس والعناية بها ومتابعتها وإكمال نواقصها.

ح- تكوين نواة لورشة صغيرة خاصّة بتجليد المطبوعات داخل المكتبة؛ توفيراً للوقت والجهد والمال.

ملاحق الدراسة

ملحق رقم (١)

استبيان خاصّ بالمكتبات العامة في محافظة البصرة

اسم المكتبة

الموقع

١- متى أُسِّست المكتبة؟

٢- ماهي مساحة المكتبة الكليّة؟

٣- هل بناية المكتبة

تسدّ الحاجة تسدّ الحاجة إلى توسّع لا تصلح بنايةً للمكتبة؟

٣- كم عدد قاعات المطالعة؟

٤- ما عدد الرّفوف (الدّواليب) في المكتبة؟

٥- هل تعتقد أنّ أعدادها كافية؟

- نعم.

- لا.

٦- ما عدد المناضد الخاصّة بالمطالعة؟

٧- هل تعتقد أنّ أعدادها كافية؟

- نعم.

- لا.

٨- ما عدد الكراسي الخاصة بقاعات المطالعة؟

٩- هل تعتقد أن أعدادها كافية؟

- نعم.

- لا.

١٠- هل تتوفر في المكتبة أجهزة للتصوير؟

- نعم.

- لا.

١١- ماهي أعداد مجاميع المكتبة من:

- الكتب العربية.

- الكتب الأجنبية.

- الدوريات عنوان.

- الصحف عنوان.

- الأطروحات.

- كتب الأطفال.

- المواد السمعية والبصرية؟

١٢- هل كتب المراجع العربية كافية؟

- نعم.

- لا.

١٣- هل كتب المراجع الأجنبية كافية؟

- نعم.

- لا.

١٤- ما عدد العاملين في المكتبة؟ وماهي مؤهلاتهم؟

- شهادة جامعيّة.

- دبلوم مكّتبات.

- معهد معلّمين أو ما يعادلها.

- ثانوية.

- متوسّطة.

- ابتدائيّة.

- دون الابتدائيّة.

١٥- ما عدد العاملين المشاركين في دورات مكّتيّة؟

١٦- ماهي أعلى نسبة من المستفيدين من خدمات المكتبة؟

- طلبة.

- معلّمون ومدّرّسون.

- موظّفون.

- ربّات بيت.

- أصحاب مهن حرّة.

- مزارعون.

- كبار سنّ.

- فئات أُخر - أذكرها رجاءً.

١٧- هل تمّ تعليم المستفيدين كيفية استخدام الفهارس؟

- نعم.

- لا.

١٨- نوع التّعليم

- محاضرات.

- جولة.

- أفلام.

- شخصي.

١٩- هل قام أمين المكتبة بزيارة بعض المدارس للتعرف على احتياجات

الطلبة؟

- نعم.

- لا.

٢٠- هل قامت بعض المدارس بترتيب زيارات للمكتبة؟

- نعم.

- لا.

٢١- ماهي المشاكل التي يعاني منها المستفيدون عند استخدامهم المكتبة؟

- قلة المصادر.

- ضيق المكان.

- قصور في الخدمة.

- عدم ملائمة قواعد ونُظم الإعارة.
- بُعد المكتبة.
- مشاكل أُخر (أذكرها رجاء).
- ٢٢- هل تستخدم المكتبة نظام الرفوف المفتوحة أو المغلقة؟
- ٢٣- هل تتبّع المكتبة نظام السّجل أو البطاقة أو الاستمارة في الإعارة الخارجيّة؟
- ٢٤- هل تعتمد المكتبة في الإعارة الخارجيّة على:
 - هويّة المستفيد.
 - التّأمينات النّقديّة.
 - الهويّة مع التّأمينات؟
- ٢٥- ما مدّة استعارة الكتب؟
 - أقلّ من أسبوع.
 - أسبوع.
 - أكثر من أسبوع.
- ٢٦- ماهي إجراءات فقدان الكتاب؟
 - غرامة ضعف سعره.
 - غرامة لسعر الكتاب فقط.
 - تزويد المكتبة بنسخة طبق الأصل أو أحدث.
- ٢٧- ماهي إجراءات تأخير الكتب؟
- ٢٨- هل يوجد قسم خاصّ بالمراجع؟

- نعم.

- لا.

٢٩- هل تمّ تعليم المستفيدين كيفية استخدام كتب المراجع؟

- نعم.

- لا.

٣٠- هل يوجد موظف متخصص بقسم المراجع؟

- نعم.

- لا.

٣١- هل تقدّم المكتبة خدمات:

- المكتبة المتنقلة نعم لا

- محو الأمية وتعليم الكبار نعم لا

- المواد السمعية والبصرية نعم لا

- الفئات الخاصة كالمعاقين والمكفوفين نعم لا

- المستشفيات والسجون؟ نعم لا

٣٢- ما هو دور أمين المكتبة في عملية الاختيار؟

- جيد.

- متوسط.

- لا علاقة له.

٣٣- هل يتمّ تزويد المكتبة بالمطبوعات مركزياً؟

- نعم.

- لا.

٣٤- هل يُسهم المستفيد في عملية الاختيار؟

- نعم.

- لا.

٣٥- هل يوجد قسم خاص بالتبادل والإهداء؟

- نعم.

- لا.

٣٦- هل يوجد قسم خاص بالتجليد؟

- نعم.

- لا.

٣٧- أيّ نظام تصنيف تستخدم المكتبة؟

- تصنيف ديوي العشري.

- تصنيف ديوي العشري المعدّل (البسط والمقام).

- أيّ تصنيف آخر (أذكره رجاءً).

٣٨- هل يتوافر في المكتبة فهرس بطاقي؟

- نعم.

- لا.

٣٩- ما نوع الفهرس البطاقي الموجود في المكتبة؟

- فهرس المؤلفين.

- فهرس عناوين.

- فهرس موضوعات.
- فهرس قاموسي.
- ٤٠- هل توجد أدوات وكتب مرجعية خاصة بالفهرسة والتصنيف؟
 - نعم.
 - لا.
- ٤١- هل يوجد قسم خاص بالأطفال؟
 - نعم.
 - لا.
- ٤٢- هل قامت المكتبة بمسابقة للأطفال لغرض تشجيعهم على ارتياد المكتبة؟
 - نعم.
 - لا.
- ٤٣- ما نوع الخدمات التي تقدّم للأطفال؟
 - أفلام علمية أو ترفيهية.
 - ألعاب مسلية.
 - رواية القصّة.
 - معارض الكتب.
 - تقديم الكتب التي تناسب أعمارهم.
 - الأعمال الفنية كالرسم والموسيقى، مثلاً.
- ٤٤- ما مدى تعاون المكتبة مع المنظمات الجماهيرية؟

- جيّدة - متوسّطة - ضعيفة.

٤٥- هل هناك قسم أو نشاط للعلاقات العامّة في المكتبة؟

- نعم.

- لا.

٤٦- ماهي الملاحظات والمقترحات التي تراها مناسبة وضروريّة لتطوير المكتبات العامّة في المحافظة؟ أذكرها رجاءً.

ملحق رقم (٢)

الهيكل التنظيمي للمكتبات العامة

مديرية المكتبات

تُشرف مديرية المكتبات التابعة للإدارة المحلية على ثماني مكتبات عامة تقع في مركز محافظة البصرة والأقضية التابعة إدارياً لها، وتقوم هذه المديرية بتزويد مكاتبها بالكتب والمجلات والدوريات والصحف، والمواد المكتبية المتنوعة، كالسجلات، وبطاقات الفهارس، واستمارات المطالعة، واستمارات التقارير الشهرية والسنوية، والقرطاسية، والأثاث، وغيرها من اللوازم الضرورية، وتُعَدُّ -أيضاً- خلاصة التقارير الشهرية والسنوية عن نشاطات المكتبات في المحافظة، وتولي الإدارة المحلية عن طريق هذه المديرية احتياجات المكتبات الفرعية اهتماماً كبيراً، حتَّى أصبحت من المراكز الثقافية المتقدمة لخدمة جماهير هذه المدينة التاريخية العريقة من المطالعين والباحثين؛ دعماً للروح العلمية المشرقة التي نتوخى أن يتحلَّى بها طالب العلم لخلق الجيل الواعي لمسيرة المجتمعات المتقدمة، فقد عمَّت خدماتها أرجاء المحافظة كافة.

وقد سعت الإدارة المحلية في إنشاء خمس مكتبات على النحو الآتي:

- ١ - مكتبة قضاء الزبير العامة / سنة التأسيس (١٩٦٩م).
- ٢ - المكتبة العامة في الجمهورية / سنة التأسيس (١٩٧٤م).
- ٣ - المكتبة العامة في شط العرب / سنة التأسيس (١٩٧٦م).
- ٤ - مكتبة قضاء المدينة العامة / سنة التأسيس (١٩٨٠م).

٥ - مكتبة عامّة في مركز العشار / سنة التأسيس (١٩٨٣م).

أقسام المديرية

١ - الإدارة والذاتية

مهمّته الأعمال الإدارية والاعتيادية، من تحرير المخاطبات الرسميّة، وتنظيم السجّلات، كالصادرة والواردة، والأثاث، وسجل الأساس، وحفظ الملفات.

٢ - التزويد والاستلام

يعمل على تنفيذ طلبات شراء الكتب؛ إذ يقوم بعد الاستلام بتصنيفها مركزياً طبقاً لنظام (ديوي) العشريّ، وإعداد قوائم التزويد للمكتبات الفرعية بموجب نموذج منظم لهذا الغرض، وكذلك إعداد قوائم بالمجلّات والدوريات والصّحف التي تزود للمكتبات عن طريق الشراء والإهداء.

٣ - الطّابعة

يقوم بطبع المخاطبات الرسميّة، ونماذج الاستمارات المكتبيّة، وبطاقات الفهارس.

ملاك المديرية

لقد أنشئ في الإدارة المحليّة لمحافظة البصرة (قسم المكتبات)، ويتحمّل المسؤوليّة الإداريّة والثقافيّة والفنيّة، ويعمل في مبنى المكتبة المركزيّة العامّة، ويتكوّن ملاكه ممّا موضح أدناه:

المهنة	الجنس	الشهادة			المؤهل المكتبي	المجموع
		ابتدائية	متوسطة	ثانوية		
١- مدير مكتبات	ذكر			١	دورة مكتبية سنة ١٩٦٤م	١
٢- ملاحظ الذاتية	ذكر			١	دورة مكتبية سنة ١٩٧٢م	١
٣- كاتبة التزويد	أنثى		١		دورة مكتبية سنة ١٩٨٤م	١
٤- كاتبة الطابعة	أنثى	١				١

خطة عمل مديرية المكتبات

قامت مديرية المكتبات بدور فاعل بحسب تخصصها الثقافي لتجعل من المكتبات العامة ملتقى المثقفين والباحثين، وقفزة مضيئة نحو تطور ثقافي في مدينة البصرة العريقة، وتكمن خطة عمل المديرية بالآتي:

١- الإشراف المباشر على متابعة العمل المكتبي في المكتبات العامة كافة، من خلال الزيارات الميدانية، والتوجيه بتنظيم مخازن الكتب، وقاعات المطالعة، وأرشيف الصحف والدوريات والمجلات، وتنظيم الفهارس البطاقة الحديثة؛ بغية تقديم أفضل الخدمات الثقافية لجمهور المطالعين والباحثين.

٢- الإشراف على خطة نشر الوعي المكتبي وتعريف جماهيره بأهمية المكتبات العامة ومحتوياتها من الكتب والدوريات والمجلات والصحف من خلال الوسائل الآتية:

أ- التنسيق مع مديرية المكتبات المدرسية لاستضافة طلبة المدارس وإطلاعهم على أقسام المكتبة والتعريف بمحتوياتها وطريقة العمل فيها، هادفين إلى خلق حالة من الصلة الوثيقة بين الطالب والمكتبة.

ب- الاهتمام بتنشيط دور المكتبات في المجتمع عن طريق التنسيق مع المنظمات الجماهيرية.

ج- اهتمت مكتباتنا العامة من الناحية الإعلامية والتربوية والتوجيهية، بإقامة المعارض السنوية، وعرض النشرات الجدارية، والبوسترات.

د- الاهتمام بعرض الكتب الحديثة في معارض خاصة.

٣- وقد قامت المديرية كذلك بالنشاطات المكتبية الآتية:

أ- الاهتمام بمكتبة الطفل بما ينمي قابليّاته الذهنية وتطويرها لخلق الجيل الواعي.

ب- الاهتمام بتنظيم الفهارس المتخصصة للتعريف بكتب التراث العربي في مختلف المجالات.

ج- الاهتمام بتنظيم فهارس الدوريات في المكتبات العامة الفرعية، وتبيين أعدادها نوعاً وكمّاً منذ تأسيس المكتبات.

الهوامش

- ١- هشام عبد الله عباس، المكتبات العامة في المملكة العربية السعودية وسبل تطويرها مجلة مكتبة الإدارة، مج ١٣، ع ١، ١٩٨٥م: ص ١٤٦
- ٢- حسن رشاد، المكتبات العامة: ص ٨.
- ٣- دليل المكتبات العامة ١٩٨٦م، وزارة الحكم المحلي، محافظة البصرة، مديرية مكتبات الإدارة المحلية، البصرة، ١٩٨٦م: ص ٨.
- ٤- هشام عبد الله عباس، مصدر سابق: ص ١٥٠.
- ٥- المصدر نفسه: ص ١٥٥.
- ٦- أحمد أنور عمر، المكتبات العامة بين التخطيط والتنفيذ: ص ٢٣٨.
- ٧- عامر إبراهيم القنديلجي، الكتب والمكتبات، المدخل إلى علم المكتبات والمعلومات: ص ١٤٤ - ١١٥.
- ٨- حسن أبو الرز، المواد السمعية والبصرية، أهميتها ومتطلباتها، رسالة المكتبة، مج ٢٠، ع ١، ١٩٨٥م: ص ٥.
- ٩- عامر إبراهيم القنديلجي، وآخرون: ص ٤ - ١٠.
- 10-Jolliffe, Harold. Public Library Extension Activities. 2nd ed. London, Library Association, 1968. PP.185-186.
- ١١- أحمد أنور عمر، المعنى الاجتماعي للمكتبة: ص ٩١.
- ١٢- عامر إبراهيم القنديلجي، وآخرون، مصدر سابق: ص ٢٣١.
- ١٣- نزار محمد علي قاسم، المراجع العربية العامة: ص ١٤.
- ١٤- أحمد أنور عمر، المعنى الاجتماعي للمكتبة، مصدر سابق: ص ٨٠.
- ١٥- زكريا الحاج محمد، خدمات الفئات الخاصة في المكتبات العامة، رسالة المكتبة، مج ١٧، ع ٤، ١٩٨٢م: ص ٩.

١٦ - أحمد أنور عمر، المكتبات العامة بين التخطيط والتنفيذ: ص ٣٣.

17-Mortimore. D.Arthur. Branch Libraries. London, Andre
Deutsh.1966, P141 (1)

١٨ - محمد حسن أبو الرز: ص ٤ - ٦.

المصادر والمراجع

- المصادر العربية

- ١- أبو الرّز، محمّد حسن، الموادّ السّميّة والبصريّة، أهمّيّتها ومتطلّباتها رسالة المكتبة، مج ٢٠، ع ١٤، ٢، ١٩٨٥ م.
- ٢- أحمد أنور عمر، المعنى الاجتماعيّ للمكتبة، ط ٥، القاهرة، مكتبة النّهضة المصريّة، ١٩٨٣ م.
- ٣- أحمد أنور عمر، المكتبات العامّة بين التّخطيط والتّنفيد، ط ٣ منقّحة، القاهرة، دار النّهضة العربيّة، ١٩٨٧ م.
- ٤- حسن رشاد، المكتبات العامّة، القاهرة، المؤسّسة المصريّة العامّة، ١٩٦١ م.
- ٥- زكريا الحاج حمد، خدمات الفئات الخاصّة في المكتبات العامّة، رسالة المكتبة، مج ١٧، ع ٤، ١٩٨٢ م.
- ٦- القنديلجي، عامر إبراهيم وآخرون، الكتب والمكتبات، المدخل إلى علم المكتبات والمعلومات، بغداد، دار الحرّيّة للطباعة، ١٩٧٩ م.
- ٧- نزار محمّد علي قاسم، المراجع العربيّة العامّة، بغداد، الجامعة المستنصريّة، ١٩٧٨ م.
- ٨- هشام عبد الله عبّاس، المكتبات العامّة في المملكة العربيّة السّعوديّة وسبل

تطويرها، مكتبة الإدارة، مج ١٣، ع ١٤.

٩- وزارة الحكم المحلي، محافظة البصرة، مديرية مكتبات الإدارة المحليّة، دليل المكتبات العامّة، ١٩٨٦م، البصرة، ١٩٨٦م.

- المصادر الأجنبيّة

- 1- Jolliffe – Harold. Public Library Extension Aactivities. 2nd ed. London. Library Association. 1968. 343 p.
- 2- Mortimore. D. Arther – Branch Libraries. London. Andre Deutesch. 1966. 165 P.

Gollanez, Sir H., *Chronicles of Events between the Years 1623 and 1733 Relating to the Settlement of the Order of Carmelites in Mesopotamia (Bassora)*, Oxford, 1927.

Khasro, Nasser. *Safarnama*, Cairo, 1993, 2nd ed.

Khayyoon, Rasheed. *Religions and Faiths in Iraq* (in Arabic). Holy Qum, 2005.

Longrigg, Steven H. *Four Centuries of the History of Modern Iraq*. Trans. By Jafar Alkhayyat, Baghdad, (n.d.).

Lorimer, John G. *The Gulf Guide: Historical Section*, Vol. 4, (n.d.).

Marzooq, Suhaila M. *The Social and Intellectual Structure of Basrah in the Pre-Islamic Era*. Mini Basrah Encyclopedia, No. 2, Kerbala: Basrah Heritage Center, 2016.

Sbahi, Aziz. *The Origins of Sabeans and Their Religious Beliefs* (in Arabic), Damascus, 2008.

Tavernier, Jean-Baptiste. *Iraq in the Seventeenth Century*. Trans. Into Arabic.

31. The Trip, p. 114

Bibliography

Mohammad Al-Arees, Islamic History Encyclopedia: the Ottoman Period (In Arabic).Beirut, 2005.

Al_Azzawi, Abbas. History of Iraqi Currency Following the Abbasid Period (1258-1917) (in Arabic). Baghdad, 1958.

-----, The History of Iraq between Two Occupations (in Arabic), Vol 4, Baghdad (n.d.).

Al-Kaabi, Shaikh Fathallah bin Alwan. Zad Al-Musafer(food of the trveller), in Arabic. Baghdad, 1958.

Al-Khaiqany, Haider Sabri. Writings of European Travellers: an Important Source of Writing Down the History of Basrah, Selected Samples: (in Arabic).University of Basrah, College of Arts Bulletin, No. 63, Vol. 2, 2012.

Al-Musawi, Abbas H. (ed.), The Rise and Fall of the Safavi State: an analytical study (in Arabic), Holy Qum, 2005.

Al-Mustafa, Hussain Ali. Making of New Basrah (in Arabic). Mini Basrah Encyclopedia, No. 1, Kerbala: Basrah Heritage Center, 2016.

-----, Basrah at the Beginning of the Ottoman Era (1546 – 1668): A Study of the Social and Architectural History (in Arabic). Damascus, 2012.

Al-Sahily, Khalil. Money in the Arab States During the Ottoman Period (in Arabic). The Jordanian University, Faculty of Arts Bulletin, Vol. 2, 1971.

of Arts Bulletin, Vol. 2, 1971, p. 11.

22. The tomb of Ezra.

23. The swarms of locusts continued to invade Basrah up to early 1960s. People used to hunt them to be boiled and then eaten.

24. The Trip, p. 101

25. The Trip, pp. 101 – 102

26. The Trip, p. 103

27. The position of the priest is not hereditary or electory as Tavernier supposes. Such a post requires checking up the character of the priest and then testing him. One condition is that he should learn by heart some religious texts. See commentary of Dr. Abdul Jabbar Abdulla, p. 104 of The Trip. For more details on the Sabeian religion, see Rasheed Khayyoon, Religions and Faiths in Iraq (in Arabic). Holy Qum, 2005, pp. 19-60; Aziz Sbahi, The Origins of Sabeans and Their Religious Beliefs (in Arabic), Damascus, 2008.

28. The Mandeian Sabeans viewpoints on Judgment Day focuses on three worlds: the world of light (Paradise), the world of fire (Hell) and the purgatory.

29. The Trip, p. 112

30. Slaughtering animals by them is done in this manner: the person concerned wears the religious dress known rasta which consists of a shirt, long pants, a turban, and a belt, all white in color. The carcass then is washed by running water.

15. They originally lived in Al-Carmel Mountain in Palestine. They first came to Basrah in 1623 headed by Father Basilius (Portuguese). In their memoirs, they recorded their history and part of the history of Basrah. See: Sir H. Gollanez, *Chronicles of Events between the Years 1623 and 1733 Relating to the Settlement of the Order of Carmelites in Mesopotamia (Bassora)*, Oxford, 1927, XXIII.

16. Basrah at that time was under the strong rule of Ali Pasha Afrasiab. It had a semi-independent rule. See: John G. Lorimer, *The Gulf Guide: Historical Section*, Vol. 4, p. 1764.

17. Abbas H. Al-Musawi (ed.), *The Rise and Fall of the Safavi State: an analytical study* (in Arabic), Holy Qum, 2005, pp. 121-174.

18. He is Hussain Pasha bin Ali Pasha Afrasiab (1645-1668), the last ruler of the Afrasiab Emirate. During his rule, The Ottomans tried to recover Basrah to their direct domination. They thus succeeded in

ending the Afrasiab Emirate in 1668. See: Shaikh Fathallah bin Alwan Al-Kaabi, *Zad Al-Musafer* (food of the traveller), in Arabic. Baghdad, 1958, pp. 17-54.

19. It is also called the French lira. See: Abbas Al-Azzawi, *History of Iraqi Currency Following the Abbasid Period (1258-1917)* (in Arabic). Baghdad, 1958, p. 131.

20. *The Trip*, p. 98

21. It has been called as such because it was the longest currency in circulation at that time. See: Khalil Al-Sahily, *Money in the Arab States During the Ottoman Period* (in Arabic). The Jordanian University, Faculty

7. See: Hussain Ali Al-Mustafa, Making of New Basrah (in Arabic). Mini Basrah Encyclopedia, No. 1, Kerbala: Basrah Heritage Center.

8. The correct distance between the Shatt Al-Arab and Pasha Quarter (the Headquarters of the Ottoman Ruler) is more than 5 kilometers. This river was called the Shatt Al-Arab six centuries ago when Nasser Khesro mentioned it in his trip. See: Nasser Khasro, Safarnama, Cairo, 1993, p. 163.

9. The Trip, p. 96

10. Some researchers state that the name of the Ruler of Basrah is Ayoud, which is not true. See: Haider Sabry Al-Kheqany, Writings of European Travellers: an Important Source of Writing Down the History of Basrah, Selected Samples: (in Arabic).University of Basrah, College of Arts Bulletin, No. 63, Vol. 2, 2012, p. 775.

11. In fact, the Ruler of Basrah Ali Pasha sold the city for eight sacks of money, each one having 500 piasters, which means that the total value was 4.000 piasters. See: Abbas Al-Azzawi, The History of Iraq between Two Occupations (in Arabic), Vol 4, Baghdad (n.d.), p. 139.

12. The Trip, p. 97

13. He is Shihab Eddin Shah Jihan who ruled India (1628 – 1658).

14. Ottoman Sultan Murad IV conquered Baghdad and recaptured it from the Safavids in 1638. See: Mohammad Al-Arees, Islamic History Encyclopedia: the Ottoman Period (In Arabic).Beirut, 2005, p. 66; Longrigg, Four Centuries of the History of Modern Iraq. Trans. by Jaafar Alkhayyat, Baghdad, (n.d.), pp. 96 – 98.

Endnotes

1. Jean Baptiste Tavernier was born in Paris in 1605. When he was 15 he migrated with his family to Western Europe and served in mansions. He took part in the battles against the Ottomans on the borders of Poland. Then he travelled to other places such as Arzrum, Persia, Baghdad, Aleppo, Aliskandarona, and came back to Paris in 1633. In 1638, he began his second trip to some Asian countries and stayed there up to 1642. His other trips covered countries such as East Indies, Japan and South Africa. His trips were collected in two volumes in 1676.

2. The Trip, p. 16

3. The Trip, pp. 30 – 31

4. The Trip, p. 31

5. He, in fact, means the ruins of old Basrah or Islamic Basrah whose inhabitants have deserted it gradually since the first decades of the 15th Century. See: Hussain Ali Al-Mustafa, Basrah at the Beginning of the Ottoman Era (1546 – 1668): A Study of the Social and Architectural History (in Arabic). Damascus, 2012, p. 64.

6. An old city built by Hamurabi in the southern level lands, to the west of the Euphrates for commercial purposes. Historically, the troops of Alexander, the Macedonian, led by Nerkhos, anchored at Tredon in 326 B.C. See: Suhaila M. Marzooq, The Social and Intellectual Structure of Basrah in the Pre-Islamic Era. Mini Basrah Encyclopedia, No. 2, Kerbala: Basrah Heritage Center, 2016.

compared with other aspects.

f. In the economic sphere, he briefly highlighted taxes, currency, horses, trade, and commercial routes.

g. The social aspect is tackled only scarcely. He did not write about society, on the type of the architecture at that time, or way of living.

h. He wrote in detail on Sabeans as he gives profuse descriptions about them compared with other aspects of Basrah.

9. Conclusion

It has become apparent that Tavernier's short trip to Basrah has covered various aspects. Although some descriptions are mostly accurate, others came hasty and imprecise. The researcher has come with the following conclusions:

- a. Tavernier did his best to include as many details on Basrah as possible. He hinted at geographical, political, historical, economic, and religious aspects, together with some information on social issues.
- b. In his geographic and agricultural aspects, Tavernier is most often away from precision when pointing to distances, agricultural methods and animals raising.
- c. The records of the trip include an apt description of the ruins of Basrah, although the description appears incomplete in certain cases.
- d. Only little description is given on the Headquarters of the Afrasiab Emirate. Yet, there is lack of information on the shift of rule to the Afrasiab Emirate.
- e. Tavernier's description of the political sphere is limited

shame if marriage is carried out without the blessing of the bishop⁽²⁸⁾.

The Sabeans honor the 'cross' much and name themselves by it, but they could not show this openly in the presence of the Ottomans. They used also to put a guard at the gates of their temples lest the Ottomans should intrude and impose very stiff fine⁽²⁹⁾. Their main Eids (feasts) are three: one in winter which continues for three days for the memory of Adam and Eve; the second is in August for three days, also known as Mar John Eid; and the third one is in June and lasts for five days. They have their holiday on Sundays when they are doing nothing during daytime. Besides, they do not fast⁽³⁰⁾, experience no spiritual repentance, and do not have revealed sacred books. The only book they have is about sorcery⁽³¹⁾.

"the Sabeans of Yahya", i.e. the vassals of John of whom they took their own doctrine, books, and traditions ⁽²⁶⁾.

Tavernier also stated that the Sabeans were celebrating their religious Eid (Festival) that continued for five days. During these days, they used to go in groups to their leaders to baptize children in the rivers on Sundays. In case a bishop or a priest dies and has a son, they get used to elect the son to take his father's position ⁽²⁷⁾. He described the Sabeans' marriage ceremonies indicating that the relatives and invited persons by the bridegroom went to the bride's home. The bishop used to attend the ceremony and ask the bride if she is virgin. When she answers yes, she is required to take an oath to support her claim. He then goes back to the guests and asks his own wife and other experienced women to go to the bride and be sure of her virginity. When it is discovered that the bride is not virgin, the bishop abstains from continuing the marriage ceremony. In case the bridegroom feels satisfied with the bride, he should go into a religious man of a lower rank to undertake the ceremony. Generally, people find it a

nearby villages. Yet, he did not give any statistics about their exact numbers saying that they formerly lived near Jordan River ⁽²⁴⁾. He indicated that Prophet Mohammad's successors (the Caliphs) aimed at annihilating them (there is no proof whatsoever supporting such a viewpoint), and so they destroyed their temples, burnt out their books, and used violence against them (this is groundless!). Feeling themselves under big pressure, they migrated to Mesopotamia and Kaldiya (Babylon and Ur). After staying there for decades, they then moved to Persia, Arabia, and Basrah. He reported that these Sabeans lived in cities or villages that contain rivers only. In these new places, they amounted to about 25 thousand families working as traders, but mostly practicing craftsmanships such as blacksmiths, goldsmiths, and carpenters ⁽²⁵⁾. Tavernier attacked their creed and he believed that their faiths are loaded with myths and illusions, but he did not provide any evidence. He adds that both Arabs and Persians call them Sabeans because they have left their own religion and embraced another one. The Sabeans, on their part, call themselves

Dutch factory who was picnicking in a boat covered with velvet clothes.

7. Social Sphere

During his short stay in Basrah, Tavernier saw large swarms of locusts that appeared from far away as dark clouds. He was told that locusts used to pass Basrah four or five times per year carried by wind. He also noticed some small shops in that area selling locusts boiled with oil to the sailors heading for Hormoz ⁽²³⁾. There was in Basrah at that time a judge appointed by the Emir away from the approval of the Sublime Porte.

8. Religious Sphere

There were three groups of Christians at that time: the Jacobites, the Assyrians, and the Christians of Saint John. This is a common mistake made by most travelers or explorers who thought that Mandeian Sabeans are a Christian sect! In his records of Basrah, Tavernier wrote in detail about the Mandeian Sabeans. He called them Christians of Saint John adding that there were many of them in Basrah and the

6. Geographical Sphere

Tavernier describes the distance (20 water leagues) between Basrah city and the beginning of Shatt Al-Arab in Qurna, wrongly called the Euphrates by him. He said that it took them ten days travelling from Baghdad to Basrah. Each night they anchored in the river and had their meal. In case they came across any village, they sent their servants to the river bank to buy food for little money. In that voyage, they passed by a number of cities including Amurat (Amara), Satarat (Shatra), Al-Mansoori (most probably Mansuriya), which was a big township, Magar, Gazer (Al-Uzair), and Gorno (Qurna)⁽²²⁾. He also described green lands surrounding the Tigris saying that he had seen extensive pastures, blooming orchards with large numbers of tamed animals such as horses and buffalo on which the Ottoman authorities imposed taxes.

Then he sailed in the canal that was dug from the Euphrates to Basrah city center. He, in fact, means Al-Ashar River, and again he uses the Euphrates mistakenly here! On his way to the city center, he met the man in charge of the

various nationalities were present in Basrah at that time from Constantinople, Azmir, Aleppo, Damascus, Cairo and some other Turkish cities to buy their needs of goods ⁽²⁰⁾.

The traders who came to Basrah from Diyarbakr, Mosul, Baghdad and other places used ships sailing in the Tigris to carry their commodities. That way of transport caused them a lot of fatigue and much money as these ships were sailing slowly and could not move for more than two leagues and a half per day. But if the ships were sailing against the wind, then the trip used to take 60 days from Basrah to Baghdad. In case other obstructions occurred, the trip would take 3 months!

The Customs Office in Basrah was collecting 5%, hence the general income of the Emir of Basrah amounted to 3 million liras yearly. His revenue consists of four items: money, horses, cattle, and date-palm trees, although the major part of the revenue comes from date-palm trees as farms extend from Qurna up to the sea (about 150 Kms). For each date-palm tree, three quarters of a taweela ⁽²¹⁾ or nine French swats (1/20 of the franc) had to be paid.

the son of the Emir, he was imposing full customs duties on all passing ships.

Tavernier arrived in Qurna and its big castle, and saw the other smaller castles at both sides of the city. The main castle had a cannon⁽¹⁸⁾. He wrote down that one could not pass through the water route in Qurna without taking the authorities approval there. In fact, ships had to pay taxes to be able to leave to Baghdad or to Basrah. He met the man in charge of the castle at that time.

In writing about the Arab horses, he said that they were very costly. He cited the example of the Mongol ambassador who paid 3.000, 6.000, and 8.000 crowns⁽¹⁹⁾. As the cost of the horse was no less than 10.000 crowns, the ambassador refrained from buying it.

Talking about the international trade with Basrah, Tavernier revealed that the Dutch were bringing spices to Basrah every year. The British were bringing peppers and carnation, while the Portuguese did not have any trade with Basrah. The Indians, on their part, used to bring Calcutta textile, indigo, and many other goods. Besides, traders from

that Persians were heading for it.

When Shah Abbas the Great ⁽¹⁷⁾ conquered Hormoz in 1622, he sent a very strong army led by Quli Khan, the Ruler of Shiraz, to take over Basrah. When Emir Ali Pasha Efrasiab found himself unable to face that big army, he agreed with the Arabs of the desert to break up the dam that holds sea water (marshes water). Doing so, the sea water flooded an area amounting to 15 leagues towards Basrah. The salinity of sea water, following the reflux of water later on, considerably affected the productivity of the orchards, groves, and planted areas of Basrah.

5. Economic Sphere

The Tigris and the Euphrates meet at Qurna. This city, Tavernier writes, has three castles. The first is located at the meeting place of the two rivers and is the most fortified of the three. In this castle lived the son of the Emir Hussain bin Ali Pasha Afrasiab who was the ruler of the city. The second castle was located at Kaldiya, and the third one was located at the Arabs land. Although the ruler of the first castle was

corundrum as a gift to the Emperor of the Mongols. Unable to operate it, the ambassador broke it. In Basrah, he called for the Carmelite priests and asked them to repair the watch as he feared death penalty in case he went back to his Leader with the broken watch.

On his part, Ali Pasha Afrasiab established cordial relations with various foreign nations. At that time there was peacefulness and order in Basrah as one can walk in the city any time at night, even after midnight, and yet feel quite safe and reassured.

Tavernier said that he dwelt in the Carmelites Residence⁽¹⁵⁾. They could not repair the broken watch, so they asked him to use his skills to fix it. He took it and put a new spiral for it, and therefore it started working again. The ambassador expressed his deepest thanks for Tavernier for that invaluable service. The Carmelite priests, on their part, begged Tavernier to ask the ambassador to secure safety for them, their houses, and their churches in case the Sultan decided to conquer Basrah. However, the Ottomans did not make any attempt to capture Basrah⁽¹⁶⁾ as they knew

As the agreements between the Turkish ruler and the intervening Bedouins proved futile, the wali (ruler) Ali Pasha⁽¹⁰⁾, whose rule witnessed a lot of conflicts and revolts, decided to get rid of this heavy fatiguing burden, and so he sold his government for 1.000 piasters⁽¹¹⁾ for a rich and noble man named Efrasiab who began immediately to recruit a number of his followers, and so imposed his authority in the city. Besides, he adopted the title of the Emir of Basrah. Ali Pasha was hanged⁽¹²⁾ when he immediately reached Constantinople. When the Ottoman Sultan Murad captured Baghdad in 1638, the Emir of Basrah Ali Pasha Afrasiab (1602-1645) got used to send precious gifts to the Sultan including pedigreed horses well known in the region.

4. Political Sphere

During Tavernier's stay in Basrah for three weeks, the ambassador of the powerful leader of the Mongols⁽¹³⁾ arrived in Basrah. He has already left Constantinople to Baghdad to congratulate the Sultan for conquering the city⁽¹⁴⁾. The Sultan gave him a small watch inlaid with diamonds and

is about 15 leagues from Basrah (Tavernier here is wrong again as the real distance between Basrah city center and Fao is 95 Kms and not about 75 Kms as he claims).

Tavernier then gives an account of the arrival of Ottomans to Basrah in 1546 and after a fierce battle they could conquer it. Like most European travelers and writers, he called Ottomans as 'Turks'. He adds that the Arabs of the desert surrounding Basrah were making raids against the city plundering spoils they could get. The Ottomans were forced to conclude an agreement with them giving them the freedom to move in the desert, five kilometers from the outskirts of the city while the city itself was controlled by the Ottomans. This agreement, however, did not last for a long time. The government headquarters in the city was inside a castle built by the Ottomans in a place known as hosh al-Pasha (the Office of the Ruler)⁽⁹⁾. The city garrison consisted of Turkish soldiers. The Arab citizens were always revolting against them. These troops were responding by using force against them. The desert Bedouins used to give aid to Basrah people and besiege the Pasha in his castle.

3. Historical Sphere

The convoy moved through the desert near Basrah until it reached the ruins of the First Basrah (the Basrah of Utba bin Ghazwan). Tavernier saw the remains of some houses on both sides of the convoy route, and guessed that they should have been remnants of a formerly big city at that location.⁽⁵⁾

Tavernier identified Basrah city center at the distance of two leagues (10 Kms) at the side of the Arab Peninsula, specifically at the ruins of a city known previously as Teredon⁽⁶⁾. He states that its old location is in the desert. It gets water from the Euphrates using a canal built and coated with bricks. The present Basrah city (the Second Basrah)⁽⁷⁾ is about 2 kilometers and a half from the Euphrates and known as the Shatt Al-Arab⁽⁸⁾. The Basrah people constructed a canal extending for about half a league (in fact it is more than one league and a half, equal to 5 kilometers) where ships of fifty or one hundred tonnes can sail. At the end of the canal there exists a castle controlling all passing ships. The sea (namely, the Gulf waters in Fao)

also as Basrah – Aleppo commercial route ⁽²⁾ where the convoys heading for Basrah move with the beginning of rainfall season as they need water badly on their way to Basrah, Tavernier wrote. He mentioned that raining would rarely stop up to December every year. This, in fact, is not right ⁽³⁾ as rain usually starts falling in Basrah from October up to April.

Tavernier described the desert route used by commercial convoys and the cities on the way until he reached a place nearby to Basrah. There he met a convoy of an Arab emir surrounded by his entourage, heading for the Arab desert. The emir sent one of his followers to Tavernier's convoy as he knew that there were a few Europeans travelling with him. That person asked for a surgeon to help them. Tavernier, together with a surgeon, went to the emir. The surgeon noticed herpes on the emir's left hand. Therefore he went with some of the emir's followers to buy medicine from Basrah city center. Not feeling desirous for treating the emir, he did not search seriously for the medicine in the city. ⁽⁴⁾

by Tavernier for more clarity. A number of sources have been used to support the views put forward. The paper has been divided into nine sections that tackle historical, political, geographic, economic and religious issues. In the historical sphere, Tavernier called the Ottomans as Turks as did other European travelers and historians. The researcher, however, used the word 'Ottoman' as it represents the official nomination of the Ottoman state. The word 'trip' will be used in this paper to indicate Tavernier's trip to Basrah.

The researcher made use of the comments made by Dr. Abdul Jabbar Abdulla, the famous Iraqi physics scholar and the second president of the University of Baghdad. The translators of Tavernier's book sought the help of Dr. Abdulla (himself a Sabean) to clarify what Tavernier has written on Sabeans, as the writer has attacked this sect severely and looked at them with contempt.

2. The Aleppo – Asfahan – Aleppo Routes

In Chapter Three of the Second Book of the second trip, Tavernier ⁽¹⁾ listed five routes between Aleppo and Asfahan. All these five routes pass through the Great Desert, known

1. Introduction

Trips made to Arab countries, in general, and to Iraq in particular, are of prime importance in terms of knowledge gained and also for historical perspective. These trips encompass information gathered by witnesses which may not be found in other written sources. In this context, Tavernier's trip to Basrah at the beginning of the 17th Century is an important information source on the city at that time.

Tavernier visited Basrah in 1638 and wrote down his own observations and information gained directly from the people he met. Although he stayed in Basrah for three weeks only, he dealt with a number of political, economic, historical, geographical and religious issues.

This research paper tackles these various aspects reflected mainly in Chapters Three and Eight of the Second Book of his second trip. The researcher opted for paraphrase to convey the ideas in the paragraphs written

ملخصُ البحثِ

تُعَدُّ هذه الرحلة من الرحلات المهمة في منتصف القرن السابع عشر؛ لاحتوائها على معلومات تُفيد الباحثين عن البصرة في هذه المدّة، وتنوّعت المعلومات ما بين جغرافيّة، مثل: ذكر مناطق في ولاية البصرة بأسماء غير صحيحة، وبين أحداثٍ تاريخيّة عن أطلال البصرة القديمة، والعلاقات (الصفويّة-العثمانيّة)، وانعكاساتها على البصرة في مدّة زيارته، وكذلك معلومات عن إمارة أفراسياب في البصرة، وعن حكم آل مغامس قبلها، واهتمّ بذكر القضايا الاقتصاديّة، فتحدّث بشكلٍ مختصرٍ عن التجارة والتّجار، والزّراعة وأهمّيّتها لأمير البصرة، والضرائب وأماكن استيفائها، وذكّر وجود دارٍ لسكّ النقود في البصرة، وقد خَصَّص الجزء الكبير من رحلته للكلام عن طائفة الصّابئة في البصرة. لقد احتاجت دراسة هذه الرحلة إلى بذل الجُهد لتصحيح الأخطاء التي وقَع فيها (تافرنيه) في القضايا التاريخيّة، وأسماء الأماكن، وعن الصّابئة، التي عدّها فرقة دينيّة مسيحيّة، وتناول معتقداتهم بشكلٍ غيرٍ صحيحٍ، ولم تُصحّح تلك الأخطاء من الباحثين الذين اقتبسوا منها بعض المعلومات.

Abstract

Tavernier's trip to Basrah in mid-17th Century is considered to be one of the important trips abroad. It contains a lot of useful information on Basrah at that time. It covers historical documentation on Basrah old remains, Safavid-Ottoman relationships, Afrasiab Emirate, Al-Mghamis rule, together with the type of commerce prevailing at that period, agriculture, taxes imposed, coins minting etc. For most of his trip, Tavernier wrote in details about the Sabean sect in Basrah. The paper has identified and corrected a number of mistakes made by Tavernier regarding historical issues, names of places, on Sabeans whom he wrongly considers as Christians.

Tavernier's Trip to Basrah in
the 17th Century

البصرةُ في رحلةِ (تافرنبيه)

Professor Hussain Ali Al-Mustafa, Ph. D.

History Department / College of Education for Human

Sciences / University of Basrah

أ.د. حسين علي المصطفى

جامعة البصرة / كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم التاريخ

Oil of Basrah (1938- 2013)

239

Assistant proffssor Dr.Abdul Jabbar Abbood Al - Hilfi
Basrah and Arabian Gulf Studies Centre/University of Basrah

**General Libraries in Basrah Governorate During 1980s
(a Field Study)**

269

Professor. Dr. Mohammad Aodàh Eliwee
Assistant proffssor Dr. Mogbel Lazem Muslim al-Malikee
Department of Information and Library Science / College of Arts / University of
Basrah

Tavernier's Trip to Basrah in the 17th Century

19

Professor Hussain Ali Al-Mustafa, Ph. D.
History Department / College of Education for Human Sciences / University of
Basrah

Contents

Expansion in Tackling Arabic Vocabulary Items in the Poetry of (Bashar Bin Burd) 23

Assistant professor: Abdul Zahra Oda Jabur

Department of Arabic Language/College of Education/ Maisan University

The Establishment of Basrah and the Stages of its Development up to the End of the Umayyad Period 65

Professor. Dr. Raheem Hilo Muhammad Al- Bahadli

History Department/College of Education for Women/ University of Basrah

Aspects of Imam Ali's Policy (peace be upon) with Basrah People 91

Dr. Alaa Hassan Mardan Allamy

Imam Kadhimi College for Islamic Studies

Market Professions in Basrah in the First Abbasid Era(132-232 AH / 750-846 AD) 135

Professor. Dr. Abdul Hakim G. Al Kaabi

Basrah and Arabian Gulf Studies Centre/University of Basrah

"Om AL Broom" poem By: Bader shaker Al –sayyab: a different reading 167

Professor. Dr. Hamed Nasser Al-Dhalimy

Department of Arabic Language/College of Education for Human Sciences / University of Basrah

Town of (Qurnah) in the Writing of Foreign travelers and Top Officials 195

Assistant proffssor Dr. : Emad Ja ssim Hassan al Mussawi

History Department/College of Education for Human Sciences/ Thi-Qar University

scholars specialized in Basrah issues. It held a number of symposiums and seminars, published books and magazines, and organized various cultural programs. Recently, the Center published a refereed academic bulletin entitled Basrah Heritage—an outlet for rigorous research work on Basrah various cultural aspects. The bulletin is open for all researchers and writers to secure more research on Basrah.

Editorial Board

students. Throughout history, Basrah contributions in various fields have been quite apparent.

Despite all this, Basrah has been inflicted with top authorities who have undertaken its responsibility and have consequently exposed the city to ordeals and troubles. As such, it has become necessary to tackle this turbulent situation. The first important procedure in this respect was taken by Imam Ali bin abi Taleb who could bring out reformations, following Al-Jamal Battle. He could also convince the people of Basrah that they are knowledge-loving in addition to their goodness, wisdom and generosity. In addition to that, he granted Basrah Mosque a new cultural dimension besides its religious role.

As Basrah has witnessed attempts for distorting, perverting and undermining its cultural heritage, the Abbasid Holy Shrine, out of high responsibility, took upon itself the task of highlighting Basrah cultural masterworks. It therefore established Basrah Heritage Center with the aim of reviving the rich heritage of this city. Since its inception, the Center sought to attract researchers and academic

Editorial

For a long time, Basrah has been a meeting place for commercial caravans and also for various thoughts and cultures. Basrah for this reason used to play an important role for its cultural activities and contributions.

With the emergence of Islam, Basrah mentality has been well-prepared to interplay and deal with the principles, values and thoughts of this new religion. Specifically, the role played by Basrah Grand Mosque and The Mirbad (grand poetic festival) has been very effective both intellectually and culturally. Be that as it may, the cultural products have been distinguished by creativity and open-mindedness.

The cultural activities in the city attracted creative scholars and authors from different countries, which added to Basrah cultural heritage. Besides, Basrah became a destination for scholars, savants and culture-loving

not approved; it is not necessary to state the whys and wherefores of the disapproval.

e: Research papers to be published are only those given consent by experts in the field.

f. The researcher would be bestowed a copy of the journal in which the research paper is published, together with a financial reward.

13. Priority in publication is dictated by the following:

a. Research papers delivered in conferences or symposiums held by Basra heritage Center.

b. The date of receiving the research papers concerned by the Editor-in-Chief of the journal.

c. The date of submitting the research papers after carrying out the required modifications.

d. Diversifying research papers topics as much as possible.

14. Research papers should be emailed to the Center's main office location:

Basra heritage Center

Al-Ghadeer Quarter

Baghdad Street,

Basrah, IRAQ

been published before, or submitted to any means of publication.

11- The ideas contained in the research paper manifest the viewpoints of the researchers themselves; it is not necessary that they come in line with the general policy of the Journal. The research papers arrangement is subject to technical priorities.

12- All research papers are exposed to confidential revision to secure their reliability for publication. No research paper would be returned to researchers, whether they are approved or not. The publication procedures are as follows:

a: The researcher should be notified to deliver the research paper for publication in a two-week period maximally from the time of submission.

b: The researchers whose papers are approved are notified of the expected date of publication.

c: The papers to be rephrased or those that require any modification, before publication, would be sent back to the respective researchers together with the notes to be prepared for final publication.

d: Notifying the researchers whose research papers are

6- All sources used in the research paper should be fully documented in the endnotes, taking cognizance of the common scientific procedures in documentation including the title of the book, editor, publisher, publication place, version number, publication year and page numbers. Such procedure is used in the first reference to the source. But if it is used again, documentation should include only the title of the book and the page number.

7- In the case of having foreign sources, there should be a bibliography apart from the Arabic one, and such books and researches should be alphabetically ordered .

8-Printing all tables, pictures, graphs and charts on attached papers, and making an allusion to their sources at the bottom of the caption. There should be a reference to them in the context.

9- Attaching the curriculum vitae. If the researcher contributes to the journal for the first time, it is necessary to manifest whether the research paper was submitted to a conference or a symposium for publication or not. There should be an indication to the sponsor of the project, scientific or nonscientific, if any.

10- The research paper presented should never have

Publication Rules in Basrah Heritage Journal

Basrah Heritage Quarterly Journal receives original research papers under the provisions below:

1- The paper should cope with the interests and goals of the journal(Basrah Heritage issues).

2- Research papers or studies to be published should strictly be according to the globally-agreed- on standards.

3- The paper should be printed on (A4). Three copies and a (CD) having ,approximately, 5000-10000 words using simplified Arabic or Times New Roman font and in pagination should be delivered to the Journal Editor in Chief.

4- An abstract in Arabic or English, not exceeding one page,150 words, with the research title, should be delivered with the paper.

5- The front page should have the title, the name of the researcher/researchers, occupation, address, telephone number and email. Name(s) of the researcher / researchers in the context should be avoided.

Editorial Secretary

Dr. Tariq Muhammad Hassan Mutar

Editorial Board

Prof. Husain Ali Al Mustafa \College of Education for Humanitarian
Sciences\University of Basrah

Prof. Raheem Hilo Muhammad\College of Education for Women
\University of Basrah

Prof. Shukri Nasser Abdul Hassan/College of Education for
Humanitarian Sciences\University of Basrah

Prof. Najim Abdulla Al Musawi \College of Education\University
of Maisan

Assist. Prof. Abdul Jabbar Al Helfy \College of Administration and
Economics\ University of Basrah

Assist. Prof .Muhammad Qasim Ni'ma \College of Education for
Women \University of Basrah

Assist. Prof. Emad Jghaim Owaïd \College of Education\University
of Maisan

Assist.Prof. Sabah Edan Al Ebadi \College of Education\University
of Maisan

Assist. Prof. Ali Majid al-Badri /College of Arts \University of Basrah

Arabic Language Check-up

Dr. Tariq Muhammad Hassan Mutar

Financial Administrator

Sa'ad Salih Besheer

Website

Ahmad Husain Al Husainy

Design and Printing Production

Muhammad Shihab Al Ali

The general Supervisor

Seid. Ahmad Al Saffy
The General Guardian of Al-Abbass Holy Shrine

Scientific Supervisor

Sheikh Ammar Al Hilaly
Chairman of the Islamic Knowledge and Humanitarian Affairs
Department in Al-Abbass Holy Shrine

Editor in Chief

Sheikh Shaker Al Muhammady

Advisory Committee

Prof. Sae'd Jasim Al Zubaidy/University of Nazwa/Sultanate of
Oman

Prof. Abdul Jabbar Najy Al Yasiry \House of Wisdom\Baghdad
Prof. Tariq Nafa' Al Hamdani\College of Education \University of
Baghdad

Prof. Hasan Essa Al Hakeem \University Islamic College\ Al Najjaf
Al Ashraf

Prof.Fakher Hashim Sa'ad Al Yasery / College of Education for
Humanitarian Sciences\University of Basrah

Prof. Majeed Hameed Jasim/College of Arts\University of Basrah

Prof. Jawad Kadhum A Nasr Alla\College of Arts \University of
Basrah

Assist. Prof. Mahmoud Mohammed Jayed Alaidani/Scientific
Committee Member of the University of Mustafa/Holy Qom

Managing Editor

Assist. Prof. Amir Abed Muhsen Al Sa'ad

A decorative frame with a central yellow hexagonal area. The frame is composed of intricate geometric patterns in brown and gold, including star and floral motifs. The central area contains text in black and brown.

In the Name of Allah Most Gracious Most Merciful

This day I have perfected your
religion for you and completed
my favor to you. I have approved
Islam to be your religion

(From Surat Al-Maida - verse (3))



Secretariat General of
Al- 'Abbas Holy Shrine



Basrah Heritage
Center

print ISSN: 2518 - 511X

Mobile: 07800816597 - 07722137733

Email: basrah@alkafeel.net

Consignment Number in the Housebook and
Documents in Baghdad: 2254, 2017.

Iraq - Basrah

Al-Abbas Holy Shrine. Department of Islamic Knowledge and Humanitarian
Affairs. Basrah Heritage Center.

BASRAH HERITAGE : A Quarterly Refereed Journal Specialized in Basrah
Heritage \ Issued by Al-Abbas Holy Shrine Department of Islamic Knowledge
and Humanitarian Affairs Basrah Heritage Center.- Basrah, Iraq : Al-Abbas
Holy Shrine, Department of Islamic Knowledge and Humanitarian Affairs,
Basrah Heritage Center, 1438 hijri = 2017-

Volume : Illustrations ; 24 cm

Quarterly.-First Year, Volume No. 1, Issue No. 2 (June 2017)-

ISSN : 2518-511X

Includes bibliographical references.

Text in English ; summaries in English.

1. Basrah (Iraq)--History--periodicals. 2. Basrah (Iraq)--Description and
travel--periodicals. A. title.

DS79.9.B3 A8373 2017 VOL. 1 NO. 2
Cataloging Center and Information Systems



BASRAH HERITAGE

**A Quarterly Refereed Journal
Specialized in Basrah Heritage**

Issued by

Al-Abbas Holy Shrine

**Department of Islamic Knowledge and
Humanitarian Affairs**

Basrah Heritage Center

First Year -Volume No.1- Issue No.2

Ramadan 1438 A.H / June 2017 A.D